الإسلام والوجه الآخر
للفكر الغربي (قراءات)

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
تقديم
كارودي : إعادة صياغة العالم
سانتيلانا : حول خصائص الشريعة
لاندو : آفاق التوحيد
كب : العقيدة والشريعة والاخلاق
وات : الدين والحياة .. والامة
لوبون : انتشار الاسلام ومعاملة المغلوبين
سلهب : دعوة للفهم
بوكاي : الإعجاز .. والتحدي بالعلم
ديورانت : التعامل مع ((الاخر))
لوقا : أخلاق النبوة
ستودارد : التحرير .. والتوحيد
درمنغم : صورة عن ((الرسول)) أقرب الى الصدق
سوسة : الإسلام من منظور مقارن
دينيه : اكتمال المعمار
تريتون : شواهد عن ((غير المسلمين)) مرة أخرى
بلاشير : الوجه الآخر للإعجاز
كارلايل : البطولة في مستوياتها العليا

تقديم :

قد تكون هذه ((المقدمة)) فرصة لتوضيح مسالة ذات طابع منهجي يمس تعامل الاسلاميين مع معطيات الفكر الاستشراقي ، والغربي عموما.

فالبعض يرى أن اعتماد عدد من الشهادات ((الايجابية)) لهذا المستشرق او ذاك ، عن جانب ما من جوانب الاسلام ، يعني في نهاية الامر ((تزكية)) له وربما تبرئة لاعماله التي تتضمن في الاعم الاغلب ، سيولا من الشهادات ((السلبية)) المضادة ، تقف نقيضة تماما ، ليس للمعطيات الاسلامية فحسب ، بل لبداهاتها وقناعاتها المعروفة كذلك.

وهم ، من اجل تاكيد موقفهم ، يعيدون الى الاذهان عددا من الشواهد التي تدين الفكر الاستشراقي وتدمغه بالمكر والتجاهل.

هذا صحيح ، بل ان بمقدور المرء ان يشير الى جل الاعمال الاستشراقية كشواهد سيئة على الموقف الغربي من الاسلام ، ولن يحتاج هذا الى كبير عناء . بل انني وانا اتعامل مع هذه الاعمال خلال دراسات عديدة تتعلق بالفكر الاستشراقي ، او عبر تدريس مادة ((مناهج المستشرقين)) لطلبة الدراسات العليا ، كنت اصل – احيانا – حد القرف والاشمئزاز !!

لكن هذا كله ليس الوجه الوحيد للمسالة ، فهناك وجه اخر يرتبط بمنهج التعامل ارتباطا اكيدا ؛ اذ لا يمكن ان ننتزع من حلوق المستشرقين شهاداتهم الايجابية المتناثرة هنا وهناك ، والتي تمثل في نهاية الامر ، اعترافا حرا لا يتضمن اي قدر من القسر او الاكراه ، بالقيمة المتالقة الفذة لهذا الجانب او ذاك من الاسلام ؟

فاذا ما عرفنا مسبقا ان رجالا من امثال بلاشير او كب او تريتون ممن يحاورهم هذا الكتاب ، انما هم نماذج لخط طويل جدا من المستشرقين الذين لم يقدروا على الانفكاك من اسر التحيز والتاثير الثقافي او المذهبي ، فانه ستسقط – ابتداء – لعبة التحايل بالنصوص الايجابية لايقاع الخصم في شبكة الشواهد السلبية التي تدين كل ما هو اسلامي اصيل.

والذي يبقى بعد هذا هو قوة الاعتراف بجانب من الحقيقة التي تصدر احيانا عن متهمين ثبتت جريمتهم او كادت ، ولكن القضاء يعرف كيف يوظفها لتاكيد الحق .. ان المرء ليتذكر مقولة ابن الخطاب المعروفة (رضي الله عنه) :

((انما اثمهم عليهم ونفعهم لنا)) ، ومقولة علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) :

((كلمة حق يراد بها باطل)) ، لكنها ، بحد ذاتها ، كلمة حق ، ونحن لو احسنا انتزاعها والتعامل معها لقدرنا على توظيفها في تيار الصراع المحتدم بيننا وبين الخصوم ، ولحولنا سلاحهم لصالحنا ، وربما – من يدري ؟ – باءوا بالاثم وعدنا بالمنفعة.

عشرات السنين ونحن نكيل التهم ونصب اللعنات على المستشرقين ، وهذا حق بشكل من الاشكال. انه رد الفعل المناسب لركام من الاباطيل والاضاليل والترهات المرسومة بخبث وعناية .. ولكن ماذا لو اضفنا الى هذا جهدا اخر يسعى لمتابعة والتقاط شهادات التقويم الايجابية – بغض النظر عن اهدافها وعن طبيعة ارتباطها بقيمة هذا الجانب او ذاك من جوانب الاسلام ؟

في مقدمة كتاب لي عن الفكر الغربي بعنوان (قالوا عن الاسلام) ، تقوم بنيته على الرؤية المنهجية نفسها ، ترد العبارات التالية : ((ان ما قدمه الغربيون عامة والمستشرقون على وجه الخصوص ، يتضمن الابيض والاسود ، ان على مستوى المنهج او الموضوع ، وليس كله سواء. بل ان الرجل منهم قد يتضمن كلامه ، في الوقت نفسه ، الابيض والاسود معا ، لاسباب عديدة منها قوة الجذب في حقائق هذا الدين ، ومنها الجهل ببعض المسائل ، ومنها التاثيرات الذاتية والثقافية .. الى آخره ، (ان العقل الغربي الحديث – كما يقول سير هاملتون كب – يعسر عليه بوجه خاص ان يقوم بمحاولة استكناه طبيعة المواقف الدينية لدى اناس تختلف نظرتهم الى الكون اختلافا بعيدا عن نظرة الغربي .. ولذا اصبحت احكامنا الدينية – نحن الغربيين – شديدة الاختلال))[1].

((وهنا يجب ان نقف قليلا عند مسالة (حدود النص) او (الشاهد) وضرورة عدم ممارسة الاقتطاع القسري ازاءه .. كيف يتم ذلك ؟

((ان علينا ان نلاحظ كيف ان عددا من الشهادات الايجابية بحق الاسلام ، او جانب من جوانبه ، من قبل هذا المفكر او ذاك ، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات اخرى سلبية تقف موقفا مضادا من الاسلام ، لكن هذا لا يمنع من اعتبار الشهادات الاولى بمثابة اعتراف (حر) بهذه القيمة او تلك من قيم الاسلام والتي تدفع الغربيين الى اعلان رايهم ذاك دونما اي نوع من الاضطرار او القسر.

((فكشهادات وليس كموقف نهائي ، يمكن ان تعتمد للدلالة على ما نحن بصدده . فاما (الشهادة السلبية) فقد فرضت نفسها على نطاق واسع لأنها الاكثر حضورا وانتشارا في الفكر الغربي ، ويستطيع المرء ان يجدها بسهولة في معظم الاعمال الغربية التي تمس الاسلام . واما (الشهادة الايجابية) فهي التي تحتاج الى مزيد من التاكيد والتنسيق واعادة العرض في اطار ملائم .. تلك الشهادات التي اذا ما عرضت على المفكر الغربي اكد صدقها ثانية وثالثة ورابعة

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٣٥–٢٣٦ ، ترجمة : د. احسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٦٤م).

لأنه لم يقلها الا بدافع قدرة الاسلام ، في جانب ما من جوانبه ، على تاكيد تميزه وتفوقه وفاعليته)).

وفي خاتمة بحثي الذي نشر ضمن مجلد (مناهج المستشرقين)[٢] بعنوان (المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات) ، ترد العبارات التالية بصدد الموقف من سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)((ان المحصلة النهائية التي يمكن ان نصل اليها من خلال التعامل مع دراسات المستشرقين ، ايا كان موقعهم ، انه لا يمكن لهذه الدراسات على الاطلاق (وبالتاكيد العقلي ، غير الانفعالي على هذه العبارة الاخيرة) ان ترقى الى مستوى السيرة فتكون قديرة على التعامل معها ، والتوغل في نسيجها ، وادراك بنيتها بعمق ، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها. ذلك ان هناك اكثر من خلل في (منهج العمل) ولن يتمخض هذا الخلل الا عن حشود من نقاط سوء الفهم والاخطاء على مستوى الموضوع .. الاخطاء التي تنتشر كالبثور على جسد السيرة المترع صحة وتماسكا وعافية ، فتشوه وتنشر على صفحاته البقع والشروخ. نعم ، ثمة فرق بين مستشرق وآخر .. ونحن اذا قارنا (وات) بـ (لامانس) مثلا ، او حتى (بفلها وزن) ، وجدنا هوة واسعة تفصل بين الرجلين .. يقترب اولهما ويقترب حتى ليبدو اشد اخلاصا لمقولات السيرة من ابناء المسلمين انفسهم ، ويبعد ثانيهما ويبعد حتى ليبدو شتاما لعانا وليس باحثا يستحق الاحترام. ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع. فها نحن نقف بعض الوقت عند كتاب (محمد في مكة) لاكثر المستشرقين حيادية كما اكد هو نفسه في مقدمته ، وكما قيل عنه .. فاذا بنا نقع على بعض جوانب الخلل في منهج العمل في حقل السيرة : نزعة نقدية مبالغ فيها تصل حد النفي الكيفي واثارة الشك حتى في بعض المسلمات ، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتاكيد ما هو مشكوك بوقوعه اساسا ، واسقاط للتاثيرات البيئية المعاصرة ، واعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص.

((ونستطيع ان نخلص من هذا كله الى انه ليس بمقدور مستشرق على الاطلاق ، مهما كان من اتساع ثقافته ، واعتدال دوافعه ، وحياديته ، ونزوعه الموضوعي ، الا ان يطرح تحليلا للسيرة لا بد ان يرتطم ، هنا او هناك ، بوقائعها وبداهاتها ومسلماتها ، ويخالف بعضا من حقائقها الاساسية ، ويمارس – متعمدا او غير متعمد – تزييفا لروحها وتمزيقا لنسيجها العام)).

ان هذا ((المنهج)) لا يقف عند حدود السيرة وحدها بل يمضي ، بالمفردات نفسها ، بالرؤية الخاطئة ذاتها ، الى كل ما له علاقة بالاسلام وتاريخه ورجاله وحضارته.

---

(٢) مكتب التربية العربي لدول الخليج ، (الرياض–١٩٨٥م).

واظن ان هذا يكفي لاقناع اولئك القراء الذين يتوجسون من مكر مستشرقين امثال بلاشير او كب او تريتون او غيرهم ، اذ ان هذا المكر محسوب حسابه.

وأرجو ألا اكون متفائلا باكثر مما يجب ان قلت بانه حتى القارىء الاعتيادي (المخلص بطبيعة الحال) يكاد يعرف ذلك ويلمسه، فليس ثمة خشية اذن من ان ياتي الحديث عن الشهادات الايجابية لمستشرقين كهؤلاء ، بمردود معاكس ، ما دامت الاضواء الحمراء قد اشعلت مسبقا على طريق الفكر الاستشراقي بفضل تقاليد وتاثيرات نصف قرن او يزيد ، بحثا عما هو اخضر جميل قد يحمل قيمته البالغة بسبب ندرته.

اما اعداء الاسلام ، من الداخل والخارج ، فلن يضيرهم شيء ان ظللنا نكتب عن الوجه الاسود للاستشراق ، اما الوجه الاخر الذي تطمس عليه ظلمة التعصب وتغطيه ظلال الكراهية ، فان كشفه وتسليط الضوء عليه قد يردهم الى شيء من الصواب وهم يرونه يصدر – بالحق والباطل – عن واحد من اصحابهم.

وثمة ما يجب ان نشير اليه في ختام هذه الكلمات : ان هذا الكتاب لا يقتصر فقط على حوار المستشرقين بالمعنى الاصطلاحي بل انه يتضمن ، فضلا عن ذلك ، عددا من مفكري الغرب والشرق ممن قالوا كلمتهم الواضحة في الاسلام وكتابة المعجز ونبيه الكريم عليه افضل الصلاة والاسلام ، وقد ال الامر ببعضهم الى الانتماء الجاد المخلص لهذا الدين .

وتبقى المحاولة ، بعد هذا كله ، مشروعا مفتوحا لحشود من غير المسلمين ، قالوا ((كلمة الحق)) في هذا الدين .. في مشارق الارض ومغاربها ..

وهم يزدادون عددا يوما بعد يوم ...

ومن الله وحده التوفيق ... والى الله وحده نتوجه بالكلمات والاعمال ...

الموصل : الدكتور عماد الدين خليل

كارودي :

اعادة صياغة العالم

[١]

تتميز كتابات كارودي بخصب غير اعتيادي ، بقدر كبير من العمق والشمولية .. انها بلا ريب انعكاس لقراءاته المكثفة ، ولتنوع هذه القراءات ، وهي كذلك ، وليدة تجربته الحياتية المترعة بالخبرات ، ومعايشته للمذاهب والاديان الكبرى في العصر الحديث .. ايغاله فيها حتى الاعماق بحثا عن القناعة العقلية والوجدانية التي يأوي اليها.

ان كتاباته هذه تعبر عن رغبة جادة في البحث عن الحق مهما كان الثمن الذي يكلفه. لقد بدأ هذا المفكر الفرنسي المعروف واحدا من كبار زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي ، واذ اتيح له ، منذ مطلع الاربعينات ان يحتك بالفكر الاسلامي والحياة الاسلامية ، وان يزداد هذا الاحتكاك بمرور الوقت ، فقد اخذت قناعته المادية تهتز وتمخض الحال عن تحوله بالتدريج الى خط الايمان الامر الذي انتهى به الى فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي ، كما قاده في النهاية (اواخر السبعينات) ، وبعد محاولة فاشلة للانتماء للمسيحية ، الى اعتناق الاسلام حيث تسمى برجاء كارودي.

كتب الرجل العديد من المؤلفات منها : (حوار الحضارات) (منعطف الاشتراكية الكبير) (البديل) (واقعية بلا ضفاف). وبعد اسلامه انجز سيرة ذاتية خصبة ، وعددا من المؤلفات ابرزها (وعود الاسلام PROMESSES DE L,ISLAM)

فضلا عن العديد من المحاضرات التي القاها ولا يزال في اكثر من بلد .

[٢]

لنبدأ بتعريف كارودي للاسلام ، فهذا التعريف على ايجازه هو حجر الزاوية .. المفتاح الذي يمكن ان يقودنا الى معظم استنتاجات الرجل حول هذا الدين ((ان الاسلام هو تلك الرؤية لله ، وللعالم وللانسان ، التي تنيط بالعلوم ، وبالفنون وبكل انسان وبكل مجتمع ، مشروع بناء عالم الهي وانساني لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الاعظمين : المفارقة والجماعة، التسامي والامة))[٣].

---

(٣) وعود الاسلام ص ٢٢ ، ترجمة ذوقان قرقوط ، الوطن العربي ، (القاهرة–بيروت–١٩٨٤م).

فهو اذن الحركة العقيدية التي تريد ان تعيد الوفاق بين السماء والارض ، ان توحد بين الالهي والانساني ، وان تتيح لكل من الفرد والجماعة فرصة التحقق ..

الفرد الذي يستطيع ان يعيد تشكيله الذاتي عمقيا لكي يصعد ويتسامى ..

الجماعة او الأمة التي تستطيع ان تعيد بنيانها افقيا لكي تعبر بامتدادها عن مطالب العقيدة في الزمن والمكان .. هذه الحركة التي تحمل رؤيتها المتميزة لله وللعالم وللانسان ، تضم جناحيها على كل فعل او ممارسة .. ترفض ان ينتزعها شيء ..

ان العالم بكل معطياته ، والانسان بكل قدرته على الفعل ، ينطويان في هذا المشروع الاسلامي الذي يسعى الى اعادة صياغة العالم وفق رؤياه المتميزة.

ان دينا كهذا لا يمكن ان يكون عقيدة روحية فحسب كما هو الحال في اديان ومذاهب شتى .. لا يمكن ان يقف عند الحدود الشعائرية فلا يتعداها .. انه محاولة لتغيير العالم وذلك لن يكون الا بتوحد اثنين في هذه العقيدة : الروح والمادة .. الدين والحياة .. الشعائر والممارسات .. النزوع الى الجنة واعادة صياغة العالم بما يجعله الطريق الى الجنة ... ((في المنظور القرآني ، ليس الانسان هو خليفة الله على الارض فحسب ، ومسؤل عن الطبيعة وتوازناتها على المستوى العالمي ، ولكن عقيدته هي مبدأ عمله وقوانين مجتمعه. فلا الاقتصاد ولا السياسة ولا العلم ولا الفنون تستطيع الانفصال عن العقيدة التي تعين لها غاياتها الالهية والانسانية ، فالحياة بجميع ابعادها تجد في الله وحدتها))[٤].

وهكذا فان الاسلام ((هو ، بصورة لا تتجزا ، دين وجماعة ، عقيدة ونظام حياة))[٥].

وامتداداً لهذا التوحد يلحظ كارودي توازنات او لقاءات اخرى تعين هذا المشروع العقيدي على الفعل والتحقق ، وتستاصل من واقع الحياة البشرية سائر الثنائيات التي ضحت ، عبر صيغها المتضادة بالانسان. هناك – مثلا – التوحد بين الفكر والممارسة ، هناك – أيضا – الالتحام بين الفرد والجماعة.

ما الذي فعله الاسلام في المسالة الاولى ؟

إن مبدأ التوحيد – يقول كارودي – ((يستبعد الفصل بين العلم والايمان. فبالنظر الى ان كل شيء في الطبيعة هو (امارة) على الحضور الالهي ، تصبح معرفة الطبيعة كالعمل ، ضربان من الوان الصلاة ، منفذا الى الاقتراب من الله))[٦].

---

(٤) نفسه ، ص ٥٩.

(٥) نفسه ، ص ٢٣.

(٦) نفسه ، ص ٨٩.

فليس ثمة – اذن – أيما فاصل في الممارسة الاسلامية بين كافة الثنائيات انها جميعا تتوحد وتغدو (عبادة) ما دام هدفها الاقتراب من الله جل في علاه. فان تصلي ، ان تبحث وتنقب في الطبيعة ، ان تبني مختبرا او تقيم بنيانا ، فانما تتحقق اكثر بالايمان ما دمت في كل فعل من هذه الافعال تبتغي وجه الله ، وهكذا فان ((العمل وشريعته ، بالنسبة لمسلم ما ، هما مظهر لايمانه الخارجي. الايمان ، العقيدة ، هي الداخلي ، والقانون هو الخارجي ، ولا يمكن ان تكون في ذلك ازدواجية بين هذا وذاك))[٧]، وانه ((لمناقض للاسلام ، دين الـ (توحيد) ، فصل التامل عن العمل ، والباطن عن الظاهر))[٨].

ان مبدأ ((التغيير الذاتي)) في الاسلام ، وهو واحد من اشد المبادىء خطورة وفاعلية وحضورا في نسيج هذا الدين ، انما يستهدف تحقيق هذا التوحد بين الاعتقاد والفعل ، بين الفكر والممارسة ، ويمنح الضمانات ضد كل ما من شانه ان يشرخ الانسان المسلم والجماعة المؤمنة شرخين قد تقودانهما ليس فقط الى الازدواجية والتناقض بل الى تضاؤل الفاعلية وربما الشلل. ان الجهاد الاكبر في الاسلام الذي يتولى كبر هذا التوحد انما هو بشكل من الاشكال ((كفاح ضد الذات ، ضد الميول التي تجذب الانسان بعيدا عن مركزه. وهو ما يقود ، باجتذابه نحو رغبات جزئية ، الى ان يصطنع لنفسه (اوثانا) وبالنتيجة يمنعه عن الاعتراف بوحدانية الله. والانتصار على هذه (الوثنية) الداخلية اصعب كثيرا ايضا من الانتصار على المشركين في الخارج. وما زلنا نجد اليوم في هذا درسا عظيما لكثير من (الثوريين) الذين يطمعون بتغيير كل شيء الا انفسهم. كما كان فيما مضى شان الكثير من (الصليبيين) الذين كانوا في القدس وفي اسبانيا (المراد استردادها) ، او ضد هنود امريكا ، يريدون ان يفرضوا على الاخرين مسيحية يهزأون منها بكل عمل من اعمالهم))[٩].

ومن أجل ذلك ، من اجل تجاوز هذا التناقض بين العقيدة والممارسة ، يطرح كارودي مقولته المستمدة من ذلك المبدا الاسلامي الذي تحدثنا عنه قبل لحظات ((كل ثورة مآلها الاخفاق اذا تطلع الانسان الى تغيير كل شيء الا تغيير نفسه))[١٠].

فماذا عن المسألة الأخرى : الالتحام بين الفرد والجماعة ؟ ((ان الامة [في الاسلام] ليست ثمرة (عقد اجتماعي). انها امة عقيدة مبنية على يقين كل فرد بوجود غاية تتجاوز. مصالح الافراد وحتى مصالح الجماعة ، مهما كانت هذه الجماعة كبيرة (قبيلة ، مدينة .. كتلة

---

(٧) نفسه ، ص ١٢١.

(٨) نفسه ، ص ٥٣.

(٩) نفسه ، ص ٤٥.

(١٠) نفسه ، ص ٨٣. وانظر سورة الرعد (الآية ١١).

ايديولوجية). وهذه الـ (الامة) تعني كل الانسانية بمجموع تاريخها ومشروعها. والامة الانسانية المسلمة تحمل هذه العالمية لان كل واحد من اعضائها يكون متحدا مع جميع الاخرين (من فوق كل الاختلاف في العرق او الصقع او الماضي التاريخي) بنفس عقيدة الله السامية المنزهة))[١١].

وهذا الالتحام بين الانسان والجماعة لا يتضمن اي معنى من معاني التضحية بالفردانية التي يؤكد عليها الاسلام تاكيده على الجماعية . ذلك ان هذه الجماعة لا تاسر نفسها في حدود مصالحها الخاصة ، وانما تتجاوز هذه المصالح القربية باتجاه البشرية كلها ، وبالتالي اتجاه الانسان في العالم .. ومن ثم فان ما شهدته اوروبا ، اكثر من مرة ، بصدد العلاقة المجحفة بين الانسان والجماعة ، لايمكن ان يجد اي فرصة للتحقق هنا في التجربة الاسلامية ، لان هناك اختلافا جذريا في الرؤية والهدف بين ما شهدته اوروبا وما تزال وبين الواقعة الاسلامية ((ان تعاليم القرآن الاساسية ، بخلاف فردانياتنا المبنية على شريعة الغاب ، هي قبل كل شيء الا ينظر الى الانسان كحقيقة واقعة منعزلة ، وانما على انه يشكل جزءا من كل اكبر منه : الجماعة ، الأمة. وفي نفس الوقت ان تتحد هذه الجماعة ، هذه الامة على انها منسقة لغايات اسمى منها. فالقول بان الانسان يشكل جزءا من كل اكبر ، ليس له في المنظور الاسلامي ، المعنى الذي قد تاخذه هذه العبارة في الغرب حيث لا يتصور المرء بديلا للفردانية الا الشمولية [التي يضيع فيها الافراد]. ان الكل الذي يشكل المسلم جزءا منه ليس الـ (مجموع العضوي) كما يعرفه هيغل. واقل من ذلك ايضا التصور الفاشستي الذي ليس للانسان كفرد – وفقا له – من معنى ومن قيمة بل من حقيقة واقعة الا بالنسبة للدولة. فالعلاقة بين الانسان وهذا (الكل) الاكبر من الجماعة ليست هي العلاقة البيولوجية تحت الانسانية Inferohuman بين خلية والجهاز العضوي الذي تنتمي اليه ، ولا هي العلاقة الوظيفية ، السوسيولوجية الموكلة لكل واحد بتقسيم العمل الذي يجعل منها كائنا مجزءا ، محبوسا في دور تقني او اقتصادي او سياسي يرتهنه ويبتزه. هذا النوع من العلاقة لا يمكن ان يوجد الا في وسط مجتمع له – لنفسه – غايته الخاصة ، اعني المجتمع الذي لا يكون مزودا باي مشروع غير مشروع نموه وقوته . والحال ان الجماعة الاسلامية تخدم اهدافا ، حددها الله ، وهي اهداف تتجاوز الجماعة. وهذا التسامي المزدوج : تسامي الجماعة بالنسبة للانسان ، وتسامي الله (سبحانه) بالنسبة للجماعة ، لا ينبني اذن على تسلسل مراتبي، واضطهاد الانسان للانسان))[١٢].

---

(١١) نفسه ، ص ٨٢.

(١٢) نفسه ، ص ٧٤-٧٥.

[٣]

بعد هذا نستطيع ان نتابع ، مع كارودي ، الوظائف او الاهداف الاساسية التي طرحها الاسلام وتمكن من تنفيذها في واقع الامر : فهناك السعي لتغيير العالم واعادة بنائه وفق المنظور العقيدي الجديد ، وهذا يعني – بالتالي – تحرير الانسان – وتحقيق المساواة والعدل.

العقيدة في الاسلام ، يقول كارودي ((هي اعادة اندماج كائننا المتجزىء بصورة لا تنفصم ، بالوحدانية والحرية الالهيتين اللتين هما مصدر هذا الكائن ، والمشاركة في اقامة الشريعة التي هدفها الاخير المجتمع العالمي المنسجم))[١٣] تلك هي المعادلة الحقة التي يراها كارودي في حركة هذا الدين : اعادة الانسان الى التوحيد ، تحريره – بعبادة ادق – بالتوحيد، ودفعه لكي يقيم مجتمعا عالميا منسجما وسعيدا. ومن ثم نجد كارودي يربط في مكان اخر بين هذا التحقق الانساني بالتحرر من الطاغوت وبين السعي لتغيير العالم فما ((من احد كان لديه الاحساس ، وهو يستقبل رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) بان ينكر وجوده الشخصي ، بل على العكس ، كان يكتشف من جديد ، تحت ركام الاوهام والطقوس والمعتقدات ، فيما وراء الكهنة المدعين انهم يلقنون العقيدة ويقومون مقام الله [سبحانه] كانهم حائزون على الحقيقة ، عقيدة ونهجا يعيدان اليهم الامل المجاهد بتغيير العالم. لم يعد هناك وسطاء ، اعني كهنة ينصبون انفسهم ادوات لثيوقراطية باطلة ، كما لم يعد هناك ملوك او امراء يزعمون انهم نواب الله على الارض ما دام ان الله نفسه [جل في علاه] يوحي بشرائعه. بعد الان ما من احد يستطيع اغتصاب المقدس. انها عقيدة تربط الانسان بأصله وبغايته معا وتعطي معنى لحياته))[١٤].

ان هذه العقيدة بعثت الانسان ، وحملته مسؤوليته .. انه الان ((خليفة الله على الارض))[١٥] ، ((وهو مسؤول عن التوازنات وعن الانسجام في الطبيعة وبين البشر على حد سواء. فلحظة التامل هي اذن اللحظة التي يجمع فيها ويركزها تركيزا دقيقا بحيث تكون قادرة على زعزعة العالم))[١٦].

بهذا القدر الكبير من ارادة التغيير واعادة البناء انطلق المسلمون في العالم لزعزعة بنيانه القديم واقامة البناء الذي يتوازن فيه كل شيء ، وينسجم كل شيء.

---

(١٣) نفسه ، ص ٦١.

(١٤) نفسه ، ص ٣٤.

(١٥) انظر سورة البقرة ، (الآية ٣٠).

(١٦) وعود الاسلام ، ص ٥٥.

من اجل ذلك يرد كارودي على القائلين بقدرية العقيدة الاسلامية ، جاهلين او متجاهلين هذا البعد في حركة الاسلام ((سوف يكون غريبا اعتبار عقيدة قادت المسلمين في غضون ثلاثة ارباع القرن الى تجديد اربع حضارات كبرى ، والى الاشعاع على نصف العالم ، عقيدة قدرية منقادة. هذه الدينامية في الفكر والعمل هي عكس القدرية ، لقد اقتادت ملايين الناس الى التاكد من انه كان يمكنهم ان يعيشوا على نحو آخر))[١٧].

[٤]

تلك هي الحياة الجديدة التي نفذها هذا الدين واعاد من اجلها صياغة خرائط العالم القديم. وثمة ما يميز هذه الحياة مما يعد ملمحا اساسيا فيها : التحرير والمساواة والعدل الاجتماعي. فبدون المؤمن المتحرر الذي يقف في مصاف واحد مع اخوانه كافة ، بدون التكافل الذي يمسك الجماعة المؤمنة من ان تضربها الشروخ ويفتك بها التشرذم ، لن تكون هناك قدرة على الفعل ، على الاجتياز ، على تنفيذ مطالب المسؤولية التي انيطت بهذه الجماعة والتي تستهدف تغيير العالم.

يقف كارودي بين الحين والحين عند هذه الملامح فيحدثنا عنها بشيء من التفصيل.

لنبدأ بالتحرر والمساواة فهما القاعدة وحجر الزواية ((ان الله [سبحانه وتعالى] – يقول كارودي – اكبر من اعظم الملوك ، واليه وحده يدان بالاجلال المطلق ، فها هنا المبدا بحق لا يجوز التصرف فيه ، بالصمود في وجه كل طغيان ، وبمعارضة كل سلطة ، الاساس الإلهي للمساواة بين جميع الناس من وراء اي تسلسل في المراتب الاجتماعية))[١٨].

فما دام الله سبحانه وتعالى هو الربّ والمشرع ، هو الامر والناهي ، هو البدء والمنتهى، فليس ثمة طاغوت بعد اليوم يستعبد الناس ، يفصل بينهم ويميزهم ، انهم متساوون – ابتداء – امام الله وحده ، متحررون – ابتداء – من الخضوع لأية سلطة او زعامة تسعى لاستراق الدور والتاله في الارض ، ملزمون – ابتداء – بالصمود والمعارضة من اجل حماية الحرية الصعبة التي منحها اياهم هذا الدين .. من اجل الحفاظ على المساواة الباهظة التي كلفتهم الكثير من الجهد والدم. لم يعد هناك – كما مر بنا قبل لحظات – وسطاء او كهنة ينصبون انفسهم ادوات لثيوقراطية باطلة ، كما لم يعد هناك ملوك او امراء يزعمون انهم نواب الله على الارض ما دام ان الله (سبحانه وتعالى) هو الذي يوحي بشرائعه. بعد الان ما من احد يستطيع اغتصاب المقدس!

---

(١٧) نفسه ، ص ٣٢–٣٣.

(١٨) نفسه ، ص ٣١.

ويمضي كارودي محللا ابعاد هذا الملمح التحريري الخطير في بنية هذا الدين ((فبفضل مبدأي الاسلام الاساسيين : مبدا السلطة لله وحده ، وهو الذي جعل كل سيادة اجتماعية نسبية ، ومبدا الشورى الذي يستبعد اية وساطة بين الله والشعب ، يزول ، في ان واحد، اي استبداد مطلق يضفي القداسة على السلطة ، ويصبو الى ان يجعل من (الطاغوت) الها على الارض))[١٩] ، وهكذا فلقد كان التاكيد في الاسلام ((على سمو الله بجعل جميع السلطات نسبية ، يلتمس مساواة مبدئية بين الجميع ويصبح خميرة تحرر من جميع الاضطهادات السياسية او الاقتصادية او الدينية ، ويفتح باب الامل امام جميع المضطهدين))[٢٠].

وهو يقارن بين هذا التحرر والمساواة الاسلاميين وبين ما هما عليه في التجارب الاخرى، فيجد انهما يقومان في الاسلام على اساس يختلف اصلا عن اساسهما في تلك التجارب ((ليست هي خاصات الغزو المنعزل ، ولكنها التعبير والنتيجة لتعلق كل واحد بالمطلق، بهذا الحضور الالهي فيه ، ونتيجته هو الذي يتيح له ان يتخذ ابعاده بعدا لا نهائيا بازاء المؤسسات وكل نشدان انساني للسيطرة))[٢١].

وعلى هذا الاساس نفسه ، ومرة أخرى ، يعود لكي يعلن ((ان القرآن يحرم ملكية ذات حق الهي ، وبسلطة ثيوقراطية بالمعنى الغربي للعبارة . ذلك لانه لا يوجد في الاسلام كهنوت وكنيسة مؤهلين قانونيا للكلام وللامر باسم الله))[٢٢].

التوحيد المطلق لله (سبحانه وتعالى)، والذي يرد اليه كل شيء ، يوازيه انفتاح الى المدى بين الله سبحانه وتعالى وبين الناس ، لهما المبدآن الكفيلان باسقاط شرعية كل طاغوت يسعى لاستعباد الناس نيابة عن الله ، وازاحة كل مؤسسة او سلطة تسعى للفصل بين الانسان وخالقه ، وذلك هو الاساس والضمانة التي تجعل التحرر في الاسلام يضرب بجذور اعمق بكثير، وابعد بكثير من اي مذهب اخر يحمل في بنيته الاستعداد لتفريخ الطواغيت والارباب ((ان مركز الاسلام وروحه الحية : التوحيد الذي تنقى باسمه كل وثنية ، الخطيئة الاولى والاخيرة بالنسبة للمسلم. فـ ((**لا اله الا الله**)) هي الاثبات الاساسي للايمان الاسلامي ، يقصي الصنمية التمائمية التي تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا))[٢٣].

---

(١٩) نفسه ، ص ٣٧.

(٢٠) نفسه ، ص٣٩.

(٢١) نفسه ، ص ٧٥.

(٢٢) نفسه ، ص ٨١.

(٢٣) نفسه ، ص ٢١٧.

وبموازاة التحرر والمساواة اللتين دعا اليهما الاسلام ونفذهما فيما لم ينفذا بمثله من قبل ومن بعد ، يتحدث كارودي عن الملمح الاصيل الاخر في بنية هذا الدين وتجربته : العدل، فان التحرر والمساواة وحدهما لا تكفيان ما لم يوازهما ويتعاشق معهما عدل اجتماعي يعرف كيف يجعل الثروة ، والقدرات المادية عموما ، وسيلة لا غاية ، وامكانية للتماسك لا للتفتت ، مشروعا لتطمين الحاجات الاساسية للانسان لا لحرمانه منها ، فانه بدون هذا التطمين لن يكون بمقدور المسلم ان يحمي ظهره وان ينطلق لتنفيذ مهمته الكبرى : زعزعة العالم واعادة بنائه : ((اذا كانت كل ملكية هي ملك لله ، وان كل انسان لا ينال منها بعمله الا حق الانتفاع ، فان التصور القرآني والنبوي للملكية هو العكس نفسه للتصور الغربي والبورجوازي. ففي الحق الاسلامي ليست الملكية خاصية من صفات الفرد ولا من صفات الجماعة وانما هي وظيفة اجتماعية مرتبة لتلبية مقتضيات الارادة الالهية في الـ (امر بالمعروف))[٢٤].

وهكذا فان مفهوم العدل الاجتماعي في الاسلام ليس مجرد رغبة عابرة او دائمة لتحقيق هذا العدل ، وانما هو انبثاق محتوم عن التصور الاسلامي نفسه لحق الملكية ، فما دام انه حق راجع الى الله ، تماما كحق الحاكمية ، الذي يتفرد به الله سبحانه . ، فانه ليس لاي فرد او فئة او جماعة ان تتصرف فيه على هواها.

فكما هو الحال في الممارسة السياسية التي تسد الطريق على اي استغلال او طاغوت قد يدخل طرفا بين الانسان وخالقه ، فانه ها هنا ، مسدود الطريق كذلك على اية محاولة للتصرف بالمال لحسابها الخاص ، وحرمان هذه الجماعة او تلك منه ، بما يخرج به اساسا عن كونه وظيفة اجتماعية مهمتها تطمين حاجات الناس وتمكينهم من اداء مهماتهم العقيدية باكبر قدر ممكن من الفاعلية والاحسان. ان الملكية في الاسلام ((بنسبيتها ، بالرجوع الى السمو ، بالرجوع الى الله ، ليست حقا من حقوق الفرد (ولا مع ذلك من حقوق فريق او دولة) وانما هي وظيفة اجتماعية. وعلى المالك ، ايا كان ، فردا او جماعة ، او حتى دولة ، تقديم حساب عن ملكيته فهو ليس الا المدير المسؤول عنها))[٢٥].

ولقد مر بنا قبل قليل كيف ان مفهوم التوحيد المتسامي في الاسلام ذلك الذي يجعل جميع السلطات نسبية ، كما انه يحقق مساواة مبداية بين الجميع ، ويحررهم ، فانه في الوقت نفسه ، يحميهم من اي اضطهاد اجتماعي او سوء استغلال اقتصادي ((ويفتح بذلك باب الامل امام جميع المضطهدين)).

---

(٢٤) نفسه ، ص ٣٦.

(٢٥) نفسه ، ص ٧٠.

[٥]

وفي ضوء هذه المبادىء يقارن كارودي بين التصور الاسلامي للاقتصاد والنظريات الوضعية في الغرب ((ان الاقتصاد الناجم عن مبادىء الاسلام هو على نقيض النموذج الغربي للنمو الذي يكون فيه الانتاج والاستهلاك معا غايات بذاتها : انتاج متزايد اكثر فاكثر ، واستهلاك متزايد اسرع فاسرع لأي شيء مفيد ام غير مفيد ، ضار ام حتى قاتل ، دون النظر بعين الاعتبار الى المقاصد الانسانية ، فالاقتصاد الاسلامي في مبدئه القرآني لا يستهدف النمو ولكنه يرمي الى التوازن ، ولا يمكن ان يتماثل لا مع الراسمالية (من النمط الامريكي مثلا) ولا مع الجماعية (من النمط السوفييتي مثلا) ، فميزته الاساسية انه لا ينصاع للاليات العمياء التي ينطوي عليها اقتصاد يحمل غاياته الخاصة فيه ذاته وانما يكون منسقا ومحكوما بغايات اسمى ، انسانية وآلهية لا انفصام فيها. وذلك ان الرجل لا يكون انسانا حقا الا بخضوعه للإلهي))[٢٦].

وثمة ما يجب ان نتحفظ ازاءه في تحليل كارودي ذلك هو قوله ان الاقتصاد الاسلامي لا يستهدف النمو ولكنه يرمي الى التوازن ، فالحق انه ليس بالضرورة ان يختار مذهب ما هذا الطريق او ذاك ، اما النمو واما التوازن ، اذ يمكن ان يتحقق الوفاق بين ((هذا وذاك)) : النمو والتوازن ، كما نجده في الاسلام ، حيث ان الدعوة للنمو من خلال حث الانسان المؤمن على التفكر بسنن العالم ونواميس الطبيعة ، والسعي للكشف عن طاقاتها المذخورة والافادة منها قدر المستطاع ، وحيث ان مبداي ((التسخير)) و((الاستخلاف)) يجعلان العالم بين يدي المسلم لكي ينمي ويطور ، ويدفعانه دفعا لهذه المهمة من اجل تنفيذ مطالب دوره العمراني في العالم .. هذا كله يتساوق ، دونما اي تعارض ، مع حشد اخر من المبادىء التي تدعو الى تحقيق التوازن في الانشطة الاقتصادية ، وضبط هذه الانشطة بالقيم والمعايير التي جاء بها الاسلام لحماية انسانية الانسان.

وبعد ان يتحدث كارودي عن بعض التفاصيل والجزئيات الخاصة بنظام الاقتصاد الاسلامي ، من مثل ((ذلك الابداع الذي ينفرد به الاسلام وهو تاسيس ضرائب غير مباشرة تمس المنتجات الكمالية ، وقياسا على ذلك انشاء احتكارات الدولة ونظام مميز للمكوس من اجل جميع المنتجات التي تتعلق بها طمأنية ورفاه الجماعة))[٢٧]. وبعد ان يقف قليلا عند الزكاة

---

(٢٦) نفسه ، ص ٧٢-٧٣.

(٢٧) نفسه ، ص٧٢.

((تلك الضريبة التي تتيح اعادة توزيع الثروات وتؤلف شكلا اسلاميا نوعيا للاقتسام))[٢٨] ، وانها – اي الزكاة – ((ليست تسولا ، انما ضرب من العدالة الداخلية ، اعطيت صيغة المؤسسة، وهي الزامية تجعل تضامن المؤمنين فعالا ، اعني اولئك الذين يعرفون التغلب في انفسهم على الانانية وعلى البخل. والزكاة – ايضا – هي التذكير الدائم بان كل غنى لله شانه شان كل شيء ، وان الفرد لا يمكن ان يتصرف فيه على هواه ، وان كل انسان هو عضو في جماعة))[٢٩].

يعود للتأكيد على فكرة الضوابط القيمية والهدف الذي يحكم النشاط الاقتصادي في الاسلام ((فلم يكن هذا الاقتصاد ابدا حياديا ازاء القوى المتنافسة ، فالسوق يكون مقبولا مشروعا ما دام يلبي حاجات واقعية ويحترم عمله قواعد الاسلام. الامر الذي ينطوي على توزيع عادل للدخول وعلى رفض للاحتكارات التي تمنع الاسعار من ان تعكس التكاليف الحقيقية .. ان الاهداف في المجتمع الاسلامي هي الامة ، وما السوق الا وسيلة لبلوغ هذه الاهداف))[٣٠].

كما يعود للتاكيد على المبدا الاخطر والاهم والذي تنبثق عنه هذه القيم والمعطيات كافة، والذي يعد بحد ذاته الضمانة الكبرى للتحقق بالعدل الاجتماعي في الاسلام ، ذلك هو ان ((جعل كل سلطة نسبية بمفهوم (الله اكبر) هو كجعل كل ملكية نسبية وكل ثروة. فان نظاما اقتصاديا متمسكا بمبدأ الاسلام لا يمكن ان يكون متماثلا لا مع الراسمالية ولا مع الجماعية ، كما ان نظاما سياسيا متمسكا بالاسلام لا يمكن ان يكون متماثلا لا مع النيوقراطية ولا مع الملكيات (ذات الحق الإلهي) في الغرب ولا مع (الديمقراطيات) مع النمط البرلماني))[٣١].

انه على كل المستويات نظام متميز ، لانه ينبثق عن رؤية متميزة لله وللعالم وللانسان، وهو التعبير نفسه الذي يعرف به كارودي هذا الدين والذي بدانا به هذه الصفحات.

---

(٢٨) في سبيل حوار الحضارات ، ص٢١٥ (ترجمة : د.عادل العوا، الطبعة الثانية ، منشورات عويدات ، (بيروت –باريس–١٩٨٢م).

(٢٩) وعود الاسلام ، ص٣٥.

(٣٠) نفسه ، ص ٧١.

(٣١) نفسه ، ص ٨٠.

سانتيلانا :

حول خصائص الشريعة

[١]

دافيد دي سانتيلانا (Davide de Santillana 1845-1931) رجل قانون فرنسي ولد في تونس ودرس في روما واحرز الدكتوراه في القانون ، فما لبث المقيم العام الفرنسي في تونس ان دعاه لدراسة وتدوين القوانين التونسية ، فوضع القانونين المدني والتجاري معتمدا في ذلك على قواعد الشريعة الاسلامية ومنسقا اياهما بحسب القوانين الاوروبية. وفي سنة (١٩١٠م) عين استاذا لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية. وله محاضرات قيمة فيها. ثم استدعته جامعة روما لتدريس التاريخ الاسلامي .. كان على معرفة واسعة بالمذهبين المالكي والشافعي وله فيهما عدد من المؤلفات اهمها : (ترجمة وشرح الاحكام المالكية) و(الفقه الاسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي) ..

فالرجل عندما يتحدث عن خصائص الشريعة الاسلامية في البحث الذي نشره سير توماس ارنولد – المؤرخ البريطاني المعروف – ضمن الابحاث التي اشرف على تحريرها في كتاب (تراث الاسلام)[٣٢] لعدد من ابرز الباحثين الغربيين ، انما يتحدث على بينة من الامر ، فيضع يديه باسلوب الخبير المتمرس على هذه الخصائص وجذورها الموغلة في العقيدة الاسلامية ، وتكون لا ستنتاجاته قيمة بالغة لأنها تجيىء من خارج دائرة المسلمين ، ولذا تحتم ان نقف عندما بعض الوقت.

[٢]

لنبدأ بالمصدر الاساس الذي تنبني عليه الشريعة الاسلامية وتكسب قوتها الالزامية باكبر قدر ممكن من الطواعية والتقبل والحرص على التنفيذ ، حتى في الدقائق والتفاصيل ، بعيدا عن القسر وسلطة الرقابة الخارجية ، واساليب القوة التي تعتمدها الشرائع الوضعية في معظم الاحيان ، لكي تغدو فعلا متحققا.

ان سانتيلانا يضع يده على هذا الملمح الاصيل بمجرد ان يطالع تسمية الدين الذي تنتمي اليه هذه الشريعة : الاسلام ، وهو يتضمن من خلال تسميته هذه اعلانا عن خصيصته

---

(٣٢) تعريب وتعليق جرجيس فتح الله ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، (بيروت–١٩٧٢م).

الاساسية : الاستسلام للامر الالهي ، تلك الخصيصة التي يمكن اعتبارها مفتاحا للعلاقة بين المسلم والشريعة التي تحكمه وتنظم حياته : ((ان هذا الاستسلام المفعم بالاتضاع والامل (لله) انما هو الايمان الصحيح . لذلك كان الاسلام (ومعناه تسليم المرء نفسه لله) عقيدة دينية صحيحة ، فذلكم هو الشكل الوحيد الذي يجب ان تتخذه النفس المؤمنة في حضرة الله))[٣٣].

ان الشريعة الاسلامية لا يمكن فهمها او التعامل معها الا بالرجوع الى اصلها العقيدي ، واصلها العقيدي هو هذا : كل شيء لله وحده ((فاساس الوحدة الاجتماعية في الاسلام يمثله (الله). فالله (جل وعلا) هو الاسم الذي يطلق على السلطة العاملة في حقل المصلحة العامة، وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو (بيت مال الله) والجند هم (جند الله). حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله) وليست العلاقة بين الله (سبحانه) والمؤمن بأقل قوة من ذلك ...))[٣٤].

وهذه العلاقة القوية ، الاكيدة ، المباشرة بين الانسان وبين الله (سبحانه وتعالى)، العلاقة التي ترد كل شيء لله ، هي التي الغت – بالضرورة – اية وساطة او عائق بين المؤمن وربه ، اذ ليس ثمة سلطان لاحد غير سلطان الله ((وما دام الاسلام لا يقر بسلطان كنسي وكهنوتي ، ولا يعترف باسرار كنيسة مقدسة ، فاي فائدة ترتجى من الوسيط بين الانسان وبين خالقه الذي يعرفه قبل ان يبدعه والذي هو (اقرب اليه من حبل الوريد ؟)[٣٥]. ان الله (سبحانه وتعالى) بعد ان ارسل الى البشر خاتمة انبيائه وكلمته النهائية لم يعد ثم من ينطق بلسانه او يعرب عن ارادته. الانسان وحده ماثل أمام الله في حياته وموته ، وله ان يخاطبه راسا بلا وسيط او شفاعة او (اجراءات) .. والانسان من فجر حياته حتى موته تحت انظار الله ، وهو وحده يمثل امام الله يوم الحشر. ان اشد المذاهب البروتستانتية صرامة انما تكاد تكون مذهبا كهنوتيا صرفا اذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراسخة التي لا تلين ولا تتزعزع ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق))[٣٦].

فمنذ البدء يكون الانسان هو المسؤول امام الله ، وهو من ثم يتحمل تبعة هذه المسؤولية في تعامله مع مطالب الشريعة القادمة من عند الله. وهكذا نجد انفسنا منذ اللحظات الاولى ازاء حالة وفاق طوعي بين الالزام والتنفيذ ، بين الامر والتقبل .. بين حدود الشريعة ومطالبها وبين

---

(٣٣) تراث الاسلام ، ص٤١٠.

(٣٤) نفسه ، ص ٤٠٩–٤١٠.

(٣٥) اشارة إلى (الآية ١٦من سورة ق).

(٣٦) تراث الاسلام ، ص٤٠٩–٤١٠.

حركة المؤمن في الارض .. ها هنا حيث يزول القسر والاكراه ومحاولة التملص او الالتفاف على هذه المطالب. قد يحدث هذا وذاك ، ولكنه في نهاية الامر ، واذا ما قيس بالحالات الاخرى للمذاهب الوضعية او الدينية المحرفة فانه لن يعدو ان يكون استثناءات لقاعدة اوسع واعرض واكثر دواما ، تلك هي قاعدة القبول والرضا والحرص على التنفيذ الامين ، لان قبول المرء ان يكون مسلما معناه – ابتداء – الاستسلام لامر الله ونهيه في كل صغيرة او كبيرة.

[٣]

والان ما هي الخصائص الاساسية لهذه الشريعة كما يراها سانتيلانا عبر دراساته الموغلة في شراييها ؟

اول ما يلفت نظره هو (التوازن) الذي تسعى هذه الشريعة لتاكيده وتحقيقه بي الفرد والجماعة ، فهي اذ تؤكد قيمة الفرد وتعلن مبدا المساواة المطلقة بين الافراد ، لا تغفل في الجانب الاخر السعي لتحقيق العدل الاجتماعي ، ومنع الجماعة ضمانات التكافل والتماسك والالتحام.

ان تعزيز مكانة الفرد لا يتناقض في الاسلام (كما هو الحال في المذاهب الاخرى) مع تعزيز وحدة الجماعة. ففي المنظور الاسلامي تعد الخطوتان متكاملتين ، فما لم تستفز انسانية الانسان وتتحقق ذاتيته ، لن يكون بالامكان بناء مجتمع متوحد قدير على الفعل والعطاء .. وهل بمقدور حشود من المواطنين المسحوقين ذاتيا ان ينشئوا جماعة تملك القدرة على ان تشق لها مجرى خاصا متميزا في بحر التاريخ ؟ ((ذلكم هو شكل النظام الجديد الذي دعا اليه محمد (صلى الله عليه وسلم) ونحن نجد في ظله ان قيمة الفرد بدات تتضح وكينونته البشرية اخذت تبرز الى عالم الوجود ، فصار يستمد حقوقه وواجباته من ايمانه ويستقيها من معين دينه لا من روابطه الاجتماعية والعرفية. فمن جماعة المؤمنين هؤلاء تكون المجتمع الاسلامي))[٣٧].

والمساواة هي السياج الذي يحمي هذه القيمة الاساسية في الشريعة الاسلامية التي تشربت هذا المبدأ بكل دقائقها وتفاصيلها الخاصة والعامة ((فما دام المسلمون سواسية امام الله، فكذلك هم يستوون فيما بينهم. أما التمايز فهو اسبقيتهم الى اعتناق الدين الاسلامي والسير على قواعده القويمة وحفظ مبادئه الصحيحة .. فالمساواة امام القانون هي القاعدة الاساسية للنظام السياسي والشرع الديني أيضاً))[٣٨].

---

(٣٧) نفسه ، ص ٤٠٦.

(٣٨) نفسه ، ص ٤٠٨.

وهناك في الجانب الاخر تاكيد لا يقل الحاحا على مبدا العدل الاجتماعي ((ان الله وهب المرء متاع هذه الحياة الدنيا يصلح بها حاله ويكفي حاجته ، وبمعنى اخر ليحسن الانتفاع به لا يبعثره نزولا عند اهوائه ونزواته الطارئة. فلو نظرنا الى الشريعة الاسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والعرف لوجدناها تتجاهل ما يسمى (بحق الاستعمال والتمتع Jus untendi et) abutendi) فهي ترى في كل صرف لا نفع فيه تبذيرا وهو اثم بالنتيجة. فالسفه في نظر الشريعة هو نوع من الخلل العقلي يحجر على كل مبتل به شرعا. هذه الشريعة حريصة على الاعتدال والقسط في كل شيء واتباع الطريق الوسط في انفاق الثروة ، لكونه يتفق تماما مع حكمة الشارع وطبيعة الشريعة من حكمة الله في اغداق آلائه ونعمه على البشر))[٣٩].

ان الرجل يستمد هنا القواعد الاساسية التي تمكن المشرع المسلم من تحقيق التوازن الاجتماعي ، وسد الذريعة على كل ما من شأنه ان يقود الى ابتزاز للثروة العامة ، او توزيع غير عادل يؤدي بالضرورة الى التمايز ، والطبقية ، والشحناء .. ان الله (سبحانه وتعالى) اغدق نعمه على الناس لا لكي يتمتع بها بعضهم ويحرم منها بعضهم الاخر ، وان الشارع المسلم يجد نفسه بالضرورة مسؤولا عن استعمال هذه النعم الالهية في مجتمع يستوي فيه الجميع امام الله ((انهم اعضاء اسرة واحدة ، ليس فيها رفيع او وضيع ، وانما هم مؤمنون جميعا ، وهم متساوون كذلك امام القانون المدني مطلقا .. وقد بشر الاسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئا ! هذا القانون او الشريعة التي توزع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل ، تستند الى الايمان القويم اساساً))[٤٠].

[٤]

ولا ينسى سانتيلانا ان يضع بعض التأشيرات على طبيعة الجهاز ، او نظام الحكم الذي يأخذ على عاتقه مهمة تحقيق هذا التوازن الصعب بين الفرد والمجتمع ، بين الحرية والعدالة ، وبين التحقق الذاتي والتوجه الاجتماعي.

وهو يؤكد – ابتداء – ضرورة قيام جهاز كهذا ، اذ بدونه لن تتحول هذه المبادىء الاساسية الى وقائع وممارسات ، كما انه يلحظ ، برؤية نقية لا غبش فيها ، كيف ان مسألة كهذه ليست اختيارا ولكنه الزام ديني يستمد حجيته من العقيدة نفسها التي اريد للشريعة ان تكون فرصة تحققها في هذا العالم ((ان وجود الوازع – اي الرئيس الاعلى – ووجوب الخضوع اليه ، واجبان دينيان وضرورتان محتومتان لدوام المجتمع الاسلامي وخلاصه من الانحلال والتفسخ ..

---

(٣٩) نفسه ، ص ٤١٧–٤١٨.

(٤٠) نفسه ، ص ٤٣٢.

لذلك فان تعيين الرئيس واجب ديني على كل مسلم ، وكل من يتنصل او يتملص من ادائه يخرج عن حظيرة المؤمنين))[٤١].

ويتحدث عن منصب الخلافة الذي يتربع قمة الجهاز السياسي للدولة الاسلامية فيشير الى انه رغم كونه المنصب الاعلى في دولة دينية ، الا انه يختلف ابتداء عنه لدى الهيئات الدينية الاخرى في العالم ((فليس (ثمة) ما يضفي على الخليفة صفة القداسة او يسمه بميسم الكهنوت ، كما ادعت بهذه السمة هيئات حاكمة معينة في تاريخ العالم ، والحقيقة هي ان سلطة الخليفة كرئيس ديني لا يمكن ان تعتبر سلطة حبرية او بابوية مثلا ، فهو متجرد تماما من صفة الكهنوت ، لان حكومة المسلمين ما كانت في زمن او ظرف حكومة دينية (بالمفهوم النصراني Hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب رسولي ، والامام في سلطانه الدنيوي ليس سيدا (ربا) ، ومنصب الخليفة لم توجده الشريعة الالهية الا للخير العام ، وهو الثقة العامة التي ترمي الى خدمة الشرع الالهي وحمايته وتنفيذه .. (لقد) وجد الامير ليسهر على مصالح المسلمين الذين يعجزون عن رعاية انفسهم كمجموع ، الامير وكيل جماعة المسلمين ، واعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل ان الامير يجب ان يضع نصب عينه مصلحة المجموع))[٤٢].

معنى هذا ان منصب الخلافة في الدولة الاسلامية شيء متميز تماما ، فلا هو بالمنصب الوضعي الذي يستمد حيثياته من قوانين بشرية معرضة للتغير والتبدل والزوال ، ولا هو بالمنصب الكهنوتي الذي يمنح صاحبه سلطة مطلقة باسم الدين قد تسوقه ، وكثيرا ما فعلت، الى مواقع الاستبداد والطغيان والتأله في الارض .. انه شأن كافة المؤسسات والنظم والقيم في هذا الدين المتفرد ، شيء متميز قد يشبه هذا النظام او ذاك في هذه الجزئية او تلك، لكنه يبقى في بنيته الاساسية شيئا متفرداً.

والخلافة الاسلامية بهذا المعنى هي ((الشكل القانوني الوحيد للسلطة ، ويبدو لنا ان هذا النهج السياسي قد طبق في العصر الذهبي للاسلام بنجاح لا نظير له ، لاسيما في حكم الخلفاء الراشدين))[٤٣].

إنه الصيغة التعاقدية بين الامة وحاكمها الاعلى ، تلك التي حلمت بها البشرية قبل الاسلام وبعده ، وتحدث عنها كبار المفكرين والمشرعين ، والتي تستمد شرعيتها من قدرة الحاكم

---

(٤١) نفسه ، ص ٤٢٠-٤٢١.

(٤٢) نفسه ، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٤٣) نفسه ، ص ٤٢٧.

على القيام بواجبه المنوط به ، وتسقط هذه الشرعية حيثما عجز الحاكم او اخل بشروط الاتفاق او التعاقد.

سانتيلانا يشبه المسألة في التجربة الاسلامية ((برابطة تعاونية بين الخليفة والشعب ، تبقى متينة وثيقة العرى مادام الخليفة صالحا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الاسلامي ، فإذا لم يعد اهلا لمنح شعبه مايريده منه ، بطل سلطانه وفسخ العقد شرعا بين المتعاقدين))[٤٤].

ونحن لو استرجعنا في الذهن ما شهده العصر الراشدي على مستوى طرائق الانتخاب او برامج العمل التي طرحها الخلفاء الراشدون (رضي الله عنه) زمن تسلمهم المسؤولية ، فانه سيتأكد لدينا بالمنظور التاريخي المتحقق ما ذهب اليه سانتيلانا.

[٥]

الميزة الاساسية الاخرى التي يلحظها الرجل في شريعة الاسلام هي نزوعها التحريري وتساوقها مع الطبيعة البشرية فيما لا نكاد نلحظه بهذا العمق والوضوح والامتداد لدى اي دين او مذهب آخر ((ان ايات القرآن فصلت للناس بمعرفة خبير حكيم لتكون شريعة للحرية وقانونا للرحمة التي انعم الله بها على الجنس البشري للتخفيف من صرامة الكتب (الدينية) الاولى. فالاسلام هو عود الى القانون الطبيعي ، بل عود الى الايمان الاول الذي بشر به الانبياء الاقدمون (نوح وابراهيم عليهما السلام) والذي ابتعد به اليهود والنصارى عن غرضه الحقيقي. ان الشريعة الجديدة الغت القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التي فرضتها شريعة موسى (بعد تحريفها) على اليهود ، ونسخت الرهبانية المسيحية واعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية .. واستجابت الى جميع حاجات الانسان العملية في الحياة))[٤٥] بل ((ان اول ما فعل واضع الشريعة هو اتخاذ الحيطة في وضع الحدود والقيود على الحقوق. تلك القيود التي يصير القانون بها نقمة على البشرية لا نعمة))[٤٦].

ان الأديان – في اساسها – تنزلت كبرامج عمل تضع الانسان في العالم موضعه الحق وتتعامل معه وفق فطرته وتكوينه الذي انشاه به الله سبحانه. لكن الفئات والطبقات التي سعت عبر التاريخ لاحتكار الدين وتحويله الى اداة كسب ما لبثت ان انحرفت بهذه الاديان عن مساراتها المتساوقة وبنية الانسان ودوره في الارض ، فتحولت بها الى ادوات قسر واضطهاد وجنوح بالطبيعة البشرية عن سويتها الاصيلة. وجاء الاسلام لكي يعيد للدين دوره الحقيقي

---

(٤٤) نفسه ، ص ٤٢٧.

(٤٥) نفسه ، ص ٤١١–٤١٢.

(٤٦) نفسه ، ص ٤١٩.

فيحرر الانسان ويضع عن بني ادم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، ويتعامل معهم وفق سويتهم التي تتشابك في مكوناتها نداءات الروح ورغبات الجسد ، ويدفعهم للمزيد من الابداع والانجاز.

وامتدادا لهذا الدور التحريري نجد الاسلام يسعى للتعامل مع الانسان بالرفق والمرونة ، فلا يثقل عليه ، ولا يقف بمواجهة اية من حاجاته الاساسية محاولا كبتها او امانتها ، ويمضي ابعد من ذلك فيدعو المؤمنين الى التعبير عن طاقاتهم كافة والى التمتع – بالمقابل – بفرص الحياة وطيباتها المباحة جميعا : ((.. (يسروا ولا تعسروا) تلك هي التعاليم والاوامر التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يبلغها الى من ارسل اليهم)) (**لا يكلف الله نفسا الا وسعها**)[٤٧].

ان الاسلام لا يقر تعذيب النفس وامانتها بالتقشف وبسائر الوسائل الاخرى ، التي تضعف البدن وتكبت الغرائز البشرية الطبيعية ، انه يحض على التمتع (بالطيّبات) التي انعم الله بها عليه ، شريطة ان يقيم الحدود ويخضع للسنة التي وردت في القرآن وهي ليست بالكثيرة ولا بالصارمة))[٤٨].

وسانتيلانا يستعير عبارة ارنست رينان (1823-1892) Ernest R,enan) المشهورة ((الاسلام هو دين الانسان)) ويعقب عليها بقوله ((ان روح الشريعة الاسلامية تتسم بطابع جلي هو افساح ارحب المجال للاعمال البشرية ، وهنا نتفق مع المشترعين والفقهاء المسلمين بان القاعدة الاساسية في القانون هي (الاباحة) لكن هذه الاباحة لا يمكن ان تكون غير محدودة .. وهكذا تحدد الحرية المطلقة للبشر حتى تؤدي اقصى ما في طوقها من نفع للفرد والمجتمع))[٤٩].

فهي اذن شريعة (الرفاه العام) و(السعادة البشرية) التي لن يكون لغير الله وحده من يقدر على منحها الانسان ، فهو سبحانه الذي خلق بني ادم وهو سبحانه وتعالى اعلم بمن خلق. ومهما ادعت المذاهب الوضعية والسلطات الدينية المحرفة في هذا الصدد فانه ادعاء لن يتجاوز حدوده الموهومة ، لان هذه المذاهب وتلك السلطات غير قادرة – ابتداء – على ادراك الحدود الفاصلة بين السعادة والشقاء ، كما انه ليس بمقدورها – ابتداء كذلك – تحويل دعواتها الى واقع متحقق من خلال الرفاهية العامة للناس كافة. أما ((مبادىء الاسلام القانونية فانها على تعدد اشكالها ، تؤول الى غاية واحدة هي الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون الالهي

---

(٤٧) سورة البقرة ، (الآية ٢٨٦).

(٤٨) تراث الاسلام ، ص٤١٢.

(٤٩) نفسه ، ص ٤٢١–٤١٣.

مصدرا والبشري هدفا ، الا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن ان تخطىء والبشري رؤية هذه الغاية وان شق عليها ان تتوضحها لاول وهلة . لان الله (سبحانه وتعالى) لا يمكن ان يعمل شيئا لا تتجلى فيه الحكمة والرافة اللتان هما باعثاه الاساسيان. لما كان البشر من روح وجسد فلا بد ان يكون للمرء اتجاهان في الحياة : اتجاه روحي واتجاه جسدي (مادي ومعنوي) وعلى هذا الاساس اخذت القواعد (الحدود) الإلهية التي وضعها الله لتدبير البشر منقسمة الى قسمين : ما يتعلق منها بالروح وما يختص منها الجسد. فالدين والقانون هما نظامان متباينان لكنهما متلاحمان يتم احدهما الاخر باتحادهما في المصدر والغرض وهو سعادة البشر ورفاهه))[٥٠].

وسانتيلانا من اجل التوغل اكثر في اسس هذه الحرية التي وهبها الاسلام الانسان ، والسعادة التي منحها اياه ، يرجع الى مبدا خلافة الانسان في الارض ، وهو واحد من اشد المبادىء الاسلامية ثقلا وحضورا كما انها ذات ارتباط وثيق بمسالة الحرية والسعادة هذه : ((ان لمحة خاطفة نلقيها على مختلف الانظمة القضائية (في الاسلام) قد يكون لنا فيها بعض العون على تعريفنا بالفوائد العملية لهذه الشريعة. لما كان الفرد خليفة الله في ارضه فقد وهبه خالقه ملكات تدرك الحقوق والواجبات الملقاة عليه. ومن اعظم تلك الحقوق واسماها حق المرء – بوصفه فردا – في السلامة والحرية. فالحرية هي الحق الطبيعي لكل مخلوق بشري ، اما الرق فهو استثناء لتلك القاعدة .. والحرية معناها قوة التصرف الذاتي ... وهي على هذا الاساس لا يمكن ان تباع او تشرى لرغبة ساورت صاحبها او لنزوة عارضة. والعبودية التي يختارها المرء بملء رغبته لا تعترف بها الشريعة قانونا قط. وعلى هذا المنوال تحرم الشريعة جريمة الانتحار كما يفعل الدين ذات ايضا))[٥١].

[٦]

وثمة ميزات اساسية اخرى لهذه الشريعة يقف عندها سانتيلانا لكي يؤشر عليها بايجاز:

الايجابية : ((ان الشريعة الاسلامية تحبذ كل نشاط عملي مجد .. وتعزر اولئك الطفيليين الذين يعيشون على كواهل غيرهم ، وتحتم على كل فرد ان ينفق على نفسه من كدحه وكسبه ، ولا تحتقر اي عمل متى اغنى صاحبه عن غيره وكفاه ذل السؤال))[٥٢].

---

(٥٠) نفسه ، ص ٤١٣–٤١٤.

(٥١) نفسه ، ص ٤١٦–٤١٧.

(٥٢) نفسه ، ص ٤١٢.

الشمولية : ((.. المسلم يجب الا يحيد عن منهج مجموعة القواعد الضابطة لكل ناحية من نواحي حياته ، من ادق التفاصيل الى اعم القواعد واكبرها لأنها وضعت لصيانة وجوده في المجتمع وكينونته الروحية . تلك القواعد تسمى (الشريعة) ومعناها (الطريق القويم). ومن هنا جاءت الاهمية العظمى لعلم القانون (الفقه)))[٥٣].

الاصالة : ((عبثا نحاول ان نجد اصولا واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الاسلامية والرومانية) كما استقر الراي على ذلك. ان الشريعة الاسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادىء الثابتة لا يمكن ارجاعها او نسبتها الى شرائعنا وقوانيننا لانها شريعة دينية تغاير افكارنا اصلا))[٥٤].

المرونة : ((ان شريعة الاسلام تفسح اوسع المجال لتحكيم الارادة البشرية ، وتعلق اعظم الاهمية على القصد القانوني لا على نص القانون الحرفي. ان ارادة البشر كافية مهما كانت لخلق رابطة قانونية. ولكن قلما كان بطلان او صحة أي مبدأ قانوني مرهونا بامر شكلي او بنص حرفي في الشريعة الاسلامية ، يتجلى ذلك بمقارنته بمالا يحصى من القواعد الشكلية في قوانين الجرمان))[٥٥].

الحيوية : ((لما كان الشرع الاسلامي يستهدف منفعة المجموع ، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافا لشريعتنا من بعض الوجوه. ثم انها علم ما دامت تعتمد على المنطق ... وتستند الى اللغة. انها ليست جامدة ، ولا تستند الى مجرد العرف والعادة ، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي. فيقول اتباع المذهب الحنفي ان القاعدة القانونية ليست بالشيء الجامد الذي لا يقبل التغيير. انها لا تشبه قواعد النحو والمنطق ، ففيها يتمثل كل ما يحدث في المجتمع بصورة عامة .. ان المنفعة هي مبدا الفقهاء والمشرعين، ولقد ادرك العرب بوضوح تام سر هذه المرونة وهو الاستعمال بلا ريب. ان هذا التفاعل المستمر (للفقه) في الحياة يمكن تتبعه في مسالك التاريخ الاسلامي))[٥٦].

متابعة المتغيرات : ((ان الشريعة لم تقتصر على قبول العرف وحده ، بل اخذت تتبعه في كل تغيراته .. اننا لو طبقنا القوانين التي بنيت على العرف القديم في الوقت الذي تغير ذلك العرف ، فمعنى ذلك انا وقفنا ضد الراي العام المعول عليه ، وبرهنا على جهلنا التام بالدين .. هل معنى (متابعة الفقه للمتغيرات العرفية) هو ان الفكرة الدينية لم تساهم في تطور القانون

---

(٥٣) نفسه ، ص ٤١٩.

(٥٤) نفسه ، ص ٤٣١.

(٥٥) نفسه ، ص ٤٣٣.

(٥٦) نفسه ، ص ٤٣٣-٤٣٤.

الاسلامي ؟ هذا الاستنتاج ليس الا سوء فهم لتلك الوحدة الفكرية التي يتمثل فيها مصدر قوة الاسلام الرئيس))[٥٧].

الالتزام المطلق بالحق : ((لا اعتساف في استعمال الحق تماما (في الشريعة الاسلامية) ، اذ ليس لاحد ان يمارس حقا له بالدرجة التي يسبب للآخر ضررا محققا. وللفقهاء المسلمين في هذا الصدد احساس دقيق مرهف يفوق ما نتصوره ... وهكذا ترسم الاخلاق والاداب في كل مسالة حدود القانون .. وانا لنجد انفسنا اخيرا وقد بلغنا مرحلة (الحق المطلق) الذي هو اساس المجتمعات المتمدنة قاطبة))[٥٨].

ولا اعتقد ان ثمة حاجة للتعليق على هذه الخصائص التي يراها الرجل والتي اكتفينا باختيار العناوين التي تعبر عنها. فلقد قيل كثيرا وكتب كثيرا عن هذه الخصائص التي جعلت الشريعة الاسلامية تحتل اعلى مصاف في سلم الشرائع التي شهدها التاريخ البشري ، ولكن ان تأتي على لسان رجل من الغرب ، ليس مسلما ، فذلك هو المهم ، وهو الذي يمنح الشهادة قيمتها الحقيقية.

ان سانتيلانا في ختام مقالته هذه يتوقف لحظات لكي يصدر حكمه الاخير في ضوء متابعته لتلك الخصائص الفريدة : ((تلك هي الميزات التي تسم الشريعة الاسلامية في كبد حقيقتها. قد نجرا على وضعها في ارفع مكان ، وتقليدها اجل مديح علماء القانون وهو الخليق بها. ومجمل القول انها سمت حتى اصبح علينا ان نترسم وجه مقارنة بينها وبين قواعد واجراءات القوانين الاقطاعية السائدة أيام ازدهرت الشريعة الاسلامية .. ان المستوى الاخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الاكبر من شرعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية ، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على ممر الدهور))[٥٩]. ويزيد شهادة الرجل قيمة ان تحليله لا ينصب على الجوانب النظرية فقط لشريعة الاسلام ، وانما هو يتابعها عبر تطبيقاتها في واقع الحياة ، وهي متابعة رجل متمرس خبير اتيح له ان يعايش هذه الشريعة السنوات الطوال.

---

(٥٧) نفسه ، ص ٤٣٥-٤٣٦.

(٥٨) نفسه ، ص ٤٣٧-٤٣٨.

(٥٩) نفسه ، ص ٤٣٨-٤٣٩.

لاندو :

آفاق التوحيد

[١]

باخلاص للحق ، وعمق في العرض ، يتحدث ((روم لاندو)) عن العقيدة والشريعة والعبادة في الاسلام في كتابه المعروف ((الاسلام والعرب))[٦٠] هذا الفنان والناقد الانكليزي الذي يجعله تخصصه وثقافته الفنية يتعامل مع الاسلام بمنهج انسان يقترب من عمارة مدهشة فيمد يديه ، وذوقه ، ووجدانه لكي يعرب بالضبط دوافع هذه الدهشة وموقع الاثارة فيها.

ولقد زار الرجل بلدان الشرق الادنى والتقى مع رجالات العقيدة والفكر فيه ، وحاضر في عدد من الجامعات الامريكية في مجال الدراسات الاسلامية وشمالي افريقيا. وألف ، فضلا عن ((الاسلام والعرب)) كتبا اخرى من بينها (الله ومغامرتي) (١٩٣٥م) ، (بحث عن الغد) (١٩٣٨م) ، (سلم الرسل) (١٩٣٩م) ، (دعوة الى المغرب (١٩٥٠م) و(الفن العربي (١٩٥٥م).

[٢]

ينطلق لاندو في حديثه عن (العقيدة) في الاسلام من قاعدتها المحورية واساسها الواضح المتين : التوحيد المطلق الذي لايهادن ولا يلين والذي لا يقبل ولو مقدار ذرة مما يمكن ان يغطي على جوهره الناصع المتلالىء الذي جاء هذا الدين لكي يؤكده كرة اخرى ، ويعيد الالق اليه ، بعد اذ حاولت الاديان المحرفة والمذاهب الوضعية والفلسفات المعقدة ان تطمس عليه ((ان روح المفهوم القرآني لله هو البساطة عينها .. لقد انشأ المسلمون مفهوما لوحدة الله لا يعرف اللين البتة ، وهي فكرة استطاعت ان تجمع العناصر كلها .. وليس من ريب ان قوة العقيدة القرآنية التوحيدية ، كما تتمثل في سلطان هذه الفكرة الهائل على المسلم ، قد ضاهت قسيمها عند اليهود .. والواقع الذي لا شك فيه هو ان (هذا المفهوم) قد مثل خطوة جبارة يخطوها رجل عربي ، برغم ما كان يكتنفه من مئات الآلهة التي غصت بها الكعبة ، ان القرآن

---

(٦٠) ترجمة : منير البعلبكي ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، (بيروت –١٩٧٧م).

يؤكد على انه ليس ثمة اثم اشنع من الايمان بأن لله شركاء .. وهذا الشجب العنيف للشرك ، والفكرة القائلة بقدرة الله غير المحدودة ، يشكلان موضوعي القرآن الرئيسيين))[٦١].

وما اقتبسه الاسلام من بعض العادات والاعراف العربية القديمة لم يتقبله قبل ان يقوم بتطهيره من ضبغته الوثنية ((لقد احتفظ بالحج الى مكة ولكن بعد ان حطم محمد (صلى الله عليه وسلم) مئات الاصنام التي سادت الكعبة ، وحتى تمثالا ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) اللذين بنيا (الحرم) ازيلا واقصيا))[٦٢].

(بل ان تسمية الاسلام) نفسه لتحمل بوضوح هذا الالتزام المطلق بالتوحيد ، فاننا ((حين نفكر باحد اتباع بوذا يتمثل في خاطرنا لفظ (البوذي) ، وحين نصف رجلا مؤمنا بالمسيح نقول انه (مسيحي) ، وعلى هذا المنوال نجد كثيرا من الكتاب الذين كان ينبغي ان يعصمهم علمهم من الوقوع في هذا الخطأ ، يطلقون على المسلمين اسم (المحمديين) ، والواقع ان هذا يزعج المسلم ويؤذي نفسه الى ابعد الحدود ، اذ يوهم السامع بأن المسلمين يعبدون او يؤلهون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما يعبد النصارى المسيح (عليه السلام) ويؤلهونه، ان (الاسلام) تعبير يطلق علما على ذلك النظام الايماني المبني على القرآن وهو مشتق من لفظه (اسلم ..)[٦٣].

وهذا التوحيد الاسلامي لا يتضمن اي معنى من معاني الانفصال او التباعد الالهي ، الموحد ، عن الانسان .. على العكس ، ان من مقتضياته في حبكة التصور الاسلامي ان يحقق حضورا دائما ليس فقط ازاء الانسان ولكن في الارض .. في العالم .. متابعا كل ذراته وجزئياته .. مهيمنا على كل صغيرة وكبيرة .. عالما بكل ورقة تسقط عن شجرتها .. بكل رطب ويابس .. بكل حبة لا تكاد ترى تنسرب في شقوق الارض وانحناءات الصخور .. ان الله سبحانه الذي هو في السماء اله ، هو في الوقت نفسه اله في الارض كما تنص الاية الكريمة **{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ }**[٦٤].

بكل ما يعنيه ذلك بدء ببذرة الارض وانتهاء باقامة التشريع الالهي الذي لايشارك فيه صنم او طاغوت او مشرع او مخلوق ، والذي يتفرد فيه الله (جل في علاه) بحكم الارض ويحقق في الوقت ذاته حضوره الجليل .. ففي نظر العقل المسلم – كما يقول لاندو – لا وجود

---

(٦١) الاسلام والعرب ، ص٤٢-٤٣.

(٦٢) نفسه ، ص ٣٨-٣٩.

(٦٣) نفسه ، ص ٤١-٤٢.

(٦٤) سورة الزخرف ، (الآية ٨٤).

للفصل بين الديني والدنيوي[٦٥] ... بل ان الامر يعود الى البدايات الاولى ، ذلك ان الانسان منفوخ فيه من روح الله ((وهذا يقود المسلم الى استشعار وجود الله (سبحانه وتعالى) في حياة الانسان ، وفي بعض السور التي تدعو القارىء الى التواضع والى التقرب الى الله ، بسط للفكرة القائلة بأن الله قريب من الناس ، وعلى نحو مماثل ينص القرآن على انه ما اجتمع ثلاثة الا كان هو (معهم)[٦٦] ، انه قريب الى درجة تجعل العابد في غير ما حاجة الى رفع صوته اثناء الصلاة ... ان مفهوم المسلمين لله هو اكثر عقلانية مما قد يخرج به المرء من النظر السطحي في تراثهم))[٦٧].

باختصار ((واذا اردنا الاجمال استطعنا القول بأن في الاسلام ايمانا بوحدانية الله ، وقدرته الكاملة ، ووجوده في كل مكان ، وعلمه بكل شيء ، وطبعا بجميع الصفات التي تعددها اسماؤه الحسنى))[٦٨]. بل ((لعله ليس من الخطأ ان نقول انه كان في ميسور الاسلام ان يستغني في سهولة ويسر عن الفلسفة ، لقد كان دينا توحيديا على نحو لا يعرف هوادة ، دينا واقعيا شاملا ينتظم كل شيء ، وخليق بمثل هذا الدين ان يقدم جوابا عن الكثرة الكبيرة من المسائل الروحية والدنيوية ، وان لايبقي اي مبرر للتأمل الفلسفي))[٦٩].

[٣]

وقد قال لاندو : ((الفلسفة)) و((التأمل الفلسفي)) ولم يقل – بطبيعة الحال – ((العلم)) و((التأمل العلمي)) و((العقلي)) ، فثمة فرق شاسع بين الاثنين رغم ان الفلسفة والتأمل الفلسفي يعكسان نشاطا عقليا ، ورغم انهما تالقا في مناخ الحضارة الاسلامية، كما سنرى بعد قليل ، الا اننا ننظر وبموضوعية تامة ، الى كافة الفلسفات التي شهدها تاريخ البشرية منذ عصر اليونان وحتى اللحظات الراهنة فلا نجد ايا منها تطرح منهاجا عمليا واقعيا ، يتضمن الروحي والمادي ، ويجيب على كافة الاسئلة .. انها كثيرا ماكانت تدور في الفراغ ، او تلف على نفسها بطريقة سوفسطائية ، او تتعلق في سماوات المثل العليا البعيدة ، غير ممكنة الوقوع .. وانها كثيرا ما كانت تعاني من الالغاز والتعتيم والغموض وعدم القدرة على التكشف وملامسة اشواق الانسان ورغباته وطموحه في صياغة عالم سعيد بأساليب ومناهج تتعامل مع الواقع المنظور وليس ذلك المغيب في طيات عقول الفلاسفة والمتأملين .. وانها كثيرا

---

(٦٥) انظر : الاسلام والعرب ، ص١٩٠.

(٦٦) انظر : سورة المجادلة ، (الآية ٧).

(٦٧) الاسلام والعرب ، ص٤٥-٤٦.

(٦٨) نفسه ، ص ٤٧.

(٦٩) نفسه ، ص ٢١٠.

ما كانت تعاني من الازدواجية بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ، ومن ازدواجية اخرى بين المبادىء والقيم التي تطرحها وبين سلوك وواقع الفلاسفة الذين كتبوها ودعوا اليها .. بل انها في معظم الاحيان لا تتضمن قيما يقينية مطلقة ، وانما تعاني من النسبية والقلق والتغير ، بل ان بعض الفلاسفة انتهى بهم الامر ليس الى تغيير مواقفهم الفلسفية او تحويرها ، بل رفضها وانكارها من الاساس ، ونحن لا زلنا نذكر حوار (سارتر) زعيم الفلسفة الوجودية ، قبيل وفاته، مع عشيقته وصديقة عمره (سيمون دي بوفوار)[٧٠].

فاذا وضعنا قبالة هذا كله : الدين ، مطلق دين سماوي كما يقول المناطقة ثم خصصنا الاسلام بالذات .. الاسلام الواضح ، الواقعي ، الشامل الذي قدم اجوبته ((على الكثرة الكبيرة من المسائل)) ، أفلا نوافق لاندو على مقولته تلك من انه لا يتبقى ثمة مبرر للفلسفة ؟

أما العلم او التامل العقلي فانه امر مختلف تماما .. انه بحث في السنن والوقائع .. تواصل بين طاقات الانسان العقلية والحسية وبين امكانات العالم ونواميس الكون القريب من اجل الكشف عن الحقائق وتسخيرها لصالح الانسان.

ها هنا ليس ثمة من مبرر لان نعيد ما سبق وان عرضنا له مرارا ، وما سبق وان قاله المفكرون الاسلاميون وخصومهم على السواء من ان هذا الدين جاء لا لكي يتساوق مع المعطيات العلمية فحسب ، بل لكي يؤصلها ويمنحها دفعة كبرى الى الامام ... وكذلك لكي يضبطها بالقيم الدينية والخلقية كي لا تتحول الى سلاح يوجه في نهاية الامر ضد الانسان ، كما شهدنا ونشهد في بعض جوانب التطبيقات والاستخدامات العلمية للحضارة الغربية.

لا مبرر لاعادة القول وانما نريد فقط ان نؤشر على شهادتين لروم لاندو نفسه ، بهذا الصدد ، لكي يتاكد لدينا اكثر ، مصداقية تلك العلاقة بين العلم وهذا الدين.

يقول في الشهادة الاولى : ((في الاسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للاخر ، ويتخذ طريقا معاكسة. والواقع ان الاول كان باعثا من البواعث الرئيسية للثاني))[٧١]. ويقول في الشهادة الاخرى ان : ((العلم الاسلامي لم ينفصل عن الدين قط. والواقع ان الدين كان قوته الدافعة الرئيسية. ففي الاسلام ظهرت الفلسفة والعلم معا الى الوجود ، لا ليحلا محل الوهية الدين .. ولكن لتفسيرها عقليا ، لاقامة الدليل عليها وتمجيدها .. ان المسلمين وفّقوا ، طوال خمسة قرون كاملة ، الى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير ان يديروا

---

(٧٠) انظر مقال : (المحاورة الاخيرة بين سارتر ودي بوفوار) ترجمة : د.محمد جابر الانصاري ، مجلة الدوحة عدد ٧٧ (مايو-١٩٨٢م).

(٧١) الاسلام والعرب ، ص٢٤٦.

ظهورهم للدين وحقائقه وانهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وانجاح لا عامل تعويق واحباط))[٧٢].

وهذا يكفي ، فبمجرد مقارنة الموقف الاسلامي بموقف النصرانية الاوروبية المحرفة ازاء العلم ، يتبين الفارق الحاسم بين موقفين كانت العلاقة الطردية بين العلم والدين في اولهما عامل تسريع وانجاح لكليهما ، وكانت العلاقة العكسية في ثانيهما عامل تعويق واحباط ، لولا ان العلم تمرد اخيرا على الدين المحرف واسقطه من الحساب.

[٤]

ومع هذا ((التوحيد)) العقيدي لله (سبحانه وتعالى) ، ثمة توحيد من نوع اخر في مجرى الحياة.. لقد ارادت هذه العقيدة ان تلم كافة الثنائيات التي تمزق الحياة البشرية والوجود الانساني .. ان توحدها وتعيد اليها التلاؤم والتناغم والوئام ... احدى هذه الثنائيات كانت معضلة الروح والجسد .. فمعظم المذاهب والاديان المحرفة مارس خطيئة تاكيد ازدواجيتها فذهب مع هذا الجانب او ذاك واعلن الحرب على الجانب الاخر .. ولقد بلغ الشد اقصى درجات احتماله في النصرانية التي رفعت شعار ((إما هذا او ذاك)) فلما جاء الاسلام كانت احدى المهمات الاساسية التي تنتظره هي الكشف عن هذه المؤامرة ضد الانسان واعادة التوحد بين ما يعد – اساسيا – جزء من تكوينه الذاتي ((فالتوكيد النصراني التاريخي على الالم واماته الجسد يكاد يكون مفقودا بالكلية في الاسلام. والثنائية المسيحية ، ثنائية الجسد والروح ، هي في نظر المسلم شيء غير معقول ، او في احسن الاحوال شيء غير واقعي))[٧٣].

وبينما يجد المسلم ((ان في ميسوره التزام احكام دينه)) الذي يجعله ((ينعم بالامن وطمانينة النفس)) ، تمعن النصرانية في التشبث بالهدف الروحي ، واهمال الانشطة والمطالب المادية ((ذلك الهدف الذي هو الانتصار على ضعف الجسد)) والذي ((يكاد يكون متعذر التحقيق في هذه الحياة)). ولولا محبة الله ، يقول لاندو ((اذن لكان خليقا بحياة المسيحي ان تكون سلسلة من ضروب الاخفاق والخيبة التي لا سبيل الى التغلب عليها)). وإذ كان ((بامكان المسلم ان يبلغ مثل دينه الاعلى هنا على سطح الارض ، فان ((النصراني يتطلع الى الاتحاد بالمسيح (عليه السلام) في المستقبل بوصفه غاية الغايات في حياته الدينية)).

---

(٧٢) نفسه ، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٧٣) نفسه ، ص ٥١.

ويخلص لاندو الى القول : ((بان الاسلام والنصرانية يتفقان في كثير من القضايا الهامة ، ولكن ثمة الى جانب هذه القضايا ، كثيرا من النقاط التي يختلفان فيها ، بوضوح مماثل، اختلافا كبيرا))[٧٤].

[٥]

عن شريعة الاسلام ايضا يتحدث لاندو فيرى منذ البداية ان هذه الشريعة تتميز في اساسها عن كافة الشرائع الوضعية المعروفة في العالم من حيث انها شريعة الهية ، وان الله سبحانه هو الحاكم والمشرع ، وان الوحي الذي ينقل التعليمات ، والنبي الذي يتلقاها ، يحولان هذه الشريعة لكي تكون جاهزة للعمل في الارض ، في واقع الحياة .. واذ كان الامر كذلك ، كانت هذه الشريعة في اصولها العامة ذات طابع موضوعي منزه عن الخطا والضلال ، وكان تنفيذها والعمل بمقتضاها جزء اساسيا من مطالب الايمان ((ان مجموعة الشرائع التي نشات من طريق النظام والتنظيم اللذين احدثهما الاسلام ليس لها ما يقابلها في القوانين الغربية التي انبثقت عن انماط من السلوك متعارف عليها. ذلك ان القانون في الاسلام اسس منذ البدء ، تاسيسا مباشرا على الوحي الالهي الذي تلقاه محمد (صلى الله عليه وسلم) .. وبسبب من طبيعته الالهية، وبالتالي المعصومة عن الخطا ، سن القرآن شرائع منزهة عن الضلال مفروضا في المؤمنين ان يعملوا بموجبها ، لا كواجب اجتماعي ، كما هي الحال في الغرب ، ولكن كجزء من الايمان بالله))[٧٥].

بعد ذلك يؤشر لاندو على عدد من الملامح الاساسية لهذه الشريعة ، انه يجد مثلا ان : ((الاسلام في اساسه دين عملي. فالقواعد والانظمة التي ينص عليها القرآن ليست جامدة، ولقد كيفت وفقا لما قضت به الاحوال والظروف. وهذه السياسة انما يؤيدها كثير من المسلمين عندما يستشهدون بالآية القرآنية التي مفادها ان الله يريد ان ييسر السبيل للناس[٧٦] ان المسلم ليجد في ميسورة التزام احكام دينه ، وهكذا ينعم بالامن وطمانينة النفس))[٧٧]. ويؤكد لاندو ان هذا التيسير المرن الذي تتميز به الشريعة الاسلامية لا يعني التسيب والانفلات، لانه محكوم بالمعطيات التشريعية (من حدود وانظمة وقوانين ... الخ) .. كما انه – بالتاكيد – نقيض التيبس والجمود والاختناق .. ولاندو ينظر فيجد ان ((مهمة القانون الرئيسية)) كانت دائما

---

(٧٤) نفسه ، ص ٥٢–٥٣.

(٧٥) نفسه ، ص ١٨٧.

(٧٦) انظر : سورة البقرة ، (الآية ١٨٥).

(٧٧) الاسلام والعرب ، ص٥٢.

((مساعدة الجنس البشري على الافادة ، على اكمل وجه مستطاع ، من الحرية التي هي من هبات الله. ولكن الناس اساءوا فهم هذه المهمة وحرفوها الى شيء جامد خانق.

والواقع ان القاعدة الاساسية التي تقوم عليها الشريعة الاسلامية هي الحرية .. بيد ان الحرية اذا ما تركت من غير قيد يقيدها تمسي ضربا من ((العبث)) ، ويتردى المجتمع في الفوضى بأبشع اشكالها. ان (الحد) الذي وضعه الله (سبحانه وتعالى) للحرية الفردية ليؤلف (حكم) القانون الرسمي الذي يشكل ، متجسدا في (الشريعة) ، المخطط المفصل لحياة المسلم. ومن المهم ان نشير هنا الى ان الشريعة ، برغم هيمنتها الكاملة على الجماعة الاسلامية، لا تلزم غير المسلمين بصرف النظر عن مكان اقامتهم ، الا الى مدى محدود جدا))[٧٨].

ومع المرونة والتيسير والنزعة العملية ، والقدرة على التكيف والملاءمة والاستجابة لمتغيرات الزمن والمكان والبيئات الحضارية ، فيما نلحظه في النص السابق ، مع هذا كله هناك الشمولية التي اتسمت بها هذه الشريعة التي اريد لها ان تنظم كافة مفردات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية وان تطبع النشاط الفكري بطابعها ومنهجها ((ان مصطلح (الشريعة)) يشمل جماع القوانين الاسلامية كما نشات وتطورت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .. واذ كانت مستمدة في الاصل من القرآن مباشرة ، فانها ليست مجرد مجموعة من القوانين التي تترك اثرها في حياة المسلم في مناسبات بعينها ، ولكنها المبدا الاساسي الذي يقوم عليه وجوده كله. ان احكام الشريعة لتنظيم حياته الدينية والسياسية والاجتماعية والبيتية والخاصة ، وان هذه الحيوات لمرتبطة اكمل ارتباط بتلك الاحكام. والواقع انه ليس ثمة ايما حاجة الى التوكيد على الاهمية البالغة التي (تمارسها) الشريعة في حياة المسلم ، لانها تطبع الفكر الاسلامي بطابعها وتميزه تمييزاً كاملا. لقد دعيت في الواقع نواة الاسلام))[٧٩].

وما دام الامر كذلك ، فان الدين في المنظور الاسلامي يرتبط بالدولة ارتباطا وثيقا ، اذ كيف سيتاح لشريعته ان تاخذ طريقها الى الواقع دونما مؤسسات ذات طابع عملي تعينها على التحقق ؟ بل كيف سيتاح للعقيدة نفسها ان تعبر عن مطالبها في العالم ان لم تكن هناك دولة تتبناها ، وتحرسها ، وتمكنها من التوغل في مفاصل الحياة البشرية ونسيجها ؟ واذا كانت ديانة أحادية التركيب كالنصرانية قد وافقت على ان تتخلى عن هذا الالتزام وان تعطي لقيصر ما لقيصر ، فان هذا الموقف يكاد يكون مستحيلا في الاسلام بل هو المستحيل بعينه.

---

(٧٨) نفسه ، ص ١٨٨-١٨٩.

(٧٩) نفسه ، ص ١٨٧-١٨٨.

هكذا يخلص لاندو الى القول بان : ((الفصل بين الديني والدنيوي لا وجود له في نظر العقل المسلم)) ، وان مؤسسة الخلافة تعد ضرورية في الحياة الاسلامية لانها تمثل ((وحدة الهدف)) ، ولأنها تتولى المهام الكبرى التي لن يكون الدين مجردا عن السلطة ، ان يؤديها : ((صيانة العقيدة في صفائها الاصلي)) ، ((التثبت من خضوع الناس للقانون ومن تنفيذ العقوبات الناشئة عن التمرد عليه)) ، ((الدفاع عن تخوم البلاد)) .. ((وعلى العموم التمكين لمجتمع تستطيع فيه الجماعة الاسلامية ان تؤدي واجباتها الدينية)).

وهكذا فان مهمة هذه المؤسسة : ((هي تمكين المجتمع من تحقيق ذاته روحيا عن طريق نشاطاته اليومية))[٨٠]. وذلك بحق هو الفهم الدقيق الصائب لمعنى ان يكون الدين والدولة في الاسلام مرتبطين هذا الارتباط الوثيق الذي لن يكون فكه سوى محاولة مرسومة لوقف الدين نفسه عن العمل في واقع الحياة.

[٦]

فماذا عن العبادة ، الوجه الاخر للحياة الاسلامية .. او اذا اردنا الدقة في التعبير : قلب هذه الحياة الذي يمنحها الحركة والديمومة .. يجدد شبابها ويمكنها من الخفقان ؟.

ها هنا ايضا يمسك لاندو بالخيط المتين فيضع يده على واحدة من اهم ميزات النشاط التعبدي في الاسلام ، القدرة على تمثل الامر الالهي وتنفيذه .. وفرصة الاحساس الثمين بالتوحد عبر الممارسة وفي اعقابها ((ففي الاركان الخمسة نقع على سبب رئيسي من اسباب قوة الاسلام .. ان ثمة شيء مرضي الى ابعد الحدود في ادراك المرء انه امتثل اوامر معتقده ، وايا ما كانت هذه الاوامر عسيرة من الناحية الجسدية ، فان في الامكان امتثالها. ومن هنا فنادرا ما يكون المسلم عابدا مخيب الامال واثق ابدا من انه قد عمل بموجب احكام شريعته الدينية الخاصة))[٨١].

وبرؤية فنان متمرس يلحظ لاندو فارقا عميقا في المعطيات التعبدية بين الاسلام والنصرانية ، مستمدا من الرموز التي تعتمدها كل من الديانتين ((ان هذه الرمزية تؤكد ، من جديد ، فلسفتها المختلفة الى حد بعيد . ففي شكل المصلي المسلم المتقوس ، وفي شكل الكعبة المكعب ، وفي مستطيل الجامع المقبب ، ينعكس الشعور الاسلامي بالاستقلال الذاتي. ان المسلم لا يستشعر ان الله (سبحانه) (بعيد عنه) بل يستشعر انه (قريب منه). وعلى الرغم من ان كثيرا من اتقياء النصارى يستشعرون ان الله جد قريب منهم في شخص يسوع المسيح

---

(٨٠) نفسه ، ص ١٩٠.

(٨١) نفسه ، ص ٥٠.

(عليه السلام) فان الرمزية النصرانية ، من الناحية التاريخية ، قد عبرت عن نفسها في بسط اليد التماسا للعون الخارجي. واليدان المتشابكتان المتضرعتان مرموز اليهما في النصرانية بالبرج القوطي الموجه رأسه نحو السماء ، لا نحو المتضرع نفسه))[٨٢].

فالعبادة الاسلامية ، سواء في مفهومها الشعائري المتحدد ، ام في امتدادها العام الذي يغطي كافة مفردات الحياة البشرية للانسان المسلم .. تضع هذا الانسان – دوما – قبالة الله سبحانه ، او بتعبير ادق مع الله سبحانه .. وهذا الاحساس المتمخض عن التقابل والقرب كان بمثابة المحرك الذي يجعل الحياة الاسلامية ، الفردية والجماعية ، تتجه نحو الاحسن ، كما يجعلها جديرة حقا بان تعاش !

ومن خلال حديثه المقتضب عن هذه الشعيرة او تلك من شعائر الاسلام الاساسية ، تتكشف ميزات اخرى ((فحين يكون صيام رمضان في البلاد العربية الحارة صيفا ، يصبح الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات النهار الطويلة امتحانا حقيقيا للايمان .. ان الصوم ولد ضبطا ذاتيا عند شعب كان بطبيعته انفعاليا شديد العناد))[٨٣].

أما الحج فلقد ((كان ، ولا يزال ، قوة موحدة في الاسلام ، اذ يجتمع المسلمون في موسمه من بلدان متناثرة في اطراف الارض .. لاداء شعيرة دينية مشتركة))[٨٤].

---

(٨٢) نفسه ، ص ٥٢–٥٣.

(٨٣) نفسه ، ص ٤٩.

(٨٤) نفسه ، ص ٤٩.

كب :

العقيدة والشريعة والاخلاق

[١]

يعد سير الكساندر كب (١٨٩٥-١٩٦٧م) بلا ريب أمام المستشرقين الانكليز المعاصرين. عمل استاذا للغة العربية في جامعة لندن سنة (١٩٣٠م) واستاذا في جامعة اكسفورد منذ سنة (١٩٣٧م) وعضواً مؤسساً في المجمع العلمي المصري. تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن ، وترك سيلا من المؤلفات والابحاث نذكر منها على سبيل المثال (دراسات في الاداب العصرية) ، (الفتوحات الاسلامية في اسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين) ، (الاتجاهات الحديثة في الاسلام) هذا الى انه شارك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية.

في (دراسات في حضارة الاسلام) الذي حرره ستانفورد شو ووليم بولك ، وفي (الاتجاهات الحديثة في الاسلام) يتحدث هاملتون كب عن جوانب شتى من الاسلام ينحرف في بعضها عن الحق لسبب او آخر ، ويتشبث به في بعضها الاخر. لكننا نستطيع من اجل السيطرة على المادة التي يطرحها في هذا الجانب الاخير ان نتابعها في سياقات اساسية ثلاثة : الاسلام كدين وعقيدة ، الشريعة ، والاخلاق. لنبدا بالمسالة الاولى :

[٢]

يعرف كب الاسلام بانه : ((دين حي يتحدث الى أفئدة مئات الملايين من الاشخاص ويقدم لهم مبادىء حياة شريفة قانعة مفعمة بخشية الله))[٨٥] وهو - الى حد ما - تعريف شامل، مقنع ، لانه يضع يديه على اثنتين من اهم خصائص الاسلام ومكوناته : الحيوية ، والمبادىء التي تصنع حياة شريفة مفعمة بخشية الله.

لكن هذا وحده لا يكفي ، فهنالك مع الخشية خاصية اخرى لا تقل اهمية ، لم يشر اليها الرجل : انها التلقي عن الله . قد يكون هذا واردا ضمنا في العبارة المذكورة ، لكن الشيء الذي قد لا نسلم به بسهولة انما هو وصفه الحياة الاسلامية بانها حياة ((قانعة)) اذ قد يتصادى هذا

---

(٨٥) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ص١٤٨ (تعريب : جماعة من الاساتذة الجامعيين المكتب التجاري ، (بيروت -١٩٦١م).

مع شبهات شتى احاطت بالاسلام على ايدي خصومه وصورت فيما صورت قناعة يدعو اليها هذا الدين قد تقود في حدودها البعيدة الى نوع من التواكل الذي هو نقيض التوتر والفاعلية.

لكن هذا الظن سيزول بالتاكيد بمجرد متابعة معطيات كب عن الاسلام عقيدة وشريعة واخلاقاً وفكراً. فلنتابع ما يقوله الرجل عن المسالة الاولى : ((ان المبدأ المحوري في القرآن هو – يقينا – مبدا وحدة لا هوادة فيها ، وهو يرفض فكرة وجود وسطاء بين الله والانسان ، على الاقل في هذا العالم. فالاسلام حين وضع الانسان امام الله دون عناصر وسائطية روحية كانت او شخصية ، أكد بالضرورة مدى التباين بين الله والانسان. وعلى الرغم من وجود ايات قرانية ذات حدس صوفي ، فان العنصر العقائدي المستمد من القرآن لا يستطيع الا ان يصدر من افتراض التعارض بين الالوهية والانسانية ، ومن تساوي الناس جميعا (وهذه النتيجة ضرورية للموقف الاول) في علاقتهم بالله من حيث انهم مخلوقات. وفي هذه المفارقة الكلية يقع التوتر الديني الذي يمثل – في الواقع – المظهر الاصيل المميز للاسلام))[٨٦].

فالحق انه ليس من دين كالاسلام قدر على تقديم تصور شامل ومحدد وصارم لحقيقة الالوهية وموقع الانسان في العالم. وكذلك ، وامتدادا للتصور نفسه ، فانه ليس من دين حقق فكرة المساواة بين الناس ازاء الله (سبحانه وتعالى) كالاسلام ، وفتح الطريق على مداه بينهم وبين خالقهم (جل وعلا) ، عندما اسقط ((الوسطاء)) بصيغة لا هوادة فيها.

وما دمنا بصدد العلاقة بين الله والانسان ، فاننا لا بد وان نتذكر ما يقوله كب عن الدور الذي تؤديه الصلاة الاسلامية في تحقيق التقارب الذي ينعكس على فكر المسلم وسلوكه فيطبعه بطابعه الخاص ((ان القيم التنظيمية التي يشتمل عليها القيام والركوع والسجود قد وجدت من نوه بها ، ولا يجوز لنا اغفالها كذلك ، غير ان النظام ليس قيما في ذاته بمقدار ما هو قيم من اجل ما يؤدي اليه . ولعلنا لا نتجاوز حدود الاحتمال ان قلنا ان اهم مرحلة في الصلاة هي على وجه الدقة تلك المرحلة التي اغفلت كثيرا عندما وصفت هذه الشعيرة ، اعني اللحظات القليلة من التامل الساكن والخشوع الذي يعقب اخر سجود . فالسجود دربة تعنو بها الوجوه وتغرس في نفس العابد روح التواضع والسلام الموجه للحي القيوم ، وهذا يمهد للعابد (الطريق) .. الى تلك العلاقة .. التي يتجلى فيها كل فكر وتسيطر على كل فعل))[٨٧].

وأغلب الظن ان كب يرد هنا قول القائلين من رجال الفكر واللاهوت الغربيين بان الاسلام ، على خلاف النصرانية وغيرها من الاديان ، يحدد قنوات الاتصال الروحي بالله ،

---

(٨٦) دراسات حضارة الاسلام ، ص٢٧٠ (تحرير ستانفورد شو ووليم بولك، ترجمة : د.احسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٦٤م).

(٨٧) نفسه ، ص ٢٥٣.

للتحّقق بوتائر روحية عالية بين الخالق والمخلوق. فها هي ذي الصلاة الاسلامية المفروضة خمس مرات في اليوم على المسلمين كافة ، والتي تمارس فيها تجربة السجود والسكون والخشوع، تفتح واحدا من اكثر الطرق حيوية واتساعا لتصعيد الحوار بين الله سبحانه وبين الانسان.

واذا كان الاسلام قد اسقط ((الوسطاء)) في الممارسة الروحية ، فحرر الانسان الفرد في نشاطه التعبدي وفي علاقته الوجدانية بخالقه ، فانه على المستوى الاجتماعي مارس تحريرا للجماعات والشعوب ضد القهر والتعصب اذ ((جعل من نفسه لسان حال ردة فعل اجتماعية عميقة في شعوب الشرق ضد تعصب الرهبان البيزنطيين والزرادشتيين بما في ذلك المؤسسات الاجتماعية والحقوقية التي كانت تصدم غرائزهم ومثلهم الاجتماعية))[٨٨].

فالاسلام في نهاية الامر انما هو برنامج عمل روحي ومادي ملائم تماما لحاجات الانسان الفرد والجماعة البشرية على كل المستويات ، ولن يتحقق هذا بطبيعة الحال من خلال ازدواجية السلطة ، او من خلال الانفراد بالتعامل مع الجانب الروحي وترك المسائل الحيوية للوضعيين ، ان هذا يمثل في اساسه تناقضا مع طبيعة البنية الاسلامية التي استهدفت التوحد منذ اللحظات الاولى.

ان كب يقف عند هذه المسألة ويكاد مايقدمه في هذا الصدد يعد اهم معطياته عن الاسلام ((ان الاسلام – يقول كب – قد وحد السلطة الدينية والدولة ، اليس الخليفة هو في نفس الوقت الرئيس الديني والرئيس السياسي للامة الاسلامية ؟ وعلى الرغم من ان النظريات الاسلامية اقرت اتحاد السلطة الدينية والدولة ، فان هذا الاعتراف كان يفترض وجود وظيفة الخلافة ، والخليفة هو ممثل الشريعة المقدسة ، وحين ابتعدت النظم الاسلامية في العالم الاسلامي عن مثلها الاعلى في الدولة الدينية ، لم يعد اخلاص المسلمين للرئيس السياسي اخلاصا مطلقا ، اذ ان اخلاصهم الاول كان هدفه تحقيق المثل العليا والمؤسسات الاسلامية ، كان ذلك يفترض موقفا سلبيا ، بل يتطلب موقفا معاديا ازاء حكام غير دينيين ، هذا ماكان ولا يزال سبب القوة المتحركة الكامنة (في العديد) من الظاهرات الثورية))[٨٩].

ان الرجل يطرح تصورا واضحا عن المسألة ، مستمدا من طبيعة الاسلام ومن الخبرات التاريخية لجماهير المسلمين. ويعجب المرء كيف ان مفكرا غربيا يلامس واحدة من اكثر الحقائق الاسلامية ثقلا واهمية ، بينما يغفلها ، بل يتعّمد انكارها ، رجال من امثال (على عبد الرازق) هم ابناء البيئة الاسلامية .. ولكن ماذا يفعل الانسان ازاء الاسباب التي تقود الى مواقف غير مبررة علميا وموضوعيا ؟

---

(٨٨) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ص٤٢.

(٨٩) نفسه ، ص ١٣٨–١٣٩.

لندع هولاء ، ولنواصل الاستماع الى كب وهو يؤكد المنظور الاسلامي الديني – السياسي المتوحد ، انف الذكر ، ويدحض هذا ((التوجه)) الغريب على الاسلام ((ان فكرة جمعية تشريعية اسلامية ، او ادارة روحية تجرد الخلافة من السلطة الزمنية والسيادة ، هذا الاقتراح مهما كان وقع مفعوله بالنسبة الى الاذان الغربية ، فهو يجرح الشعور الاسلامي جرحا مزدوجا. أولاً لان الخلافة ليست في الاصل وظيفة روحية ، انها موجودة فقط كأداة للشريعة تؤمن تنفيذها دون ان يكون لها اطلاقا سلطة تعديلها ، حتى ولا نشرها. والمسلمون ليس لهم اي ارتباط روحي تجاه اي شخص من الاشخاص ، ولا يرتبطون الا بالشريعة. وهذا المبدأ يعبر عنه بوضوح واستمرار بحيث يبدو من الغريب وقوع المجددين المسلمين في خطأ الغربيين المشترك وهو اعتبار الخلافة نوعا من البابوية او انه في الا مكان تحويلها الى ما يشبه المجالس العامة. ثانيا : اذا اردنا تعزيز الشريعة فلا يمكن للخلافة ان تنفصل عن السيادة الزمنية ، فجميع القوى العسكرية وقوى الشرطة يجب ان تكون تحت اشراف الخليفة))[٩٠].

وهو يخلص الى القول بما يعد حسما لكل ما قد يثار – خطا – حول الموضوع ((ان هدف نظرية العلماء (المسلمين) السياسية هو ان تعهد الى الحكومة السياسية مهمة تامين اطار زمني لممارسة الشريعة المقدسة والاخلاق الاسلامية ممارسة طليقة. هذا المفهوم اساسي في الاسلام. وهناك فترات (والتاريخ الاسلامي حافل بالامثلة) يصبح فيها اللجوء الى العنف الوسيلة للتخلص من الشرور والمفاسد المتراكمة))[٩١].

((تأمين الاطار الزمني لممارسة الشريعة والاخلاق الاسلامية ممارسة طليقة)) ذلك هو المبدأ الاساس والفهم الصائب لطبيعة المسألة. فبدون تأمين هذا الاطار الذي ينطوي بالضرورة على كافة القوى والمؤسسات الفاعلة القديرة على التحقق بالممارسة الاسلامية على مستوى الفرد والجماعة ، السلوك الخلقي والتشريع ، فلن تكون هناك حياة اسلامية تمتلك حتى الحدود الدنيا من شروطها وامكاناتها .. وهذا يكفي.

فلنتابع الآن ما يقوله الرجل عن ((التشريع)) و((الاخلاق)) كما هما في دائرة الاسلام ، باعتبارهما ركنين من اهم اركان الحياة الاسلامية.

---

(٩٠) نفسه ، ص ١٤١.

(٩١) نفسه ، ص ١٤٤.

[٣]

المصدر الاساسي الاول للتشريع الاسلامي هو القرآن الكريم الذي بفضله تحققت الوحدة التشريعية ، ومع الاطمئنان الى القواعد الثابتة لهذه الوحدة قدرت الانشطة التشريعية ان تتحرك في مناخ سمح ، حر يتيح الاختلاف والتمايز في الفروع والمتغيرات .. انك اذا قدرت ان تمسك بعنان حركة ما وتسوقها الى وجهة واضحة محددة معلومة ، فانك ستتيح المجال ، وانت مطمئن الى المصير ، لتوجهات متغايرة هنا وهناك كلما دعت الضرورة ، مادامت انها في نهاية الامر ستعود لكي تلتئم في المجرى العام ذي الهدف الواحد.

هذا ما فعله كتاب الله ازاء الحركة التشريعية عبر التاريخ ((كان القرآن يحقق اثرا مسددا للخطى داعيا الى الاعتدال ، فاذا ورد فيه النص الصريح على امر ، لم يستطع احد ان يتشبث بصحة رايه الذاتي فيه. كلهم خاضع لتلك القوة العليا ، وقد جعلهم الولاء المشترك لتلك القوة ، الا المتزمتين المتنطعين منهم ، على وعي بأمتهم. حتى الخلافات المذهبية الناجمة عن الخلافات السياسية والكلامية لا تستطيع ان تزعزع الوحدة الاساسية في الوجهات والاساليب التشريعية ... تلك الوحدة المؤسسة على القرآن في اهم ما يهم المسلمين هي التي ادت باغلبية المسلمين ، اولا الى التساهل الفذ والتسامح في الخلافات حول الفروع ، واخيرا الى ان يدرك المسلمون انه اذا كانت الامة موحدة في القضايا الكبرى ، فوجود الخلافات في ماعداها رحمة وتوسعة على الناس وعليهم ان يتقبلوها بالشكر لانها بركة من الله))[٩٢].

وكب يمضي لكي يشير الى الدور الحاسم الذي مارسته شريعة تملك هذا القدر الباهر من التوازن بين الصلابة والمرونة ، في رسم اسس الحياة الاسلامية وتحديد اهدافها العليا ، في صياغة حضارة المسلمين وحمايتها من التقلبات الخطيرة ... وفي تكوين جماعة اسلامية موحدة قديرة على مجابهة التحديات والخروج من الصراعات السياسية وكافة انماط الصراع الاخرى ، دون ان يصيبها كسر لا يمكن اصلاحه ، اننا ((لا نستطيع ان نقدر اثر الحيوية التشريعية في الفكر الاسلامي الديني حق قدره. فحين تم انشاء علم الشريعة مبناها لم يضعا فحسب اطارا صلبا حول المثل العليا الاسلامية في الواجبات الاخلاقية والعلاقات الانسانية (مع عنصر طفيف من المرونة يسرته المذاهب الاربعة) بل ان الشريعة نفسها حددت القانون الاساسي الذي تسير عليه الجماعة الاسلامية تحديدا جامعا مانعا. فالشريعة لدى المسلم تعني مايعنيه القانون الاساسي او الدستور لدى سكان الولايات المتحدة وتزيد عليه ، اذ انها وضعت اصولا وقواعد لكل النظم والمؤسسات والمجتمعات الاسلامية ، وظلت تلك الاصول من عهدئذ ملاذ الحضارة الاسلامية ، خلال التقلبات العديدة المفزعة التي تمت في القرون الأخيرة. وقد عبرت

---

(٩٢) دراسات في حضارة الاسلام ، ص٢٦٤.

الشريعة عن جماعة اسلامية موحدة ، بل هي التي خلقتها ، رغم التمزق والصراع السياسي وما تزال ... (التجسد) الوحيد لوحدة المعتقد بين المسلمين ، ولولاها لكانت تلك الوحدة شكلية خالصة))[٩٣].

ومع القرآن الكريم ، المصدر الاول للتشريع ، ومع السنة الشريفة مصدرا ثانيا ، هناك (الاجماع) الذي منح جماهير المسلمين فرصة واسعة ليقولوا كلمتهم ، في عصر كانت فيه المؤسسة التشريعية حكرا على الاباطرة والملوك والمتربعين في قمة الهرم .. اما الجماعة فكان عليها ان تتلقى فحسب ، لا ان تشارك في صياغة القرار التشريعي. تلك واحدة من اهم خصائص التألق الاسلامي في ميدان التشريع ((ان اشد المسلمين تواضعا هو على الصعيد الديني في نفس مرتبة الخليفة او قاضي القضاة ، والكلمة الاخيرة تعود الى ضمير الشعب باعتباره مجموعة واعية . وقد اصبح (صوت الشعب) او (الارادة الواضحة الثابتة للمسلمين ، هذه الارادة التي لاتحدد بواسطة التصويت ، او بواسطة قرارات المجالس في لحظة ما ، بل بواسطة ضغط الرأي العام الذي يبرزها ويؤكدها بقوة ولكن بشكل بطيء بعد مرور حقبة طويلة من الزمن تتراكم خلالها هذه الارادة وتتضح معالمها) ، اصبح هذا الصوت معترفا به في الاسلام ، بعد (صوت الاله) وصوت الرسول (صلى الله عليه وسلم) باعتباره المصدر الثالث الاساسي للحقيقة الدينية))[٩٤].. ((ان مفهوم الاجماع يرتكز الى الشعور الديني لمجموع الشعب. ان الديمقراطية الروحية في الاسلام ديمقراطية تامة ..))[٩٥].

وعلى خلاف ما شهدته التجارب الاخرى ، دينية محرفة او وضعية ، فانه في ظلال مناخ تشريعي هذه مواصفاته ، مناخ يكون فيه للجماهير الاسلامية هذا المدى الواسع ، لم يكن لاحد او لفئة من الناس ان تتهم فردا او فئة اخرى بالكفر والهرطقة والمروق لانهما قالا برأي مخالف او طرحا اجتهادا مغايرا.

ان كب بعد ان يشير الى اصول التشريع الاسلامي الثلاثة : القرآن والسنة والاجماع ، والى ما قاد اليه التعامل المشترك معها ، وتاثيرها ، من وجود تركيب مذهبي عقائدي كامل ، ومؤسسات اجتماعية دينية زاخرة ، بل وحتى التفكير الديني بالذات يقول بأنه ((ما دام الاجماع – ذلك المصدر الثالث للتشريع – يرتكز على وعي كافة الجماهير الاسلامية فانه لا يحق لأي فريق من المسلمين ينادي بوجهة نظر معينة ، مهما بلغ من القوة ، ان يعلن بأن وجهات نظر

---

(٩٣) نفسه ، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٩٤) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ص٣٧-٣٨.

(٩٥) نفسه ، ص ١٤١.

فريق اخر هي هرطقة ، وبالتالي لا يحق له ان يقدم على القضاء عليها بالقوة ...))[٩٦]، ثم يخلص الى القول ((بأن الاسلام يتمتع بخاصة جوهرية هامة وهي تسامحه في وجود وجهات مختلفة ضمن الطائفة ، بل انه يستمد من ذلك مجده وفخره وابرز مثل على هذا التسامح هو وجود المدارس المذهبية باسم فقهاء القرنين الثاني والثالث الهجريين))[٩٧].

وهو يفسر قدرة الشريعة الاسلامية على مجابهة التحديات والاستمرار في قيادة الجماهير بانبثاقها عن عقيدة راسخة ، وبما كانت تملكه من مرونة ووضوح اتاحتا لها ان تتحقق بدرجة كبيرة من القوة والهيمنة والانتشار ضاعت ازاءها ، او لم تؤثر في الأقل ، كافة الحركات المضادة فردية ام جماعية .. ((اميل الى الاعتقاد – يقول كب – بان سر نجاح العرب يعود الى اعترافهم بأن اي تركيب اجتماعي لا يمكن ان يحصل على قاعدة متينة راسخة ، ولا يستطيع ان يبقى مرنا تجاه الكوارث والازمات الا اذا ارتكز على ارادة مشتركة لا على القبول القسري ، او على المنظمات المعقدة ، وان الارادة المشتركة لايمكن ان تتشكل الا على مراحل خلال حياة عدد من الاجيال. وما دام الدين يشكل اقوى الادوات التي يمكن بواسطتها بناء هذه الارادة المشتركة ، فان مجتمعات كهذه تجنح نحو مزج مؤسساتها الاجتماعية ودينها وتدعيم المجموعة الناتجة عن طريق احترام التقاليد الدينية. وهكذا فان التقاليد تصبح في مجتمع تشكل على هذا النحو قوية كبيرة الى درجة ان الضلال الفردي او بعض حركات المقاومة الصغيرة ، لا تؤثر مطلقا في المجموعة ويمكن اهمالها الا اذا لجأت الى العنف))[٩٨].

وهو يعود في مكان اخر لكي يؤكد ان الاساس الديني للتشريع الاسلامي هو العامل الحاسم والحاكم الفصل الذي مكنه من النجاح والانتشار والديمومة ، ذلك ان الالتزام بمطالب الشريعة والسعي لتنفيذ مفرداتها يوما بيوم وساعة بساعة ، انما هو امتداد للايمان بمعطيات العقيدة نفسها ، ما دام ان العقيدة في المنظور الاسلامي ، لا يمكن ان تعبر عن نفسها الا من خلال شبكة العلاقات الحيوية والسلوكية على ارضية الواقع : ((كل نظام تشريعي يفترض سلفا ان اولئك الذين يطبق عليهم يوافقون على الاعتراف بسلطته ، وانهم مرتبطون به حتى وان حدث لهم من وقت لاخر الاقدام على مخالفة اوامره الصريحة. هذا القبول للقانون الاسلامي كان ناجما عن قبول الدين الاسلامي ونتيجة حتمية لاعتناقه. وقد اعتنق الدين الاسلامي كثير من المجتمعات كان لكل منها ماض عريق وتقاليد اجتماعية وحقوقية خاصة قديمة العهد. ان افراد هذه المجتمعات ، باعتناقهم الاسلام دينا ، كانوا يقبلون ايضا من حيث المبدأ سلطة القانون

---

(٩٦) نفسه ، ص ٣٨-٣٩.

(٩٧) نفسه ، ص ٤٠.

(٩٨) نفسه ، ص ٤٢.

الاسلامي. ومن الواضح ان التقاليد الاجتماعية والتشريعية القديمة لم يكن في الامكان الغاؤها دفعة واحدة. وقد اضطر الرؤساء الدينيون في الاسلام الى خوض معركة شاقة ليبسطوا عمليا سلطة التشريع الاسلامي على هذه الشعوب كلها. وقد ربحوا هذه المعركة الى حد كبير .. وهكذا يمكن القول ان الفقهاء نجحوا في توحيد المجتمع الاسلامي بمقدار نجاحهم في فرض القانون الاسلامي ، لان القانون كان اداة توطيد الاخلاق الاجتماعية للاسلام))[٩٩].

وثمة اخيرا ما يثير اهتمام كب وهو يتعامل مع التشريع الاسلامي ، ذلك هو ان النشاط التشريعي لم يكن مقتصرا على طوائف محددة من المعنيين ، بل ان حشودا من ((المثقفين)) اسهموا فيه ، لقد كان الجميع يعملون من اجل صياغة الحياة الاسلامية واقامة مؤسساتها بما يحقق التلاؤم بين العقيدة والواقع في شتى ابعاده وطبقاته ومعطياته .. الكل كان مسؤولا عن مجابهة المتغيرات والبحث عن الاستجابات الملائمة وتقديمها للناس من اجل اغناء حياتهم اليومية بالمزيد من المفردات التشريعية بحيث لا تتبقى هناك اية ممارسة خارج نطاق الشريعة ، او اي سلوك غير متوافق مع ايقاع العقيدة التي ينتمي اليها الجميع .. فاذا ما تذكرنا المساحة الواسعة التي منحها الفقه الاسلامي للاجماع ، ((لصوت الشعب)) كما يسميه كب ، ادركنا كيف انه ما من امة في التاريخ عنيت بالتشريع ، وحملت مسؤوليته كالامة الاسلامية في قرونها الاولى ((ان مهمة التعريف والتصنيف استغرقت خلال القرون الثلاثة الاولى ، الطاقات الفكرية لدى الامة الاسلامية الى حد لا نظير له ، اذ لم يكن المسهمون في هذا الميدان هم علماء الكلام والمحدثين والاداريين فحسب ، بل ان علماء اللغة والمؤرخين والادباء اسهموا بانصبة في هذه المجموعة من المؤلفات التشريعية وفي مناقشة القضايا التشريعية ، وقلما تغلغل الشرع في حياة أمة وفي فكرها هذا التغلغل العميق مثلما فعل في الادوار الاولى من المدنية الاسلامية))[١٠٠].

وتلك بحق شهادة قيمة ، تزداد اهميتها ، في زمن الانكار المرسوم لدور الشريعة الاسلامية في تاريخ المجتمع الاسلامي ، ذلك الانكار الذي يستهدف ما لا يقدر على انكاره مهما بذل من جهد : مواصلة السعي لتدمير اخر الارتباطات بين جماهير المسلمين وشريعتهم ، تلك المحاولة المستميتة التي بداتها السلطات الاستعمارية في القرن الماضي .. ترى هل سيقدر لها النجاح ؟

---

(٩٩) نفسه ، ص ١١٨.

(١٠٠) دراسات في حضارة الاسلام ، ص٢٦٣.

[٤]

فماذا عن ((الاخلاق)) التي تمثل الوجه الاخر لصورة الحياة الاسلامية كما يريد لها الله ورسوله ان تكون ؟ هذا اذا جاز لنا لاغراض الاستقصاء فحسب ، ان نرى للصورة وجهين ، والا فانه الوجه المتوحد الذي تلتقي فيه وتتفاعل وتتداخل كافة الانشطة والممارسات هناك حيث تكون الشريعة هي الاخلاق وحيث تصير هذه شريعة وقانونا .. ان كل شيء في الحياة الاسلامية ينبع من التزام المسلمين العقيدية ، من ايمانهم بمصداقية هذا الدين ، من اعماق يقينهم بانهم ، وهم يتحققون بالقيم الخلقية ، وياخذون الاوامر والحدود الشرعية انما ينفذون امر الله.

منذ البدء يرى كب كيف ان المبادىء والقيم الخلقية هي في اساس الدعوة الاسلامية ، تماما كما انها في اساس كافة الاديان السماوية التي استهدفت اعادة صياغة الحياة وفق سلم للقيم الخلقية ينسجم ومكانة الانسان في الارض وارتباطه الاكيد بالسماء ، لقد ((كانت التعاليم الاجتماعية التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) في اساسها ، اعادة لاحقاق المبادىء الاخلاقية التي تشترك فيها ديانات التوحيد ، فازداد ترسيخ معنى الاخوة بين جميع افراد الجماعة الاسلامية ، وانهم سواسية من حيث القيمة الشخصية الفطرية دون نظر الى ما في مكانتهم الدنيوية ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف وتعمقت جميع العلائق والواجبات المتبادلة التي تستتبعها هذه المبادىء ، وقد تم ترسيخ ذلك كله وتعميقه حين وضعه الاسلام على اساس من الولاء الخفي والخضوع العلني لاله واحد .. وكانت لتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) نتائج اجتماعية ملموسة تحددت صيغتها كما هي الحال في جميع الحركات الدينية بما تركته من اثار في البيئة التاريخية الواقعية))[١٠١].

ان كب يضع يده ها هنا على واحدة من اهم ميزات الاخلاق الاسلامية بل اهمها على الاطلاق ، تلك هي ارتباطها المباشر الصميم بالله ... بالتعاليم التي حملها الوحي عن الله سبحانه ((بالولاء الخفي والخضوع العلني لإله واحد)). فهي – اذن – على خلاف الاخلاق الوضعية ذات الطابع النسبي ، تستمد الزامها من اعماق الانسان المؤمن ، من ايمانه بانه عليه ان يتشربها في مفردات سلوكه اذا اراد ان يكون مسلما بحق. وهكذا فانه بقدر كبير الرضا والطواعية ، وبقدر كبير – كذلك – من الرقابة الذاتية ويقظة الضمير تجد الاخلاق الاسلامية طريقها بيسر وسهولة الى ارضية الواقع فتشكل العلاقات كافة في مجتمع اسلم منذ البدء امره لله، وخضع لكلمته ! بينما في التجارب الوضعية يكون تدخل السلطة امرا واجبا في معظم الاحيان لحماية القيم ولإرغام الناس على تنفيذها واحترامها ، بعد اذ لم يعد اي دور للالتزام او الوازع

---

(١٠١) نفسه ، ص ٦.

الديني المنبعث من الداخل وثمة – ايضا – ما يتمخض عن اختلاف المصدرين في القيم الاسلامية والوضعية : انها في الحالة الاولى تتميز بالديمومة والثبات وتصبح بالتالي ميزانا ثابتا لحراسة قيم الحق والعدل وسائر القيم الخلقية مهما تغيرت الظروف والاحوال ، بينما نجدها في الحالة الثانية تتلبس بالنسبية والتغير فلا يجد الانسان ازاءها قواعد ثابتة او جزرا امنة او موازين ابدية لحراسة قيمه المرتبطة اساسا بانسانيته ، وكف العبث بها والعدوان عليها.

وما لنا ألاّ نرجع الى كب ثانية لكي نرى مرة اخرى ما يقوله بصدد هذه المسالة ذات الاهمية البالغة في الموقف الاخلاقي : ((من الواجب – يقول – ان لا يساء فهم مصطلح (المجتمع الاخلاقي). فالاخلاق فيه ما تزال اخلاقا آتية عن طريق الوحي ، وليست نتاج تاملات عقلية او تجربة اجتماعية. وهي تستمد قوتها على التوجيه وسمات صحتها ، من الايمان بانها تطابق ارادة الله القادر المهيمن ، والدافع الكامن وراءها .. هو دافع من الورع الديني ، وعقوبة من يخل بها أخروية. ولم يتداخل اثر الضغط الاجتماعي الا تدريجا وعلى نحو متقطع ، وعندما حان تدخله قوى تلك الاخلاق ضد من يتراخى في الاخذ بها أو ضد من يشذ عنها))[١٠٢].

وهو يعود في كتابه الآخر (الاتجاهات الحديثة في الاسلام) لكي يؤكد هذه المسألة ، ويلقي مزيدا من الضوء على مايفعله الارتباط بين الدين والاخلاق من توازن واستقرار في الحياة الفردية والاجتماعية على السواء ((بما ان الاخلاق والنظم الاجتماعية والحقوق هي ، مبدئيا اشكال من النظام الديني للاسلام ، لذلك هي مرتبطة بالسنة الدينية اكثر مما هي عليه في حضارتنا الغربية))[١٠٣]. وهذه مسألة معروفة باعتبار ان مصادر الحضارة الغربية ، والمساحات الاوسع في نسيجها الراهن وضعية صرفة. وهذا يعني من جهة ، ما سبق وان ذكرنا، بصدد ثبات القيم الخلقية وديمومتها في التجربة الاسلامية ، وقلقها ونسبيتها وتقطعها في التجربة الغربية .. كما انه يعني من جهة اخرى ، التزامها بالانسان في الحالة الاولى ، بغض النظر عن المصالح القريبة والاهواء المتحيزة ، بينما هي في الحالة الثانية تتميز بنفعيتها وارتطامها ، احيانا، بانسانية الانسان ، بمطالبه العليا في الحق والعدل والكرامة التي يتحتم ان تكون بمنأى عن المصالح والمنافع والاهواء ((ان الاسلام او بالاحرى الاخلاق الاسلامية – يؤكد كب – ترفض كل نوع من انواع النفعية))[١٠٤] ، ويمضي كب الى القول بأن ((اي مجتمع لا يمكنه ان ينعم بالاستقرار الا اذا كان مشبعا بالاخلاق المنبثقة من اعتقاد ديني سليم. والأخلاق لا يمكن

---

(١٠٢) نفسه ، ص ٢٦١.

(١٠٣) الاتجاهات الحديثة ، ص١١٥.

(١٠٤) نفسه ، ص ٨٠-٨١.

ان تكون مستقرة الا اذا بقي الاعتقاد الديني متحررا من التأثيرات المخالفة للسنة. هكذا لا يعتبر الحفاظ على القواعد الاخلاقية اهم من مرونة المجتمع وامكانية تكيفه فحسب ، وانما بهذا الشرط وحده يستطيع المجتمع ان يتطور في الاتجاه الصحيح اي نحو درجة اعلى من الاندماج الاجتماعي ، وحياة فردية اكثر توازنا. وبكلمة أخرى ، ان شكل المجتمع الذي تبنيه جماعة ما لنفسها ، يتعلق تعلقا اساسيا بما تعتقده كهدف للكون ومكانة النفس البشرية في هذا الكون. هذا المبدأ معروف معرفة كافية ، والمنابر المسيحية تكرره اسبوعا بعد اسبوع. ولعل الاسلام الدين الوحيد الذي وضع نصب عينيه وباستمرار بناء مجتمع بالاستناد الى هذا المبدأ. وكان القانون الاداة الاساسية لهذا الغرض. وعلى (القانون) حسب تعريف اسلامي شهير هو معرفة الحقوق والواجبات التي تسمح للانسان بالتزام مسلك مستقيم في حياته وباعداد نفسه للعالم المقبل))[١٠٥].

وهكذا تتوحد في الحياة الاسلامية كافة الثنائيات : الاخلاق والقانون ، المسلك المستقيم في هذه الحياة والاستعداد للعالم المقبل ، تتوحد متوخية اكثر الفرص اتساعا امام الانسان والجماعة البشرية لكي تتحقق بحياة متوازنة فاعلة سعيدة ، وتتهيأ في الوقت نفسه للحياة الاخرى التي هي الهدف الاسمى. ومن اجل ذلك تميزت الاخلاق الاسلامية بالشمول ، وسعت الى تغطية كافة الممارسات والانشطة ، تحفيزها وحراستها في الوقت نفسه ، لانه في الحياة الاسلامية ليس ثمة ما لا علاقة له بتكوين هذه الحياة وصيرورتها ((فخلافا للحقوق التي ورثتها المسيحية عن روما ، تتطلع الحقوق الاسلامية الى العلاقات بكل انواعها ، مع الله ومع البشر في نفس الوقت ، بما في ذلك امور الواجبات الدينية واعطاء الصدقات ، والمؤسسات الاهلية والمدنية ، والاقتصادية والسياسية. والاسلام مرتبط في اصله وطبيعته وهدفه بالاخلاق الدينية ارتباطا وثيقا))[١٠٦].

وهو يعود كرة ثالثة لكي يؤكد ان المنظور الديني هو وحده القادر على منح الانسان مقاييس للخير والشر صحيحة صحة مطلقة ، وهي ليس بالامر ((الذي يتحدد عقلانيا)) ، ولقد راينا كيف كانت العقلية الاسلامية تطرح كل هذه المفاهيم الفكرية والعامة التي يمكن ان تستنتج منها مقاييس مطلقة استنتاجا نظريا. ان الوحي هو الوسيلة الوحيدة التي عرفت المقاييس لان الله وحده يعرف ما هو خير مطلق او شر مطلق ، وانهما كذلك بفضل تقريره ..))[١٠٧]. وتلك هي الكلمة الاخيرة او جوهر ما يمكن ان يقال بصدد القيم الاخلاقية. فالله وحده (جل وعلا) ،

---

(١٠٥) نفسه ، ص ١١٦-١١٧.

(١٠٦) نفسه ، ص ١١٧.

(١٠٧) نفسه ، ص ١١٧-١١٨.

يعرف ما هو خير مطلق او شر مطلق ، وهو وحده سبحانه يقرر ذلك ، ومن خلال تلك المعرفة الالهية الكاملة ، من خلال التقرير الإلهي الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنبثق سائر القيم الخلقية التي طلب من الانسان الالتزام بها ، وتتحدد قبالتها كافة نقائضها التي امر الانسان باجتنابها ، هذا الانبثاق الذي يجيء من فوق ، من علم شامل ، وارادة لا تميل ولا تتحيز ولا تهوى .. هو الذي يجعل القيم الاخلاقية الدينية عموما ، والاسلامية على وجه الخصوص ، هي اكثر القيم في تاريخ الانسان تلاؤما مع الانسان ، وقدرة على حمايته من العدوان والانتقاص والضلال.

وات :

الدين والحياة ... والامة

[١]

يكاد معظمنا يعرف جيدا ما قاله المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في كتابيه الشهيرين (محمد في مكة) و (محمد في المدينة)[١٠٨]. اما هنا فنزيد ان نؤشر على بعض وجهات نظره بصدد الاسلام ، مستمدة من مؤلفيه السابقين ، ومن مؤلفات اخرى من مثل (تأثير الاسلام على اوروبا في العصور الوسطى)[١٠٩] و(الاسلام والجماعة المتحدة).

[٢]

في معطيات وات عن الاسلام نلمح خطين متميزين ، من بين خطوط عديدة اخرى ، احدهما يؤكد على الارتباط الوثيق بين الدين والسياسة (بما فيها الانشطة الجماعية الاخرى الاقتصادية والاجتماعية .. الى آخره) ، وثانيهما يتحدث عن مفهوم ((الامة)) المتفرد الذي صنعه الاسلام ، وعن طبيعة الارتباط بين الفرد والجماعة في اطار الحياة الاسلامية المشتركة ، فلنبدأ بالمسألة الاولى.

ان وات ، من اجل التوصل الى استنتاجات اكثر دقة واقرب الى العلم الصحيح ، يحذر من خطأ منهجي يقوم على اعتماد المنظور الغربي في التعامل مع الاسلام ، وهو موقف جد ضروري خاصة لمن يريد ان يكشف عن طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة في دائرة هذا الدين ((فاذا اردنا ان ندرك الاهمية النسبية للعوامل الدينية وغير الدينية (في الاسلام) يجب علينا التخلص من الفكرة الغربية التي تفصل بين السياسة والدين ، ولا تنتظر ان نرى اسلاما عاطفيا من النوع الذي وصفه وليم جيمس))![١١٠].

ليس وليم جيمس وحشود الفلاسفة المثاليين فحسب ، ولكن معظم رجالات النصرانية ومفكريها ، اكدوا الموقف الاحادي نفسه ، فإما الدين وإما السياسة .. واذا كان الدين يعنى بروح

---

(١٠٨) عربهما شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، صيدا–بيروت (بدون تاريخ).

(١٠٩) ترجمة : د.عادل نجم عبو ، دار الكتب في جامعة الموصل–١٩٨٢م.

(١١٠) محمد في المدينة ، ص٢٢٠، وانظر ، ص٢٢٣ من المرجع نفسه.

الانسان وعواطفه ويومه الاخر ، فانه يتحتم عليه ان يترك الاهتمام بما لا يعنيه .. ان يحكم بالطلاق الابدي الذي لا رجعة فيه على السياسة !

اما في الاسلام فان الامر يختلف ، ليس فقط بعد ان قطع هذا الدين خطوات واسعة صوب اقامة دولته في المدينة (المنورة) حيث وجد نفسه ملزما بالتعامل مع السياسة ! ولكن منذ البدء ، حيث لم يكن هناك دولة ولا مؤسسة ، كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتاكيده على الجانب الديني ، يدرك الاساس العقيدي ، يدرك تمام الادراك انه يعني – بالضرورة – التمهيد لقلب وتغيير كافة الموازين والقيم والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وان المسالة مسالة وقت فحسب.

ان الغربيين – كما يؤكد وات – ((يميلون الى الاعتقاد بان المسلمين يخلطون بين الدين والسياسة بصورة غير مستحبة .. وربما كان الاصح القول ان المسلمين يدركون بصورة اوضح من الغربيين الاساس الديني للمسائل السياسية ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يهتم بالاحوال الاجتماعية والسياسية والدينية في مكة ، وكان يعتبر الناحية الدينية انها هي الرئيسة. ومع ذلك فان قراراته الدينية ، لان نتائجها كانت حيوية ، كانت تتضمن نواحي سياسية))[١١١].

وذلك هو الفهم الصائب الدقيق لمسالة العلاقة الاكيدة بين العقيدة ذات الطابع الانقلابي الشمولي ، وبين التغيير الذي يتمخض عنها بالضرورة على سطح العالم .. في مدى المنظور .. اي من خلال النظم والاعراف والمؤسسات والعادات والمعاملات والاخلاق والتقاليد .. من خلال السياسة ، والاقتصاد والاجتماع .. الى اخره . فلو لم يحدث هذا التقابل في واقع الحياة ، لم يكن هذا الذي جاء من السماء عقيدة شمولية انقلابية ، ولم يقدر – ابتداء – على ان يزحزح اوثان مكة عن مواقعها لانها ترتبط – اساسا – بالسلطة السياسية والاقتصادية وبالوضع الاجتماعي ، وترك هذه على وضعها يعني – بالضرورة – ترك الوثنية في محلها لكي تنافس وحدانية الله التي هي هدف هذا الدين الجديد ونبضه ومنطلقه ومسوغ ظهوره !

ومرة اخرى .. فان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، كما يستنتج وات ، ((كان يعتبر الناحية الدينية اساسية ، ولهذا حصر اهتمامه بهذه الناحية وهذا ما حدد اخلاق الامة الجديدة. فقد اهتم المسلمون الاوائل بعقائدهم وطقوسهم الدينية اهتماما شديدا .. لا سيما حين اشتد النضال مع المعارضين ، واصبحت نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) موضوع الخلاف الرئيسي ، فقد اتجهت افكارهم أولاً الى الدين ، ولهذا دعي الناس الى الاسلام على اساس ديني، ولا يكاد يكون للافكار الواعية الاقتصادية او السياسية اي دور في اعتناق الاسلام. نقول هذا ونحن نعتقد بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) والمتنورين من اتباعه قد ادركوا الاهمية

---

(١١١) محمد في مكة ، ص١٧٧.

الاجتماعية والسياسية لرسالته وان مثل هذه الاراء كان لها اثر بالنسبة اليهم في ادارة شؤون المسلمين))[١١٢].

ومن المعروف لدى الدارسين المسلمين ، بل من البديهي ، ان المرحلة المكية التي تمثل الحلقة الاولى للدعوة الاسلامية ، كان الاهتمام ينصب فيها على البناء العقيدي للانسان المسلم، على منحه عقيدة شاملة تعطيه الجواب على كل ما يهمه ويؤرقه بصدد الوجود والمصير ، وتجعله في الوقت نفسه مهيأ تماما : عقليا ونفسيا ووجدانيا واجتماعيا لتقبل كل ما سيجيء فيما بعد من معطيات تشريعية وقانونية وسياسية واقتصادية واجتماعية واخلاقية ... الى اخره ، وتمثلها دون اي قدر من الرفض او التردد او الحيرة ، وتحويلها – من ثم – الى واقع حياتي منظور ، معيش في المؤسسة ، في البيت ، في الشارع ، في المسجد .. وفي طيات النفس المسلمة التي تتعامل مع هذا كله.

فيما بعد ، في العصر المدني ، وجد المسلمون انفسهم ازاء هذه المرحلة ، فامتحن استعدادهم العقيدي ذاك ، وكان الجواب دولة قوية تظهر الى الوجود فتغير موازين القوى ، وتعيد صياغة الخرائط ليس في نطاق جزيرة العرب وحدها بل في العالم القديم كله .. هذه الدولة التي كانت تتعامل بالضرورة مع كافة المفردات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمنظورها العقيدي الجديد الاصيل.

وهكذا كان محمد (صلى الله عليه وسلم) والمتنورين من اصحابه (رضوان الله عليهم) يدركون منذ البدء الاهمية الاجتماعية والسياسية لرسالته ، كما يلحظ وات ، ولكنهم يعرفون انها لا يمكن ان تؤتي اكلها الا بعد التحقق بالقاعدة العقيدية التي ترسم السبل وتهيء الارضية وتعد بالعطاء .. وهكذا ايضا يجد وات كيف نجح هؤلاء ، فيما بعد ، في ممارساتهم الادارية : سياسية كانت ام اقتصادية .. فان حركة لايكترث اتباعها بأهمية هذه الممارسات ، ولا يعترفون بها ، لا يمكنهم بحال ان يمسكوا بزمامها وهي تلقي اعنتها اليهم على حين غفلة !

يواصل وات تأكيده على الفكرة ذاتها ، على مستوى الموضوع ، وخطيئة الاعتماد على المنظور الغربي ، منهجيا ، فيعلن بأن : ((القول الحق هو ان الافكار الدينية يجب ان تكون ضرورية لتجعل الناس يدركون الوضع العام الذي يعيشون فيه ، والاهداف التي يسعون وراءها)) ، الا ان هذا لا يتعارض البتة مع حقيقة ان يكون ((للدين وللتفكير الديني مظاهره السياسية والاجتماعية والاقتصادية. هذا هو الحال في الشرق الادنى وهو مع ذلك ظاهرة غريبة في نظر الغربيين. ولكن لا يجب ان يعمينا ذلك عن ادراك ان الجانب الديني في الحركة التي تزعمها محمد (صلى الله عليه وسلم) كان دائما وثيق الصلة بالجوانب الاخرى. ولما كانت هذه

---

(١١٢) نفسه ، ص ١٦٤-١٦٥.

الديانة الجديدة تتفق مع حاجات المجتمعات الحضرية في غربي شبه الجزيرة ، فقد حملت تغييرا كبيرا في المجتمع .. وكان مفتاح هذا التغير مبدأ جديدا لتنظيم المجتمع))[١١٣].

وما يلبث وات ان يخلص الى القول الفصل في هذا المجال : ((لقد جاء الاسلام بنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي (السلام الاسلامي) ، وكان الدين جزء لا ينفصم من هذا النظام، ويمكن تسميته بالجانب الفكري من النظام ، وكان الامن والسلامة اللذان يؤثرهما هذا النظام هما امن الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) .. حتى اذا ما بدت علامات التحلل على الامبراطورية البيزنطية والفارسية ، وشعر الناس بالحاجة الى شيء متين يتمسكون به ، قدمت الامة الاسلامية لهم هذا الاستقرار المطلوب))[١١٤].

[٣]

فما هو المنظور الاسلامي لمفهوم (الامة) ؟ وما الذي فعله الاسلام لكي يجعل منها حقيقة واقعة مارست دورها الخطير ذاك في تغيير العالم واعادة صياغته بما ينسجم وحاجة الانسان الى الامن والاستقرار ؟

ان فكرة (الامة) التي جاء بها الاسلام هي كما يعرفها وات : ((الفكرة البديعة التي لم يسبق اليها ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى (الوحدة) في (أمة) واحدة تختفي فيها حواجز الاجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة. وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين اتباعه فاشتملت امته على اقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الاقطار وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الامة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها ، بل كان المنشقون عنها يعتقدون انهم اقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفي الغرباء عنها))[١١٥].

فها هنا يضع وات يده على الملامح الاساسية للفكرة ، ونقاط الارتكاز فيها : الينبوع الذي يدفع المسلمين بشكل دائم الى الوحدة .. زوال الحواجز بكافة صيغها وانماطها .. تفرد هذا الدين بخلق وحدة تنصهر فيها الاقوام وتستجيب لتحديات الجغرافيا والتضارب في المصالح .. ثم – وهذا هو المهم – ديمومة هذه الوحدة وعدم تعرضها لإنشقاق خطير يؤول بها الى التفتت والتشرذم .. بل غياب جرثومة الانشقاق في تكوينها أساساً.

---

(١١٣) نفسه ، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(١١٤) محمد في المدينة ، ص٢٢١.

(١١٥) الاسلام والجماعة المتحدة ، عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص١٨٣ (الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني ، بيروت-١٩٦٦م).

ان فكرة (الامة) صنعت وحدة تعلو على الزمن والنكان ، لانها مشدودة في كل زمن ومكان الى المركز المحوري الثابت الذي يحميها ويزيدها تماسكا بمواجهة التفكك والعدوان ((ان فكرة الامة هي التي حددت للبلاد الاسلامية في كل عصر (قبلة) تلوذ بها وتهتدي بهداها ، وهي التي بثت في صدور المسلمين انهم (امة) واحدة امام الغزوات الاجنبية))[١١٦].

لقد استطاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يرسي قواعد هذه الوحدة وان يبني امة في قلب الارض التي لم تشهد عبر قرون متطاولة غير التمزق والتشرذم في اطارات العصبية، والعشائرية ، والقبلية .. وفي خطبة الوداع ، حيث وضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) اللمسات الاخيرة لدعوته ، واكد قيمها الاساسية ((اراد ان يعلم الجميع ان الاسلام ليس فقط تحالف قبائل وبطون موجودة ، بل هو وحدة جديدة ، وبهذا يكون الانتماء للاسلام قطع كل علاقة بالماضي))[١١٧].

ويلاحظ وات كيف ان شعيرة جماعية كالحج ، ومركزا يمنح طابعا مقدسا كالكعبة ، انما اريد بهما ، تعزيز فكرة (الامة) وارفادها بالدفق الحيوي وعناصر الشد باستمرار .. فالحج ((يحصر في نقطة واحدة في المكان والزمان ، الشكر الذي يوجهه العالم الاسلامي باجمعه الى عظمة الله))[١١٨]. وفيما ((يتعلق بالعقيدة التي تضفي على بعض الاماكن طابعا مقدسا ، فقد قبل الاسلام هذه العقيدة لانه وجد فيها فائدة اجتماعية تكمن في العادات والنظريات المتعلقة بهذه العقيدة ، كأن يتيح المكان المقدس الفرصة للعرب لاجتماع هادىء يدركون فيه وحدتهم وتضامنهم . ويبدو ان هذين السببين ، وهما تاصل العقائد العميقة والفائدة الاجتماعية يفسران لنا لماذا احتفظ الاسلام ببعض الافكار والعقائد القديمة))[١١٩].

بل ان وات يذهب في تفسيره لموقف الاسلام التحريري ازاء ظاهرة (الرق) ، وتضييق دائرتها ، وتشديد النكير عليها ، الى ان فكرة (الامة) تشكل واحدا من اهم اسبابها ، اذ اصبح ((يستحيل على المسلم ان يسترق مسلما اخر ، وكان ذلك نتيجة لمفهوم الأمة. ويتحدث (الحديث) عن ذلك بصراحة ، كما كان يدعم هذا النقص الفعلي في الرق في شبه الجزيرة العربية، بفضل رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) والتي كان يعبر عنها بصراحة ، وهي اخوة

---

(١١٦) نفسه ، ص١٨٣.

(١١٧) محمد في المدينة ، ص٤٠٦.

(١١٨) نفسه ، ص٤٦٩.

(١١٩) نفسه ، ص٤٧٧-٤٨٧.

جميع المسلمين .. لقد كان لفكرة اخوة البشر تاثير قوي على الاسلام وساعدت على تخفيف الرق وازالته))[١٢٠].

ووات اذ يشير الى ((تجنب الاسلام النزعة الفردية المغالية)) ، واحلاله ((محل الانتساب للقبيلة الانتساب الى الامة الاسلامية))[١٢١] ، لا ينسى – لحظة – ان التاكيد على مفهوم الامة لا يعني ابدا التفريط بمفهوم الفرد والفردانية الذي اكد عليه الاسلام بالقوة نفسها.. انما هي في نهاية الامر معادلة التكافؤ الباهرة لثنائية الفرد والجماعة ، في صيغة يتحقق بها الطرفان كما لو كان الامر امر معادلة مركبة ، موضوعة ارقامها بحساب دقيق يؤول الى تساوي القيمتين ، بل امتزاجهما ، دون ان يفقد اي منهما تميزه وتفرده. ومن اجل فهم هذه المسألة الاساسية في معطيات الاسلام ((يجدر بنا – كما يؤكد وات – ان نلاحظ في تفحصنا لمؤسسات الاسلام الدينية الروح الفردية التي تتصاعد منها. اذ ان الصلاة ، في نظر المسلم ، هي شيء يخص الفرد الذي يقوم بها. فاذا اجتمع نفر من المؤمنين كان من الطبيعي ان يؤدوا الصلاة جماعة ، واذا صلى شخص بمفرده فانه يؤدي بذلك واجباته نحو الخالق كما لو كان في جماعة من المؤمنين. وهكذا يمكن تطبيق كل قوانين العبادة الاسلامية حتى ولو لم يوجد سوى مسلم واحد في العالم. وهذا نتيجة للعقيدة القائلة بأن الله (سبحانه وتعالى) يحاسب في اليوم الاخير كل انسان بمفرده. ويوجد بالرغم من ذلك ، في الدين الاسلامي ، نزعة متممة تظهر وحدة الامة الاسلامية وتدفع المؤمنين الى تنظيم احتفالات تطبع فكرة الوحدة في نفوس المؤمنين. وربما كان بامكاننا القول باختصار ، ان الاسلام امة مؤلفة من افراد ذوي افكار فردية، او انه اخوة يجمع بين اعضائها واجبات مشتركة))[١٢٢].

بل ان وات يرى ان المثال المحرك Dynamic Image الذي تزود به عقيدة الاسلام ابناء هذا الدين ، في كل عصر ، فيحفزهم على ((الحركة والتقدم)) ويهون عليهم ((مشقة الطريق)) ، انما يستمد قوته من قوة العقيدة الاسلامية التي ((منحت الفرد مقياسا للحياة ارفع واسلم من مقياس العصبية والمنعة ، وهو مقياس الضمير المستقل عن اصحاب السيادة ، وانها – مع هذا الاستقلال الفردي – لم تترك الجماعة بغير وجهة تعتمد عليها ، فابتدعت لها فكرة (الامة) وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحدود الوراثة ، فأصبح معنى (الامة) قابلا للتطور مع الحوادث والظروف ..))[١٢٣].

---

(١٢٠) نفسه ، ص٤٥١-٤٥٢.

(١٢١) نفسه ، ص٤٦١.

(١٢٢) نفسه ، ص٤٧١.

(١٢٣) الاسلام والجماعة المتحدة ، عن المرجع السابق ، ص١٨٤.

لوبون :

انتشار الاسلام ومعاملة المغلوبين

[١]

من منا لا يعرف غوستاف لوبون : الطبيب والمؤرخ الفرنسي الشهير ، الذي عني بدراسة الحضارات الشرقية والاسلامية على وجه الخصوص ؟ ومن منا لم يقرأ كتابه المعروف (حضارة العرب)[١٢٤]؟

ان معظم صفحات هذا الكتاب تنصب بالنقد والتحليل والتقييم على حضارة الاسلام .. وقد نقف عندها في غير هذا المكان ، الا اننا هنا سنتابع بعض شهاداته بصدد ظاهرة انتشار الاسلام ومعاملته لابناء الاديان والمذاهب الاخرى.

طبعا ، فاننا لن نجد هنا المادة الغزيرة نفسها التي نجدها في كتاب ككتاب سير توماس ارنولد (الدعوة الى الاسلام) فهناك ينصب الكتاب كله على هذا الموضوع ، اما هنا فان لوبون يتحدث عن المعطيات الحضارية ولكنه لايبخل بالتأشير على هذه المسألة او تلك مما يتعلق بالانتشار والمعاملة.

[٢]

يؤكد لوبون في كتابه واحدة من بديهيات الانتشار الاسلامي : حرية الاختيار وتجاوز القسر المذهبي ، وهو مثل توماس ارنولد ، يغذي تحليله بالعديد من شواهد التاريخ المنتشرة في الزمن والمكان ((ان القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن – يقول لوبون – فقد ترك العرب المغلوبين احرارا في اديانهم ، فاذا حدث ان اعتنق بعض الاقوام النصرانية الاسلام ، واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين مالم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل))[١٢٥].

ان سلوك الفاتحين ، واغراء الاسلام نفسه (الامر الذي سنتحدث عنه فيما بعد) يكمنان وراء انتماء المغلوبين لهذا الدين ، وليس ثمة وزن لما يقال وراء ذلك من قسر او اكراه ((فالاسلام – اذن – لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته

---

(١٢٤) ترجمة : عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة–١٩٥٦م.

(١٢٥) حضارة العرب ، ص١٢٧–١٢٨.

الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند ، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ، مازاد معه عدد المسلمين (زمن تأليف الكتاب في القرن الماضي) على خمسين مليون نفس فيها. ويزيد عدد مسلمي الهند يوما فيوما ، مع ان الانكليز الذين هم سادة الهند (يومها) يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعا الى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى))[١٢٦].

فالدعوة السلمية المدعمة بقوة الاسلام نفسه وبالقدوة الحسنة للفاتحين تلك التي يتوحد فيها المذهب بالسلوك ، هي المسالك او القنوات التي قادت ملايين الناس الى هذا الدين واتاحت له ذلك الانتشار الباهر. وثمة واقعتان تاريخيتان يوردهما لوبون في النص السابق يدحض بهما ، الى جانب العوامل آنفة الذكر ، مقولة القائلين بانتشار الاسلام بحد السيف .. ففي الهند انتشر الاسلام دون ان يكون العرب سوى ((عابري سبيل)) بينما عجزت السلطة الاستعمارية التي تملك وسائل القوة والتسلط عن كسب عدد يذكر الى النصرانية رغم محاولاتها المستميتة .. من جهة اخرى مالذي يدفع اقواما وجماعات غلبت المسلمين انفسهم في عقر ديارهم ، كالاتراك والمغول ، الى الانتماء لدين المغلوبين ؟ انها حالة معاكسة لا اثر فيها مطلقا للقسر العقيدي ، فهي اذن حرية الاختيار التي قادت تلك الاقوام والجماعات الى ساحة هذا الدين.

هناك وقائع تاريخية اخرى ينبه اليها لوبون فان ((ما عجز الاغارقة والفرس والرومان عنه في الشرق ، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير اكراه. ومن ذلك ان مصر ، التي كان يلوح انها اصعب اقطار العالم اذعانا للمؤثرات الاجنبية ، نسيت في اقل من قرن واحد مر على افتتاح عمرو بن العاص لها ، ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة الآف سنة ، معتنقة دينا جديدا ولغة جديدة اعتناقا متينا دام بعد تواري الامة التي حملتها عليه .. وما كان من تهافت المصريين على نبذ النصرانية ودخولهم في الاسلام يثبت درجة ضعف تأثير النصرانية فيهم. وما وفق العرب له في مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كافريقية وسورية وفارس .. الخ وبلغ نفوذهم بلاد الهند والصين التي لم يزوروها الاتجارا))[١٢٧].

حدث هذا ايضا في اماكن اخرى من العالم ((فالمسلم اينما مر ترك خلفه دينه ، وبلغ عدد اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة، لا فاتحين ، كبعض أجزاء الصين وافريقية الوسطى وروسية .. ولم يسمع ان الضرورة قضت بارسال جيوش مع هؤلاء التجار المبشرين لمساعدتهم. ويتسع نطاق الاسلام بعد ان يقيمه

---

(١٢٦) نفسه ، ص١٢٨.

(١٢٧) نفسه ، ص٥٦٣-٥٦٤، وانظر ، ص٢٠٣.

هؤلاء في اي نطاق كان ، ولم تستأصل شأفة الاسلام بعد ان رسخ في روسية منذ عدة قرون .. والان يمدن الاسلام اقوام افريقية حيث يكونون ، مظهرا عمله الطيب في كل مكان))[١٢٨].

يمضي لوبون لكي يؤكد حقيقة الانتشار الحر للاسلام ، حيث تسقط معها ابتداء خرافة ((حد السيف)) تلك : ((لقد عرف الخلفاء الاوائل ((رضي الله عنهم)) كيف يحجمون عن حمل احد بالقوة على ترك دينه ، وعرفوا كيف يبتعدون عن اعمال السيف فيمن لم يسلم. واعلنوا في كل مكان انهم يحترمون عقائد الشعوب وعرفها وعاداتها ، مكتفين بأخذهم ، في مقابل حمايتها ، جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه الى سادتها السابقين من الضرائب))[١٢٩].

ونحن نعرف الشعار الذي كان يرفعه الفاتحون في كل زمن او مكان دون اي تغيير او تبديل ((الاسلام او القتال او الجزية)) .. فها هنا في العرض الاخير يمكن لاي فرد ان يظل على دينه ، مواطنا حرا في دولة يحكمها الاسلام ، فليس ثمة ما يرغمه – وقد اعلن طاعته للدولة لا لعقيدتها عن طريق دفعه الجزية – ان يبدل دين آبائه وأجداده.

يخلص لوبون الى القول بأن ((ما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الاسباب السريعة في اتساع فتوحهم وفي سهولة اعتناق كثير من الامم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم))[١٣٠].

ومعروف ان قبول لغة المنتصر والتشبث بها حتى بعد ذهابه ، يعني قبول حضارته والعقيدة التي صاغت هذه الحضارة.

[٣]

لقد كان تحرير الانسان من الطاغوت واحدا من اهم اهداف الفتح الاسلامي فكيف يناقض الفاتحون انفسهم ويرغمون الناس على الانتماء للعقيدة التي حملوها ؟

لوبون يقص علينا من الوقائع والمعطيات ما يؤكد جدية هذا الهدف الاسلامي الذي حملته حركة الفتوحات ، وما يعززه ويوثقه فلا يتبقى معه اي شك او غموض ((فلم يلبث الاسلام ان من على جميع الشعوب التي خضعت لسلطانه .. فمنح تلك الشعوب مصالح

---

(١٢٨) نفسه ، ص٦١٦-٦١٧.

(١٢٩) نفسه ، ص١٣٤.

(١٣٠) نفسه ، ص٦٠٥.

مشتركة ، وآمالا مشتركة ، موجها بذلك جهودها نحو غرض واحد مع انها كانت ذات مصالح مختلفة قبل ذلك))[١٣١].

ليس هذا فحسب ، فلقد عومل المغلوبون كما لم يعامل مغلوب في التاريخ من قبل او من بعد : احترم المسلمون انتماءهم الديني ، وحموه من اي عدوان بل اعانوهم عليه : ((لقد كان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي ، وترك العرب الناس احرارا في امور دينهم واظلوا أساقفة الروم ومطارنة اللاتين (في المشرق) بحمايتهم ، فنال هؤلاء ما لم يعرفونه سابقا من الدعة والطمأنينة))[١٣٢].

وهو يقف بعض الوقت منبهرا ازاء سلوك الخليفة المنتصر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في مدينة القدس ويشير كيف ان هذا السلوك ((يثبت لنا مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الامم المغلوبة ، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة. فلم يرد عمر ان يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من اصحابه، وطلب من البطرك صفرونيوس ان يرافقه في زيارته لجميع الاماكن المقدسة ، واعطى الاهلين الامان وقطع لهم عهدا باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم. ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر اقل رفقا من ذلك ، فقد عرض على المصريين حرية دينية عامة وعدلا مطلقا واحتراما للاموال وجزية سنوية ثابتة ، بدلا من ضرائب قياصرة الروم الباهظة ، فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط .. وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها ، فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الامرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى))[١٣٣].

وفي اسبانيا تلقى السكان الهبة الكريمة نفسها : احسنت معاملتهم ، وتركت لهم ((اموالهم وكنائسهم وقوانينهم ، والمقاضاة الى قضاة منهم ، ولم يفرض عليهم سوى جزية سنوية .. فرضي سكان اسبانيا بذلك طائعين وخضعوا للعرب من غير مقاومة))[١٣٤]. ولقد كان باب المناصب هناك ((مفتوحا للنصارى ، وكان هؤلاء يستخدمون في الجيش غالبا. ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل .. واسلم كثير من النصارى ولكنهم لم يسلموا طمعا في كبير شيء ، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب

---

(١٣١) نفسه ، ص١٣٣.

(١٣٢) نفسه ، ص١٥٢.

(١٣٣) نفسه ، ص١٣٥، وانظر ، ص١٥١.

(١٣٤) نفسه ، ص٢٦٦-٢٦٧.

الدولة. وكانت اسبانيا العربية بلد اوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها فصار عددهم فيه كثيرا جدا))[١٣٥].

وفي صقلية ((ترك للنصارى كل مالا يمس النظام العام فكان لهم قوانينهم المدنية والدينية ، وحكام منهم للفصل في خصوماتهم وجباية الجزية السنوية التي لم تكن تؤخذ من رجال الدين والنساء والاولاد))[١٣٦].

لقد كان من سياسة الفاتحين الثابتة : ((ان يكونوا على وئام مع الاهلين المغلوبين ، وان يحترموا دينهم وشرائعهم ، وان يكتفوا بأخذ جزية طفيفة منهم وذلك خلافا لعادة جميع الفاتحين في زمانهم ..))[١٣٧].

كما انهم ((بالغوا في احترام حق التملك .. ومن ذلك ان الاراضي التي اخذت من المغلوبين بالفتح اعيدت اليهم على ان يؤدوا خراجا قلما يزيد على خمس محصولاتها))[١٣٨].

وهو يقارن بين اخلاق الفاتحين وغيرهم من الامم والجماعات فيراها ((ارقى كثيرا من اخلاق امم الارض قاطبة ، ولا سيما الامم النصرانية ، وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الامم المغلوبة ، ووفاؤهم بعهودهم ونبل طبائعهم مما يستوقف النظر ويناقض سلوك الامم الاخرى ولا سيما الامم الاوروبية ايام الحروب الصليبية))[١٣٩]. وفي مكان اخر يؤكد بأن هذا التسامح ((لم تصل اليه اوروبا بعدما قامت به في اكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة وما عانته من الاحقاد المتأصلة ، وما منيت به من المذابح الدامية))[١٤٠]. ويمضي الى القول بأنه كان يمكن ((ان تعمي فتوح العرب الاولى ابصارهم ، وان يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم ، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الامم التي كانت خاضعة لهم ولاصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سوريا .. ولكن العرب اجتنبوا ذلك . فقد ادرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ماندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، ان النظم والاديان ليست مما يفرض قسرا ، فعاملوا اهل سوريا ومصر واسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم نظمهم وقوانينهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية

---

(١٣٥) نفسه ، ص٢٧٦-٢٧٧.

(١٣٦) نفسه ، ص٣٠٩.

(١٣٧) نفسه ، ص٣٠١.

(١٣٨) نفسه ، ص٣٨٨.

(١٣٩) نفسه ، ص٤٣٠.

(١٤٠) نفسه ، ص٥٧٠.

زهيدة في الغالب ، اذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقا في مقابل حفظ الامن بينهم، فالحق ان الامم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا سمحا مثل دينهم))[١٤١].

وما يلبث بعد استعراض المزيد من الشواهد ان يخلص الى النتيجة التالية : ((هذه هي شريعة القرآن ، لم يرغب الغالبون عنها ، ولم يؤلف الغالبون والمغلوبون في بدء الامر سوى امة واحدة ذات معتقدات واحدة ومشاعر واحدة ومصالح واحدة ، وقد ساد الوفاق جميع نواحي الدولة العربية ما اظل العرب اقوياء محترمين في كل مكان))[١٤٢].

[٤]

وبما ان لوبون يقدم مادة كتابه – اساسا – من خلال منظور حضاري فانه كثيرا مايربط بين الفتح وانتشار الاسلام ، وبين القيم الحضارية سواء جاءت في سياق الدوافع ، او المعطيات، او النتائج المتحققة .. ولقد مرت بنا عرضا بعض شواهد هذا الارتباط ، لكننا نريد هنا ان نتابع شواهد اخرى نظرا لأهمية المسألة.

فمع انتشار شريعة الاسلام وثباتها في مشارق الارض ومغاربها ، انتشرت وثبتت الحضارة الطالعة التي حملها هذا الدين .. خطوة خطوة .. وجنبا الى جنب كان يتحقق هذا اللقاء في الاراضي المفتوحة : العقيدة ، والحضارة التي صنعتها هذه العقيدة ((ولم يدر في خلد احد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب – فيما بعد – اقامة حضارة مقام حضارة العرب وانتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم ، واتخذ اكثرهم العربية لغة له ، وتقهقرت امام الاسلام في الهند ديانات قديمة ، وجعل الاسلام مصر الفراعنة القديمة التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل ، عربية تامة العروبة ...))[١٤٣].

وهو يقارن بين هذه الفتوحات ذات البطانة الحضارية وغيرها فيجد ان لها ((طابعا خاصا لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب ، وبيان ذلك ان البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني .. وغيرهم ، وان استطاعوا ان يقيموا دولا عظيمة ، لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم ان يستفيدوا بمشقة من حضارة الامم التي صهروها. وعكس ذلك امر العرب الذين انشاوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، والذين تمكنوا من اجتذاب امم كثيرة الى دينهم ولغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة ،

---

(١٤١) نفسه ، ص٦٠٥.

(١٤٢) نفسه ، ص٦١٠.

(١٤٣) نفسه ، ص٢٧.

واتصلت بالعرب امم قديمة كشعوب مصر والهنود واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم ..))[١٤٤].

الحق ، يقول لوبون : ((ان هؤلاء القوم الشجعان الذين لبوا دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وغدوا أمةً واحدةً ، اقاموا دولة بلغت مابلغته دولة الرومان من الاتساع في اقل من قرنين، وان هذه الدولة بدت اكثر دول الارض هيبة وتمدنا))[١٤٥].

وهو يرى في توقف حركة الفتح الاسلامي عند مشارف فرنسا الغربية نكسة حضارية لاوروبا كلها ((فلو وفق موسى بن نصير (في اجتياز القارة) لجعل اوربا مسلمة ولحقق للامم المتمدنة وحدتها الدينية ، ولا نقذ اوربا ، على ما يحتمل ، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه اسبانيا بفضل العرب))[١٤٦].

ولم يقتصر الامر على قرون التألق الحضاري للاسلام ، بل انه امتد حتى العصور الحديثة .. ان الاسلام لم يدخل ارضا الا نقلها من حال الى حال .. تجاوز بها عصور الهمجية والبربرية والتخلف وقادها الى زمن التحضر واحترام الانسان والتقدم .. لقد ((مدن)) الاسلام في افريقيا ملايين الناس ((واظهر عمله الطيب في كل مكان هناك))[١٤٧]. ولقد محا هذا الدين خلال انتشاره هناك ((عبادة الاصنام ، والضحايا البشرية واكل لحوم البشر ، وتقدست به حقوق النساء ، وتوطدت روابط الاسرة ، واخذت الزكاة تطهر الاخلاق العامة وترقيها ، والشعور بالعدل والاحسان يتخلل القلوب ، وانشأ سادة الشعوب يعرفون ان عليهم واجبات مثل ماعلى رعاياهم ، واستقام المجتمع على اسس ثابتة ، .. هذه بعض الحسنات التي تنتشر في كل مكان ينتشر فيه الاسلام))[١٤٨].

[٥]

ومثل توماس ارنولد ، فان غوستاف لوبون لا ينسى ان يشير بكلتا يديه الى الدافع الاساس لانتشار الاسلام .. الدافع الذي يقف وراء كل الدوافع ، يسبقها ، ويتعاشق معها ، يرسم لها الطريق ويقودها الى النجاح .. ذلك هو سر الاسلام نفسه .. تركيبه .. المبادىء والقيم والاهداف الكبرى .. التلاؤم مع الانسان .. مع مطالب البشرية .. الوضوح والتماسك والقوة

---

(١٤٤) نفسه ، ص١٣٥-١٣٦.

(١٤٥) نفسه ، ص١٧٦.

(١٤٦) نفسه ، ص٢٦٧.

(١٤٧) نفسه ، ص٦١٦-٦١٧ وانظر صفحة ٧٤ من الجزء الاول من كتاب محمد كرد علي: ((الاسلام والحضارة العربية) نقلاً عن كتاب لوبون :(النتائج الاولى للحرب).

(١٤٨) نفسه ، ص١/٧٤-٧٥.

والقدرة على الجذب والتأثير والاقناع ((لقد ساعد وضوح الاسلام البالغ وما أمر به من العدل والاحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم ، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للاسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى ايام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا اصول الاسلام ، كما نفسر السبب في عدم تنصر اية امة بعد ان رضيت بالاسلام دينا ، سواء اكانت هذه الامة غالبة ام مغلوبة))[١٤٩].

واذ لم ينتشر الاسلام بالقوة كما هو معروف ، وكما يؤكد لوبون فيما سبق وأن اشرنا اليه ، فانه ((اذا حدث وان اعتنق بعض الاقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما راوه من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل))[١٥٠].

ثمة مثل معروف يقول : انك لا تستطيع ان تعطي الاخرين شيئا لا تملكه .. وهكذا فان انتصار الاسلام على الخصم وانتشاره لم يكونا ليتحققا بهذا الاقبال العجيب وبتلك السرعة المدهشة لو كان الفاتحون انفسهم لايملكون ايمانا بعقيدتهم واهدافهم يتجاوز الاقتناع الى الحماس ... انه – في الحق – لم يكن قبولا والتزاما فحسب ، بل لقد كان وقدة كالجمر في العقل والقلب والروح جعلت الفاتحين يقطعون العالم ركضا وكأن هناك مطلبا ملحا يناديهم فلا يتوانون لحظة عن تلبية النداء.

يقول لوبون : ((فلما تساوى العرب والروم في الاساليب الحربية ، لم يبق شك في تمام النصر لهم ، لاستعداد كل جندي عربي (مسلم) لبذل نفسه في سبيل دينه ، ولتواري كل اخلاص وحماسة وايمان في جيش الروم منذ زمن طويل))[١٥١].

وما يقال عن الروم يمكن ان يقال عن كل الاقوام والقيادات والسلطات والدول والامبراطوريات التي لوى الفاتحون اذرعتها وهزموها.

لأنهم كانوا في كل الاحوال الاشد حمية وغيرة ، والاكثر حماسة واخلاصا ، والاعمق ايمانا بهذا الدين الذي منحهم الكثير فكانوا اوفياء له ، ومنحوه بدورهم مايستحقه من البذل والعطاء.

---

(١٤٩) حضارة العرب ، ص١٢٥.

(١٥٠) نفسه ، ص١٢٧–١٢٨.

(١٥١) نفسه ، ص٦٠٥.

سلهب :

دعوة للفهم

[١]

مع نصراني من لبنان تعالوا لنستمع الى بعض ما يقوله عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما سنلتقي في مقال قادم – باذن الله – مع صنوه في مصر : الدكتور (نظمي لوقا) الذي يكاد يعرفه الجميع.

انه (نصري سلهب) الذي يتميز هو الاخر بنظرته الموضوعية واخلاصه العميق للحق، كما عرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الاسلام والمسيحية في لبنان ، ان على مستوى الفكر او على مستوى الواقع . وعبر الستينات كتب العديد من الفصول وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الاسلامية والمسيحية على السواء متوخيا الهدف نفسه. اما مؤلفاته فأشهرها ((لقاء المسيحية والاسلام)) (١٩٧٠م) و((في خطى محمد)) (١٩٧٠م).

حديثه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتحرك في مسارات ثلاثة ، الملامح الاساسية لشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، انجازاته الكبرى ، وتقويمه كداعية ونبي.

[٢]

في الحديث عن الملامح الاساسية لشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) نلتقي بمعطيات تذكرنا بما سبق وأن اكده (نظمي لوقا) والمفكر الانكليزي (كاريل) في كتابه المعروف ((الابطال)) : ((التواضع والدعوة ومحو الذات))[١٥٢] ، التأثير الوجداني الذي ((تضج له الاعماق ، تهتز الضمائر ، ترتعش القلوب)). كان (صلى الله عليه وسلم) ((كأولي الرسالات ، يعيش الله في قلبه وعلى لسانه ، وديعا ، امينا ، غيورا ، نصير الحق ، عدو الباطل ، صديق كل ضعيف بائس محروم ، لا ينهر سائلا ولا يقهر يتيما ، فاشتهر بين قومه بمزايا وفضائل هيهات ان تتوفر لرجل))[١٥٣].

((كان مكتمل الرجولة والنضج ، في أقوى وأوعى ما يكون عليه المرء خاطرة وعقلا. وهو لم يكن بالرجل العادي ، فقد اثبتت الايام والسنون التي تلت [بعثته] انه خير من

---

(١٥٢) نصري سلهب : لقاء المسيحية والاسلام ، ص٢٧ (دار الكتاب العربي ، بيروت–١٩٧٠م).

(١٥٣) نصري سلهب : في خطى محمد ، ص٨٦ (دار الكتاب العربي ، بيروت–١٩٧٠م).

وعى الامور وادركها وعالجها. فقد اعطاه الله الكثير لان الله طلب منه الكثير ، ولم يقتصر عطاء الله على الفضائل والمزايا الخلقية والعقلية ، بل تعداه الى ما له علاقة بالجسد فجعله يرفل في ثوب العافية والقدرة الجسدية ، متمتعا بقوة عظيمة وجرأة وبأس تجلت جميعا في المعارك التي خاضها وقادها))[١٥٤]. ((وما يدعو الى الاكبار والتأمل في آن معا ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) قد اعتزل الناس وانصرف الى النسك والصوم والى حياة الزهد والتقشف يوم اصبح ذا مال وفير يمكنه من التمتع بالدنيا. فالبحبوبة والغنى لم يصرفاه عن رسالته ، لانها اصيلة لا تهدف الى نفع خاص ، بل الى خدمة الله والبشر))[١٥٥]. وقد اثبت (صلى الله عليه وسلم) ((انه ملم بشؤون الدنيا مثل إلمامه بشؤون الآخرة : قاد الحروب وخاضها ، فاذا هو واحد من عظماء القادة العسكريين. وعالج امور الناس فرادى وجماعات، فكان خير اداري ونعم راع ومسؤول. واشرف على الشأن العام ، على الدولة الناشئة فاذا هو السياسي الحكيم البصير ذو الرأي السديد والنظرة البعيدة))[١٥٦].

وكان له (صلى الله عليه وسلم) : ((في مجال تهذيب الاخلاق شؤون وشؤون ، فرغم مهامه الجسام ، واشغاله الكثيرة المتنوعة ، ورغم الغزوات والسرايا والحروب ، واضطلاعه بجميع المسؤوليات .. فلقد وجد الوقت الكافي ليلقي على المؤمنين دروسا في شؤون لا تمر ببال مسؤول كبير في مثل مستواه وخطورته. فذلك العظيم الذي كان يحاول تغيير التاريخ ، ويعد شعبا لفتح الدنيا من أجل الله .. ذلك الأمي ، اليتيم ، الفقير ، الذي خاطب الاباطرة والملوك والامراء من ند الى ند ، بل كمن له عليهم سلطان .. ذلك الملهم الذي كان همه ان يعيد الصلة بين الارض والسماء. ذلك الرجل وجد الوقت الكافي ليلقي على الناس دروسا في اداب المجتمع، وفي اصول المجالسة ، وكيفية القاء السلام))[١٥٧].

وهو ، (صلى الله عليه وسلم) : ((لم ينس انه اب وجد لاولاد واحفاد فلم يحرمهم عطفه وحنانه .. فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات ، المتعددة الابعاد والجوانب ، الفريدة بما اسبغ الله عليها من نعم وصفات ، وبما حباها من امكانات ، كان بذلك كله ، عالما قائما بنفسه))[١٥٨].

---

(١٥٤) نفسه ، ص٨٧-٨٨.

(١٥٥) نفسه ، ص١١٨.

(١٥٦) نفسه ، ص١٦٨.

(١٥٧) نفسه ، ص٣٦٦-٣٦٧.

(١٥٨) نفسه ، ص٢٧٣-٢٧٤.

فليس ثمة بعد هذه اللمسات المضيئة المركزة عن محمد الانسان ، والنبي ، والقائد ، والسياسي ، والمربي ، والاب ، من ضرورة لتحليل او تعقيب . انها تكشف بنفسها ، على لسان هذا النصراني الذي يتقد غيرة على الحق ، وذكاء في التقاط المزايا المتفردة .. عن الملامح الاساسية في شخصية محمد بن عبد الله (عليه أفضل الصلاة والسلام) .. وهي تعيد وتؤكد ما سبق وان قاله اولئك الذين تحدثوا عن هذا الجانب في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنها تستمد مفرداتها من التجربة الغنية الخصبة لهذه الشخصية التي يقول عنها (سلهب) انها كانت ((عالما قائما بنفسه)).

[٣]

لكنه لا يقف عند هذا الحد ، بل هو يمضي بالقارىء في رحلة مؤثرة ، غاية في عذوبتها وشجاها ، لكي يتحدث عن المعطيات الكبيرة التي قدرت هذه الشخصية الفذة المختارة بارادة الله، والمصنوعة على عينه ، ان تنفذها في واقع الحياة فتغير بها عالما مترعا بالانكسارات والشروخ ، وتبني بها عالما يشع وضاءة وانسانية وتوحدا ، فتمنح بذلك الانسان، في كل زمان ومكان ، اعظم هدية تلقاها او يمكن ان يتلقاها حتى يقوم الحساب ((لكأني بمحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) الى على نفسه ان يترك للمؤمنين ثروة روحية واخلاقية ينفقون منها فلا تنضب ولا تشح ، لانها بحجم روحه. وهل ان روح النبي (صلى الله عليه وسلم) تنضب او تشح؟))[١٥٩].

.. ((هنا عظمة محمد. لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن ان يحدث ثورة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها احد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة))[١٦٠]، ((هذا الرجل الذي ماعرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار ، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج ، ان يرسي قواعد دولة ، وان يشترع قوانين ويسن انظمة ويجود بالتفاسير والاجتهادات))[١٦١] ، ((انها لثروة اخلاقية عارمة دعا اليها الرسول لينقذ مجتمعا متداعيا نخره سوس الاثرة والخيلاء والكبرياء وهددته من جذوره عصبية الدم المتعطش الى الدم))[١٦٢].

ويمضي سلهب يحكي عن معطيات الرجل العظيم الذي قدر له ان يعيد صياغة الانسان والعالم بما يريده الله وحده ، لا هذه الفئة او تلك ، ولا هذا الكاهن او الطاغوت او ذاك ..

---

(١٥٩) نفسه ، ص٣٦٩.

(١٦٠) نفسه ، ص١٩٦.

(١٦١) نفسه ، ص٢٧٣-٢٧٤.

(١٦٢) نفسه ، ص٩٥.

فتجاوز تأثيره تخوم الحياة الدنيا الى الآخرة ((النبي العربي ترك في الدنيا اثرا لن يمحى ، بل تجاوز اثره حدود الدنيا الى الآخرة لأنه كان رسول ربه الى الناس ليدلهم الى طريق الآخرة))[١٦٣].

وما فعله في البيئة الصعبة التي بعث فيها .. في الزمن والمكان اللذين اختارته لهما ارادة الله ، كان امرا عجبا ((لقد عرف الرجل الكبير كيف ينتقل بتلك القبائل المتنافرة ، المتقاتلة، المتخلفة ، غير المستقرة البعيدة عن كل حضارة اثيلة .. من ذلك الدرك الى مستوى من الرقي والقوة والتنظيم جعل منها دولة لم تبلغ الى مستواها اية دولة اخرى معاصرة))[١٦٤] .. ((عشرون سنة حمل اعباءها واثقالها رجل واحد .. تصدى لواقع مستمر منذ مئات السنين ، متغلغل في غابر سحيق ، يؤمن به ويتشبث سادة القوم والنافذون فيهم ، رجل واحد يعلن – غير خائف ظلم الظالمين واستبداد المستبدين – ان جميع الناس كفرة مشركون .. ويأخذ على عاتقه تبديل الاوضاع تبديلا جذريا في مجتمع لا يحتكم الا للسيف ، ولا تربط اعضاءه بعضهم الى بعض سوى رابطة الدم ، ذلك الرجل الواحد – بعد سنين عشرين من الجهاد والكفاح – تهب قبائل الجزيرة جميعها لتعلن له ايمانها به وبالمبادىء التي نادى بها ، وهي التي لم يسبق لها ان دانت لبشر ..))[١٦٥].

ويخلص (سلهب) الى القول بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) ((لم يكن رسولا وحسب يهدي الناس الى الايمان ، انما كان زعيما وقائد شعب ، فعزم على ان يجعل من ذلك الشعب خير امة اخرجت للناس. وكان له ما اراد))[١٦٦].

وهذا التغيير الكبير الذي احدثه رسول الله يتأبى على كل التحليلات والمواضعات التاريخية المعهودة ، ويصعب تفسيره والتأشير على عوامل الدفع فيه على الباحثين والمفسرين ما لم يدركوا منذ البدء ان الحركة التي قادها ونفذها محمد بن عبد الله مرتبطة الاسباب بالسماء ، ممتدة الجذور الى ما وراء الملموس والمنظور .. فمن ((يمعن التفكير في سيرة هذا الرجل يرى نفسه منساقا الى الاقرار بأن ما حققه وقام به يكاد ان يكون من دنيا غير التي يعرفها البشر ..))[١٦٧].

---

(١٦٣) نفسه ، ص١٤١.

(١٦٤) نفسه ، ص١٦٤.

(١٦٥) نفسه ، ص٢٥٠.

(١٦٦) نفسه ، ص ٤٠٩.

(١٦٧) نفسه ، ص١٩٥.

[٤]

من أجل ذلك كله ينحني (نصري سلهب) ، هذا النصراني المتألق قلبا وفؤادا .. ينحني اجلالا وتقديرا لشخصية النبي الانسان الذي تعامل مع خامتي الانسان والتاريخ وصاغ منهما ما لم يفعله احد في العالمين : ((في مكة .. ابصر النور طفل لم يمر ببال امه ، ساعة ولادته ، انه سيكون احد اعظم الرجال في العالم ، بل في التاريخ ، ولربما اعظمهم اطلاقا))[١٦٨] !!

ومن اجل ذلك ((غدا اسم محمد (صلى الله عليه وسلم) أشهر الأسماء طرا ، واكثرها ترددا على الشفاه وفي اعماق القلوب. وحسبه شهرة وترددا ان ملايين المؤمنين في العالم يؤدون، كل يوم اكثر من مرة ، شهادة مقرونة باسم الله وباسمه))[١٦٩].

وهو ، (صلى الله عليه وسلم) يصنع مجده على عين الله وبارادته ، ليس بالورود والرياحين ولكن بالمعاناة المبهظة على مدى ثلاث وعشرين سنة اجتازها نبيا بالعذاب والمرارات والتغرب والاحزان .. ومن يدري فانه (عليه السلام) ((لولا تلك المصائب التي نزلت به ، وتلك الآلام التي حفرت في نفسه وجسده جراحا ، لولا الشدائد والمحن وقساوة البشر ، لولا ما عاناه من اضطهاد وهزء وسخرية ، لو لم تلق عليه الاقذار ، ولم يرشق بالتراب ، ولولا ذلك كله لما كان وعي الحياة واستوعب ما تخبىء وما تخفي ، ولما كان اصبح احد اكبر قادة الشعوب عبر التاريخ كله ، بل اكبرهم اطلاقا !!))[١٧٠].

على ان دوره هذا ومعاناته تلك لتميزه حتى بين اخوانه الرسل والانبياء (عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام) .. ((لا .. ليس بين الرسل واحد كمحمد (صلى الله عليه وسلم) عاش رسالته عمقا وصعدا ، بعد مدى ، ذوب كيان ، عصف بيان ، عمق ايمان !))[١٧١].

[٥]

وما اروع ان نختتم هذه الصفحات العجلى بهذا النداء الوجداني المؤثر الذي يخاطب به رجل من اولئك الذين تحدث عنهم كتاب الله فقال بأن (اعينهم) (تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)[١٧٢] .. وها هو خطاب الرجل النصراني يلمس بعمق مواطن الحق في رسالة الرسول الذي الى على نفسه ان يزهق الباطل ويحق الحق ويمنح الجواب لكل ما من شأنه ان يؤرق

---

(١٦٨) نفسه ، ص٤٢.

(١٦٩) نفسه ، ص٤٢.

(١٧٠) نفسه ، ص١٤٢.

(١٧١) نفسه ، ص٣٧١.

(١٧٢) سورة المائدة (آية ٨٣).

الانسان ويعذبه في هذا العالم ((تراثك ياابن عبد الله ينبغي ان يحيا ، لا في النفوس والقلوب فحسب ، بل في واقع الحياة ، في مايعاني البشر من ازمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب . كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت ، نجد لها في آثارك حلا))[١٧٣].

لقد ادرك الرجل وهو يقف قباله الرسالة التي منحها الرسول هذا العالم ، انه ليس ثمة غيرها من طريق اذا ما اريد للانسان ان يتحرر حقا ، لان يحيا حياته كانسان :

((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))[١٧٤].

(١٧٣) في خطى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ص٣٩٦.

(١٧٤) سورة الانعام (آية ١٥٣).

بوكاي

الاعجاز .. والتحدي بالعلم

[١]

يعد كتاب الطبيب والعالم الفرنسي المعروف موريس بوكاي : (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم)[١٧٥] واحدا اكثر الوثائق اهمية في مجال الدراسات القرآنية المعاصرة. ان معطياته كافة تتوظف بشكل منهجي دقيق في دائرة التاكيد العلمي لإعجاز القرآن. وبما انها تأتي على يد رجل متخصص من خارج دائرة الاسلام فانها تزداد اهمية ولا ريب.

تتمحور هذه المعطيات في اكثر من اتجاه : فهناك توثيق النص القرآني ، وهناك مقارنته بالتوراة والانجيل ، وهناك ايضا منهج العمل الذي اعتمده بوكاي والنتائج النهائية التي توصل اليها خلال تعامله مع المعطيات القرآنية ذات الصلة بالعلم ، وهذه الاخيرة تمثل المساحة الاوسع في صفحات الكتاب ، وسوف نتجاوز التوقف عندها ايثارا للايجاز ، وبمقدور القارىء ان يرجع اليها عبر معظم فصول الكتاب ، الا اننا سنقف قليلا عند المحاور الاخرى.

[٢]

لنبدأ بالمحور الاول : توثيق النص القرآني الذي يحمل بحد ذاته اعجازه المبين. ذلك انه الكتاب الديني الوحيد الذي حافظ على نصه من اي تزييف او تحريف ، ومن اية زيادة او نقصان. ان هذا يجيىء تعبيرا عن وعد الله :

((**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**))[١٧٦].

ان اول ما يلحظه بوكاي بهذا الصدد هو ان ((هناك فرقا جوهريا بين المسيحية والاسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية في حين ان الاسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معا))[١٧٧] ، ان هذا الفارق الحاسم يمتد – اذا – باتجاهين : طبيعة المصدر وحدود النص. فبينما انحرفت الاناجيل عن مصدرها الالهي لكي تغدو وبمرور الوقت معطيات بشرية صرفة ، وبينما فقد النص الاصيل للانجيل

---

(١٧٥) دار المعارف ، القاهرة–١٩٧٨م.

(١٧٦) سورة الحجر ، (الآية ٩).

(١٧٧) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، ص١٠.

القادم من السماء حدوده الاصيلة فتعرض للزيادة والانتقاص ، نجد القرآن الكريم يحافظ بصرامة، وبارادة الله سبحانه وتعالى ، وجهود اتباع هذا الدين من الرواد البررة (رضي الله عنهم) ، على مصدره الالهي الخالص وعلى حدود النص حيث لا يضاف اليه عبر القرون حرف واحد ولا تنتقص منه كلمة واحدة : ((ليس هناك اي مجال للشك ، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلا نفس النص الاول !))[١٧٨].

ومرة أخرى ... فان ((صحة القرآن التي لاتقبل الجدل تعطي النص مكانه خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد.. لسبب بسيط وهو ان القرآن قد ثبت في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) (وانه) لم يتعرض لأي تحريف من يوم ان انزل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يومنا هذا))[١٧٩].

فها هنا يضيف بوكاي (معلومة) اخرى بصدد التوثيق : ان النص ثبت في عصر النبي نفسه (صلى الله عليه وسلم) ، ومن اجل القاء الضوء على هذه المسألة يقول : ((فور تنزيل القرآن ، واولا بأول ، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب وكان الكتبة من صحبه يدونونه. اذن فالقرآن يتمتع ، منذ البداية ، بعنصري الصحة هذين اللذين لا تتمتع بهما الاناجيل. وظل الامر هكذا حتى موت النبي (صلى الله عليه وسلم). وفي عصر لا يستطيع فيه الكل ان يكتب وان كان يستطيع ان يحفظ عن ظهر قلب ، تصبح التلاوة ذات فائدة لا تقدر ، وذلك لامكانيات التحقيق العديدة التي تعطيها ساعة التثبيت النهائي للنص))[١٨٠].

وبعد ان يستعرض تفاصيل عملية الجمع والتثبيت وتحقيق صحة النص القرآني ، مما هو معروف في الدراسات القرآنية والتاريخية ، يخلص الى القول بأن هذه العملية ((تمت .. بمنتهى الثقة ، ورئي ضرورة مطابقة الشهادات وذلك لضبط اقل آية تسمح بأي جدل))[١٨١].

والنتيجة الاخيرة الحاسمة هي : ((.. ان القرآن هو الوحي المكتوب الذي لا شك فيه ، ولذلك كان معصوما من كل خطأ علمي))[١٨٢].

---

(١٧٨) نفسه ، ص١٤٥.

(١٧٩) نفسه ، ص١٥١.

(١٨٠) نفسه ، ص١٥٢.

(١٨١) نفسه ، ص١٥٥.

(١٨٢) نفسه ، ص٢٨٣.

وهذه (المعلومة) الاخيرة التي سينصب عليها كتاب بوكاي كله ، تعد واحدة من اكثر الاختبارات المعاصرة اهمية بصدد تأكيد الهية القرآن الكريم وصدق نصه وسلامته بالتالي .. كما سنرى.

[٣]

يجري بوكاي مقارنات قيمة بين النص القرآني وبين التوراة والانجيل ، يدحض بها قصدا او عرضا ، اقاويل خاطئة كان الدارسون النصارى واليهود والملاحدة والعلمانيون قد لفقوها ازاء القرآن .. ويصل عبر مقارناته هذه الى تأكيد توثيق النص القرآني ومصدره الالهي المتفرد مما تحدثنا عنه في الفقرة السابقة ، كما انه يجابه في الوقت نفسه اولئك الدارسين غير الموضوعيين بحقيقة ان التوراة والانجيل التي يزعمون صدقها ، ويدعون اخذ القرآن عنها ، ليست بشيء اذا ما تعرضت للاختبار الجاد ! ((سيجد القارىء بالتفصيل في نهاية الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة روايات التوراة بروايات القرآن فيما يتعلق بحدث واحد : وقد خضع الكل للنقد العلمي. وعلى سبيل المثال فقد تم اختيار مسألتي الخلق والطوفان ، واتضح بالنسبة لكل منهما عدم اتفاق العلم مع اقوال التوراة. ولكنا سنورد اتفاقا كاملا بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث. ومن ذلك يمكن ملاحظة الفروق التي تجعل بالدقة احد النصين مقبولا علميا في العصر الحديث على حين تجعل الاخر غير مقبول.

((هذه الملاحظة البينة ذات اهمية من الدرجة الاولى. ذلك ان اليهود والمسيحيين والملحدين في البلاد الغربية يجمعون على الزعم ، وذلك دون ادنى دليل ، بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كتب او استكتب القرآن محاكيا التوراة .. مثل هذا الموقف لا يقل استخفافا عن ذلك الذي يقود الى القول بأن المسيح (عليه السلام) ايضا قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم .. فكل انجيل متى يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم. اي مفّسر هذا الذي تعن له فكرة ان ينزع عن المسيح (عليه السلام) صفته كرسول لله ، لذلك السبب ، ومع ذلك فهكذا يحكم في الغرب على محمد (صلى الله عليه وسلم) في غالب الاحيان : يزعمون انه لم يفعل اكثر من ان نقل التوراة والانجيل. وذلك حكم بلا محاكمة ، لا يضع مطلقا في اعتباره ان القرآن والتوراة والانجيل قد تعطي عن نفس الحدث روايات مختلفة ، لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات ، ثم يعلنون انها متماثلة ، وبالتالي يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية))[١٨٣].

وشبيه بهذا ادعاء كثير من المؤلفين الاوروبيين : ((ان رواية القرآن عن الخلق قريبة الى حد كبير من رواية التوراة ، وينشرحون لتقديم الروايتين بالتوازي)) لكن بوكاي يرد موضحا

---

(١٨٣) نفسه ، ص١٤٨-١٤٩.

ما سبق ، وان اكده في الفقرة السابقة ((اني اعتقد – يقول الرجل – ان هذا المفهوم خاطىء فهناك اختلافات جلية ، ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقا من وجهة النظر العلمية نكتشف في القرآن دعاوى لا يجدي البحث عن معادل لها في التوراة. كما ان التوراة ، من ناحية اخرى ، تحتوي على معالجات تفصيلية لا معادل لها في القرآن))[١٨٤].

وقبل ان يختتم كتابه يعود بوكاي لكي يناقش هذه المسألة بالمزيد من التفاصيل ((ان القرآن ، وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية ، وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الاناجيل ، بل هو يظهر ايضا – لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم – طابعه الخاص وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة)) ويمضي الى القول بأن ((مقارنة العديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الاساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميا وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة .. وعلى حين نجد في نص القرآن (بالنسبة لبعض الموضوعات) معلومات ثمينة تضاف الى رواية التوراة ... نجد فيما يتعلق بموضوعات اخرى ، فروقا شديدة الاهمية تدحض كل ماقيل من ادعاء – دون ادنى دليل – عن نقل محمد (صلى الله عليه وسلم) للتوراة حتى يعد نص القرآن))[١٨٥].

واذا كانت التوراة والانجيل تعكس بأمانة الكثير من الخرافات التي كانت منتشرة زمن تدوين هذين النصين ، فانه ((لامكان مطلقا في نص القرآن لاي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن))[١٨٦].

ألا تكفي هذه المقارنات باتجاهيها الايجابي والسلبي ، لرد المقولات التي لاتقوم على اي اساس علمي ، مما يدعيه اصحابها ، بصدد علاقة القرآن بالكتب المحرفة التي سبقته ؟ نعم وبكل تأكيد ، ما دامت هذه المقارنات تجيء من خلال منهج علمي في العمل والاستنتاج لا يمكن ان يتسرب الشك والهوى اليه .. فماذا عن هذا ((المنهج)) ؟

[٤]

يقول بوكاي ((لقد قمت اولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون اي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت اعرف ، قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات ، ان القرآن يذكر انواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت

---

(١٨٤) نفسه ، ص١٥٧.

(١٨٥) نفسه ، ص٢٨٥-٢٨٦.

(١٨٦) نفسه ، ص٢١٣.

وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت ان احقق قائمة ادركت بعد الانتهاء منها ان القرآن لا يحتوي على اية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والاناجيل. اما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب الى ابعد من الكتاب الاول ، اي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين اكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا ..

واما بالنسبة للاناجيل .. فاننا نجد نص انجيل متى يناقض بشكل جلي انجيل لوقا Luc ، وان هذا الاخير يقدم لنا صراحة امرا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الانسان على الارض))[١٨٧].

اذن فان الرجل يبدأ تعامله مع القرآن من نقطة الصفر ، دون اي فكر او قناعات او استنتاجات مسبقة قد تصل لدى البعض حد البديهيات ودرجة اليقين . وهو يواصل عمله بموضوعية تامة بحثا عن الايات العلمية في القرآن ومقارنتها بمعطيات العلم الحديث .. وكان يعرف ان هناك اشارات قرانية عديدة عن الظاهرات الطبيعية ، لكن معرفته بهذا الامر كانت وجيزة. ومن يدري فلعله كان يهدف لايجاد تناقض ما في سياق هذه الاشارات بينها وبين النتائج العلمية ، فمهمته – في الاساس – لم تكن محاولة ايمانية مسبقة لتأكيد الوفاق بين الجانبين ، انما لفحص معطيات الطرف الاول في ضوء معطيات الطرف الثاني .. منهج سليم ولا يتضمن اي قدر من التحّيز لهذا الطرف او ذاك.

وبالمنهج نفسه تم فحصه للتوراة والانجيل ((لقد خضع الكل للنقد العلمي))[١٨٨] ، فاذا جاءت النتيجة النهائية تؤكد الوفاق الكامل بين القرآن والعلم ، وتؤشر على ثغرات وتناقضات عديدة بين العهدين القديم والجديد وبين العلم ، فانه يجب تقبل هذه النتيجة احتراما لقواعد البحث العلمي نفسه ((لقد اثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية. فلم اكن اعتقد قط بامكان اكتشاف عدد كبير الى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نص كتب منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا)). ومرة اخرى يشير الى منهج العمل ((في البداية لم يكن لي اي ايمان بالاسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة ..))[١٨٩].

يواصل حديثه فيقول : ((.. تناولت القرآن منتبها بشكل خاص الى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد اذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه

---

(١٨٧) نفسه ، ص١٣.

(١٨٨) نفسه ، ص١٤٨.

(١٨٩) نفسه ، ص١٤٤.

الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن ان تدرك الا في النص الاصلي ، اذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكنا لاي انسان في عصر محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يكون عنها ادنى فكرة))[١٩٠].

وهو يشير الى مسالة منهجية مهمة بصدد الادوات الضرورية لتفسير الايات العلمية في القرآن الكريم ((ان مفسري القرآن (بما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الاسلامية العظيم) قد اخطاوا حتما وطيلة قرون في تفسير بعض الايات التي لم يكن باستطاعتهم ان يفطنوا الى معناها الدقيق. ان ترجمة هذه الايات وتفسيرها بشكل صحيح لم يكن ممكنا الا بعد ذلك العصر بكثير ، اي في عصر قريب منا. ذلك يتضمن ان المعارف اللغوية المتبحّرة لا تكفي وحدها لفهم هذه الايات القرآنية ، بل يجب بالاضافة اليها امتلاك معارف علمية شديدة التنوع. ان دراسة كهذه هي دراسة انسكلوبيدية تقع على عاتق تخصصات عدة. وسندرك كلما تقدمنا في عرض المسائل المثارة تنوع المعارف العلمية اللازمة لفهم معنى بعض آيات القرآن))[١٩١].

ويعود في نهاية الكتاب لكي يثير هذه المسالة ثانية حيث لا تملك التفاسير القديمة القول الفصل في مواضيع لم تكن تملك ادوات التعامل معها. وهذا يجيء مصداقا لايتين كريمتين تتضمنان بوضوح بعدا زمنيا بصدد التعامل مع المعطيات القرآنية والتسليم بصدقها المطلق :

((بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ))[١٩٢]، **((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))**[١٩٣].

يقول بوكاي : ((لابد من مقارنة المقولات القرآنية بالمعلومات التي ثبتت في العصر الحديث. ان توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح ، ولكن من المهم ايضا مقابلتها بالمعتقدات العامة في هذا الموضوع والتي كانت سائدة في عصر تنزيل القرآن حتى ندرك الى اي حد كان معاصرو هذه الفترة ، بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التي يعرضها القرآن في هذه المسائل. وليس هناك ادنى شك في ان هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا في ذلك العصر تفسير هذا الوحي مثلما ندركه نحن اليوم. ذلك ان المعطيات المعرفة الحديثة تعيننا على

---

(١٩٠) نفسه ، ص١٤٥.

(١٩١) نفسه ، ص١٤٦.

(١٩٢) سورة يونس ، (الآية ٣٩).

(١٩٣) سورة فصلت ، (الآية ٥٣).

تفسيره. والواقع ان المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة الى حد ما عن هذه المسائل الا خلال القرن التاسع عشر))[١٩٤].

وفي محاضرة له عن (القرآن والعلم الحديث) في اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الاسلامي في اذار عام (١٩٧٩م) ، يعيد بوكاي الى الاذهان المنهج المحايد الذي اعتمده في كتابه ((كان اهتمامي الثابت على مدى ابحاثي هو الموضوعية وفي اعتقادي اني تناولت دراسة القرآن والعلم ، كما يتناول الطبيب ملف المريض مقابلا كل الدلائل التي يمكن جمعها من اجل تشخيص الداء. واولا وقبل كل شيء اعترف بان الايمان بالدين الاسلامي ليس هو الذي سدد خطاي في البداية وانما البحث عن الحقيقة التي اعبر عنها اليوم كما تبدو لي ظاهرة. ان الوقائع هي الاساس والجوهر الذي جعلني انظر الى القرآن ككتاب منزل من عند الله ..))[١٩٥].

[٥]

ما هي النتائج التي توصل اليها بوكاي عبر بحثه هذا ؟

لا ريب ان القارىء قد وضع يده على بعض هذه النتائج عبر الفقرات السابقة ، واخرها ولا ريب تلك التي مرت به في الاسطر الأخيرة حيث يعلن بوكاي ان دراسته العلمية هذه جعلته ينظر الى القرآن ككتاب منزل من عند الله.

لقد وضعته هذه الدراسة ازاء تفسير واحد لا يتضمن اي قدر من الاحتمالات ، وهو ان كتابا كهذا يتضمن حقائق ما كانت معروفة مطلقا في عصر تنزله ، وحتى بعد هذا العصر بقرون طويلة ، حقائق لم يكشف النقاب عنها الا عبر القرنين الاخيرين ومن خلال مناهج العلم الحديث وادواته وحقائقه .. ان كتابا كهذا لا يمكن ان يكون من وضع انسان ، فردا او طائفة من الناس .. لا يمكن الا ان يكون اتيا من عند الله الخالق العالم المدبر المريد الذي يعلم السر والذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء.

وبوكاي يطرح هذه النتيجة الاخيرة الحاسمة اكثر من مرة ، ومن زوايا عديدة وعبر تحليلات شتى .. لكنها جميعا تصب في البؤرة الواحدة وهي ان هذا الكتاب الذي تلتقي اياته البينات مع معطيات العلم الحديث لا يمكن ان يكون من وضع انسان .. لا يمكن الا ان يكون قادما من عند الله ((ان اول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص (القرآني) لاول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة. فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات

---

(١٩٤) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، ص٢٣٣.

(١٩٥) انظر صفحة ٦٧٥، المجلد الثاني من الكتاب الخاص باللقاء المذكور.

الخاصة بالارض وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الانساني. وعلى حين نجد في التوراة اخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ. وقد دفعني ذلك لان اتساءل : لو كان كاتب القرآن انسانا ، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي ان يكتب ما اتضح انه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟ ليس هناك اي مجال للشك ، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلا نفس النص الاول .. ما التعليل الانساني الذي يمكن ان نعطيه لتلك الملاحظة ؟ في رايي ليس هناك اي تعليل ، اذ ليس هناك سبب يدعو للاعتقاد بان احد سكان شبه الجزيرة العربية .. استطاع (يومها) ان يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات))[١٩٦].

يمكن القول بان النتائج التي يتوصل اليها بوكاي تتحرك على ثلاثة محاور :

أولها استحالة ان يكون بمقدور انسان عاش في عصر تنزل القرآن ان ياتي بمثله. والنص السابق يجيء في سياق هذا المحور. وثمة نصوص اخرى من مثل ((كيف يمكن لانسان – كان في بداية امره اميا – ان يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور اي انسان في ذلك العصر ان يكونها ، وذلك دون ان يكشف تصريحه عن اقل خطا من هذه الوجهة؟))[١٩٧] .. وان ((وجهة النظر العلمية تقود الى الحكم بعدم معقولية ان انسانا يعيش في القرن السابع من العصر المسيحي قد استطاع ان يصدر عبر القرآن وفيما يتعلق بموضوعات متعددة افكارا لا تنتمي الى افكار عصره وتتفق مع ما امكن اثباته بعد ذلك بقرون عديدة. في رايي ليس هناك تفسير وضعي للقران))[١٩٨].

و .. ((عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة ، كيف لا ننبهر بتلك التحديدات الدقيقة التي لا يمكن افتراض انها صدرت عن فكر انسان عاش منذ اربعة عشر قرنا تقريبا ؟))[١٩٩] و((لا يستطيع الانسان تصور ان كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد (صلى الله عليه وسلم)..))[٢٠٠].

وعلى المحور نفسه ، وازاء هذه الادلة الايجابية نلتقي – كذلك – بما يمكن اعتباره دليلا سلبيا يصب في الهدف نفسه ، وهو ان القرآن الكريم الى جانب كونه تضمن معلومات لم يكشف

---

(١٩٦) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، ص١٤٥.

(١٩٧) نفسه ، ص١٥٠.

(١٩٨) نفسه ، ص١٥٠.

(١٩٩) نفسه ، ص١٩٥.

(٢٠٠) نفسه ، ص٢٨٦.

النقاب عنها الا في العصر الحديث ، فانه في الوقت نفسه تأبى على قبول اية معلومات خاطئة مما كان سائدا في عصره ، ربما كمسلمات وبديهيات ، ثم جاء العلم الحديث لكي يبين بطلانه.

.. ان بوكاي يطرح هذا السؤال : ((كيف كان يمكن لانسان ، منذ اربعة عشر قرنا تقريبا ، ان يصحح الى هذا الحد الرواية الشائعة في ذلك العصر (عن الخلق وذلك باستبعاد اخطاء علمية وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات اثبت العلم اخيرا صحتها في عصرنا؟))[٢٠١] ، وما يلبث ان يخلص الى هذه النتيجة الحاسمة التي سبق ان مرت بنا : ((لا مكان مطلقا في نص القرآن لاي خرافة من الخرافات التي كانت منتشره في عصر تنزيل القرآن))[٢٠٢].

اما المحور الثاني لمسار النتائج فانه يتحدث عن التطابق التام بين المعطيات القرآنية والعلم الحديث ، ويجب ان نلاحظ ان هناك تداخلا بين المحاور الثلاثة بحيث اننا نجد امتداداتها متعاشقة هنا وهناك لانها تتعامل مع نقطة محددة واحدة .. ((ان معظم الامور العلمية الموحى بها او المصاغة بشكل بيّن تماما في القرآن لم تتلق التاييد الا في العصر الحديث))[٢٠٣] ، هكذا يؤكد بوكاي. وفي مكان آخر يقول : ((.. ان علماء تاريخ الارض وعلماء طبقاتها (الجيولوجيين) والمختصين في علم الحيوان هم – فعلا – مندهشون جدا مثل اندهاش الاطباء، لوجود افكار في القرآن تتعلق بظواهر طبيعية تثير الدهشة. والسبب في ذلك ان المعرفة العميقة بتاريخ العلم تجعلنا نحكم على انها تحد للتفسير البشري))[٢٠٤] ، ثم يتساءل : ((هل يوجد كتاب قبل العصر الحديث يحتوي على احكام مجانسة لاحكام القرآن ومتقدمه على مستوى العلم مثل كتاب القرآن حتى يقارن به ؟))[٢٠٥].

والواقع ان معظم مساحات كتاب بوكاي تتحرك على هذا المحور : التطابق المدهش بين القرآن ومعطيات العلم الحديث في مجالاته المختلفة[٢٠٦].

---

(٢٠١) نفسه ، ص١٧٣.

(٢٠٢) نفسه ، ص٢١٣.

(٢٠٣) نفسه ، ص١٤٦.

(٢٠٤) محاضرة الندوة العالمية ، ٢/٦٧١-٦٧٢.

(٢٠٥) نفسه ، ص٢/٦٧٢.

(٢٠٦) انظر على وجه الخصوص الصفحات =١٤٧،١٤٨-١٤٩،١٦٠-١٦١، ١٧٢ ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩-١٨٠،١٨٣-١٨٤،١٨٦،١٨٧-١٨٨،١٨٩،١٩٠،١٩١-١٩٢،١٩٤،١٩٨،٢٠١-٢٠٢،٢٠٣،٢٠٨،٢١٠،٢٣٠،٢٣٢،٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٦،٢٤٧،٢٤٨،٢٦٩،٢٧١،٢٨٦، من كتاب ((القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم)).

والمحـوران الاول والثـاني يقـودان بطبيعـة الحـال الـى النتيجـة النهائيـة (المحـور الثالث) الذي يعلن بتاكيد حاسم جازم المصدر الالهي للقران ، فانه لا يمكن ان يكون بشريا باية حال من الاحوال ((هكذا يتقرر لدينا .. ان حقائق القرآن العلمية – كما شرحناها في محلها – تدل جميعها على ان نصوص القرآن لا دخل ليد البشر فيها ، وانها وحي لا شك فيه ..))[٢٠٧] .. ((ان القرآن هو الوحي المكتوب الذي لا شك فيه ، ولذلك كان معصوما من كل خطا علمي ..))[٢٠٨] و((لا يستطيع الانسان تصور ان كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تاليف بشر. وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد (صلى الله عليه وسلم). لذا فمن المشروع تماما ان ينظر الى القرآن على انه تعبير الوحي من الله وان تعطى له مكانة خاصة جدا حيث ان صحته امر لا يمكن الشك فيه ، وحيث ان احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كانها تتحدى اي تفسير وضعي. عقيمة حقا المحاولات التي تسعى لايجاد تفسير للقران بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية))[٢٠٩].

ليس هذا فحسب ، بل ان هذه النتيجة بحد ذاتها تعزز موقع الدين والغيب بالسلاح نفسه الذي كان العالم الحديث قد اعتمده للقضاء عليهما وظن انه اجتاز مهمته الالحادية هذه بنجاح : ((في القرن العشرين ، حيث يرى البعض ان العلم الحديث قد اعطى الضربة القاضية للمعتقدات الدينية ، تبرز الاكتشافات العلمية الحديثة الطابع الغيبي لبعض مظاهر الوحي الاسلامي بعد فحصه فحصا موضوعيا))[٢١٠].

ثم ان هذه النتيجة تجيىء بمثابة منحة من الله سبحانه في عصر تكاد المادية الزنديقية فيه تقتلع الايمان من الجذور .. فاذا ((وجدنا (في القرآن) اشارات لوقائع علمية فذلك هبة من الله ، تلك الهبة التي تبرز قيمتها في عصر تحاول فيه المادية الزنديقية – ذات القاعدة العلمية – ان تفرض نفسها على حساب الايمان بالله ..))[٢١١].

ألم يقل كتاب الله قبل اربعة عشر قرنا ، متحدثا عن المستقبل غير المنظور :

((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ !! أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))[٢١٢].

---

(٢٠٧) نفسه ، ص٢٧٧.

(٢٠٨) نفسه ، ص٢٨٣.

(٢٠٩) نفسه ، ص٢٨٦.

(٢١٠) محاضرة الندوة العالمية ، ٦٧٣/٢.

(٢١١) نفسه ، ٦٧٥/٢.

(٢١٢) سورة فصلت ، (الآية ٥٣).

ديورانت

التعامل مع ((الاخر))

[١]

اشتهر المؤلف الامريكي المعاصر (ول ديورانت) بكتابه (قصة الحضارة) ذي الثلاثين مجلدا[٢١٣] ، والذي يعد واحدا من اشهر الكتب التي تؤرخ للحضارات البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة. ولقد تحدث في كتابه هذا عن القرآن الكريم ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما تحدث عن الاسلام ، وانتشاره ، وحضارته.

ونحن نريد هنا ان نعرف ما الذي قاله الرجل في كتابه هذا عن موقف الاسلام المنتصر من غير المسلمين ، خلال ، وفي اعقاب حركة الفتوحات التي يصفها ديورانت بانها ((الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب والذي اعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه)) وانه بحق ((اعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى))[٢١٤].

[٢]

يلحظ ديورانت اكثر ما يلحظ التسامح والحرية الدينية التي حظي بها اتباع الديانات في ظل الحكم الاسلامي كافة ، وعبر مراحله التاريخية المختلفة ، بدء من لحظة الفتوحات الاولى وانتهاء بالعصر العثماني. فلقد رحبت الشعوب والجماعات الدينية بالفاتحين كافة واعتبرتهم ((محررين)) مما كانت هذه الشعوب والجماعات تعانيه من ظلم وقسر واضطهاد ، وكانت القناعة الدينية بمثابة الضحية الاولى لسلطات ما قبل الفتح الاسلامي.

فلما جاء المسلمون يخيرون الناس بين الانتماء للاسلام او البقاء على اديانهم ومعتقداتهم ، مع دفع الجزية اعترافا بانضوائهم تحت جناح دولة الاسلام ، ترك الفاتحون لهؤلاء حريتهم الدينية ، وحموها من اية صيغة من صيغ الانتقاص او العدوان. واستمر الحال على ذلك رغم التغيرات التاريخية وتبدل الاسر والحكام ، لان القاعدة التي وضعها الاجداد ، والمبادىء التي تعامل بها الفاتحون ، على هدي كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ظلت

---

(٢١٣) ترجمة محمد بدران وآخرين ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٧م.
(٢١٤) قصة الحضارة ، ١٧/١٣.

تحكم العقل المسلم والأخلاق المسلمة عبر العصور .. لقد اصبحت تقليدا ثابتا في الحياة الاسلامية ما عرفت التجارب والاديان الاخرى عشر معشاره ، الامر الذي يؤكد عليه ديورانت اكثر من مرة وهو يقارن بين ما صنعه الاسلام وما فعله غيره.

في العصر الأموي ((كان اهل الذمة المسيحيون ، والزردشتيون ، اليهود ، والصابئون ، يستمتعون بدرجة من التسامح لا نجد نظيرا لها في البلاد المسيحية في هذه الايام ، فلقد كانوا احرارا في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم .. وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم))[٢١٥].

في العصر العباسي ((كان يقوم في بلاد الاسلام احد عشر الف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من معابد اليهود وهياكل النار. وكان المسيحيون احرارا في الاحتفال باعيادهم علنا، والحجاج المسيحيون ياتون أفواجا امنين لزيارة الاضرحة المسيحية في فلسطين .. واصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد البطارقة ، اصبحوا احرارا امنين تحت حكم المسلمين .. بل لقد ذهب المسلمون الى ابعد من هذا اذ عين والي انطاكية في القرن التاسع الميلادي حرسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من ان يقتل بعضها بعضا في الكنائس .. وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الاسلامية تضم مئات من المسيحيين))[٢١٦].

في الاندلس ((عامل الفاتحون اهل البلاد معاملة لينة طيبة .. واطلقوا لهم الحرية الدينية ما لم تتمتع به اسبانيا الا في اوقات قليلة نادرة))[٢١٧].

ومما لا شك فيه ((ان حكمهم كان افضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ، ولقد كانوا اقدر اهل زمانهم على تصريف الشئون العامة في العالم الغربي ، فكانت قوانينهم قائمة على العدل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام. وكان اهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الاحوال حسب قوانينهم وعلى ايدي موظفين منهم ..))[٢١٨].

وفي جنوب غربي فرنسا ، كانت فترة الاربعين عاما التي تنقل فيها المسلمون هناك ((ذات اثر قوي فيما يتصف به اهل الاقليم من تسامح غير عادي بين الاديان المختلفة))[٢١٩].

---

(٢١٥) نفسه ، ١٣/١٣٠-١٣١.

(٢١٦) نفسه ، ١٣/١٣١-١٣٢.

(٢١٧) نفسه ، ١٣/٢٨٢.

(٢١٨) نفسه ، ١٣/٢٩٢.

(٢١٩) نفسه ، ١٣/٢٨٢.

وفي عصر السلاجقة والايوبيين كان اليهود والمسيحيون يعاملون ((معاملة بلغ من تسامحها ولينها ان المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب الى الحكام السلاجقة ان ياتوا اليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين))[٢٢٠].

وفي ظل العثمانيين ((تمتع المسيحيون واليهود بقدر كبير من الحرية الدينية وسمح لهم بتطبيق شرائعهم في الامور التي لا يكون المسلمون طرفا فيها .. وقد فضلت الاقاليم التي وقعت تحت الحكم الاسلامي – رودس ، اليونان ، البلقان – هذا الحكم على احوالها السابقة في ظل حكم الفرسان او البيزنطيين او البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتات ان الاحوال فيها صارت تحت حكم (السلطان) الى احسن مما كانت عليه ايام ال هبسبرج))[٢٢١].

ويقارن ديورانت بين سليمان القانوني وبين المسيحيين الذين ذهبوا الى ان الانسجام الديني امر ضروري للقوى الوطنية ، فيجده ((اجرأ واكرم منهم)) ذلك انه ((رخص للمسيحيين واليهود في ممارسة ديانتهم في حرية تامة. وفي نوفمبر (تشرين الثاني) (١٥٦١م) حين كانت اسكتلندا وانجلترا والمانيا اللوثرية تعتبر الكاثوليكية جريمة كما كانت ايطاليا واسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، امر سليمان بالافراج عن سجين مسيحي ، غير راغب في تحويل اي فرد عن دينه بالقوة. لقد جعل من امبراطوريته ماوى امنا لليهود الفارين من محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال))[٢٢٢].

وهو يضرب مثلا آخر .. ففي ازمير كان للمسلمين خمسة عشر مسجدا وللمسيحيين سبع كنائس ولليهود سبعة معابد. ليس هذا فحسب بل ان السلطات العثمانية كانت تتولى في تركيا والبلقان حماية الكنيسة اليونانية الارثوذكسية ضد اي تحرش او ازعاج اثناء العبادة والصلوات[٢٢٣].

بايجاز شديد ((فان المسلمين – كما يلوح – كانوا رجالا اكمل من المسيحيين ، فقد كانوا احفظ منهم للعهد ، واكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م))[٢٢٤].

---

(٢٢٠) نفسه ، ٣٢٢/١٣.

(٢٢١) نفسه ، ١١٣/١٦، ١١٠.

(٢٢٢) نفسه ، ١٢٥/٢٦.

(٢٢٣) نفسه ، ١٣٦/٣٠–١٣٧.

(٢٢٤) نفسه ، ٣٨٣/١٣.

[٣]

ومع التسامح والحرية كان هناك مبدأ تكافؤ الفرص منحه المسلمون مخالفيهم في الدين، فيما لم تفعله اية قوة حاكمة في الارض مع مخاليفها. اننا نجد هؤلاء ، في نطاق الحياة الاسلامية ، يعبرون عن طاقاتهم وقدراتهم ، ويرتقون السلم صعدا الى فوق ، جنبا الى جنب مع مواطنيهم المسلمين ، ويتسنمون الادارة ويبنون الحضارة ويحظون بالمال ويعيشون حياتهم الاجتماعية كاملة دون عدوان او انتقاص.

لقد ظل اليهود والنصارى ((يعيشون مع المسلمين في امن ووثام ، واثروا ، وبرعوا في العلوم والمعارف ، وارتقوا في بعض الاحيان الى مناصب عالية في الحكومة .. وكان المسلمون والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل حرياتهم .. وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم ، وهم آمنون ، من جميع اوروبا المسيحية الى (عالم الاسلام) طلابا للعلم ، او زائرين ، او مسافرين))[٢٢٥].

فلا نعجب اذن اذا وجدنا ابناء الجماعات غير الاسلامية يهرعون للانتماء الى الاسلام ، ولا ندهش اذا عرفنا ان حرية الاختيار ، وقوة الجذب والاقناع في هذا الدين ، هما وحدهما اللذين قادا هذه الحشود الى الانتماء للاسلام بعيدا عن رهب القسر والارغام ، وعن رغب الفرص والمنافع. فها هو ديورانت يؤكد ، كما اكد عشرات الباحثين من قبله ، كيف انه في بيئة لاتعرف ابجديات الارهاب الديني ، وتفتح صدرها للمخالفين لكي يحظوا بكافة المكاسب الحياتية المتاحة للمسلمين انفسهم ، لن يكون الانتماء للاسلام الا اختيارا حرا وبقوة هذا الدين الذاتية ((وفي وسعنا ان نحكم على ما كان للدين الاسلامي من جاذبية للمسيحين ، من رسالة كتبت في عام (١٣١١م) تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي الف ، كلهم ماعدا خمسمائة منهم من ابناء المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام. وكثيرا ماكان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين))[٢٢٦].

فعلى ((الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الاولون ، او بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين والوثنيين ، الا عددا قليلا جدا منهم ، وكثيرون من اليهود .. وحيث عجزت الهلينية عن ان تثبت قواعدها بعد سيادة دامت الف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الالهة الوطنية ولم تغلبها على امرها ، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي ، في هذه الاقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الاسلامية ، وامن السكان بالدين الجديد واخلصوا له

---

(٢٢٥) نفسه ، ٢٩٦/١٣-٢٩٧، وانظر : ١٣١/١٣-١٣٢.

(٢٢٦) نفسه ، ٢٩٧/١٣.

واستمسكوا بأصوله اخلاصا واستمساكا انساهم بعد وقت قصير الهتهم القدامى ، واستحوذ الدين الاسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين وحتى الاندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على اخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها ، واوحى اليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الايام (مئات الملايين) من الانفس ، يوحد هذا الدين بينهم ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية))[٢٢٧].

(٢٢٧) نفسه ، ١٣٣/١٣.

لوقا :

أخلاق النبوة

[١]

الحديث عن مزايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يطول ، وقد قيل فيه الكثير وكتب الكثير ، وهو مع ذلك مشروع مفتوح ، لان هذه المزايا اشبه بمنجم للمعادن الثمينة تمد الباحثين وتعدهم دائما بالمزيد. انما نريد هنا ان نتابع بعض هذه الخصائص المتألقة كما يراها رجل نصراني حباه الله ذكاء في العقل وألقا في القلب والوجدان مما اتاح له معهما ان يعايش هذه الخصائص فتهزه حتى الاعماق ، حتى ليكاد احيانا وهو يكتب عنها ، ان يصرخ ، ان يبكي ، ان ترتعش اوصاله وتسري القشعريرة في جسده.

ولم يتأت هذا – للأسف – لكثير من المسلمين انفسهم الذين جعلهم اعتيادهم القراءة عن خصائص كهذه ، وتحدثهم بها ، لا يهتز لهم معه طرف ولا تختلج فيهم جارحة او يخفق فؤاد. اما هذا الرجل ، النصراني ، الذي يشع قلبه محبة للحق ، وعشقا لخصائص النبوة العليا ، فان له قصة اخرى.

انه طبيب من اقباط مصر ، اخوال ابراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، تميز منذ شب عن الطوق بنظرته الموضوعية واخلاصه العميق للحق ، ورغم الحاح ابويه على تنشئته على النصرانية مذ كان صبيا ، فانه كثيرا ماكان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف الى كتاب الله وسيرة رسوله (عليه الصلاة والسلام) .. بل انه حفظ القرآن الكريم ولما يتجاوز العاشرة من عمره.

ألف عددا من الكتب ابرزها (محمد : الرسالة والرسول)[٢٢٨] و(محمد في حياته الخاصة)[٢٢٩]. ولا ننسى ان نشير الى انه تزوج من واحدة من اديبات مصر المعروفات ، الا وهي السيدة (صوفي عبد الله) فكانت له خير ظهير في معركة الحق والصدق التي خاضها عبر كتاباته المتألقة في بيئة لم تكن تتقبل الكثير مما كتب او قال.

---

(٢٢٨) الطبعة الثانية ، دار الكتب الحديثة ، (القاهرة –١٩٥٩م).

(٢٢٩) سورة الكهف ، (الآية ١١٠).

[٢]

لنبدأ من حجر الزاوية ونقطة الانطلاق ، ما دام ان المتحدث رجل قد اكتوى بخرافة التأليه .. احاطت به وبقومه من كل مكان ، فلم يقدر ان يكسر طوقها ويتمرد عليه الا من اوتي جرأة في الحق ، وذكاء حادا ، وحرصا عميقا وعزما اكيدا .. ان رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) هي منذ اللحظة الاولى رد على هذه الاكذوبة التي ساقت المسيح (عليه السلام) وغيره من الانبياء والاتباع الى مواقع الالوهية فخرجت برسالاتهم عن جوهرها وروحها .. ورسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) تجيىء منذ البدء لكي ترد النبوة عامة الى مكانها الحق من (البشرية) والتوحيد ، فتنصف اول ما تنصف المسيح بن مريم (عليه السلام) ، وتدافع اول ما تدافع عن الحقيقة المجردة الخالصة التي عد تزييغها ظلما عظيما ((لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الاسلامية .. وقد درجت شعوب الارض على تأليه الملوك والابطال والاجداد ، فكان الرسل ايضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الالوهية بسبب من الاسباب ، فما اقرب الناس لو تركوا لأنفسهم ان يعتقدوا في الرسول او النبي انه ليس بشرا كسائر البشر وان له صفة من صفات الالوهية على نحو من الانحاء. ولذا نجد تؤكيد هذا التنبيه متواترا متكررا في ايات القرآن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : ((**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ...))[٢٣٠].

وفي تخير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة ، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة او الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الاحوال. بل نجد ماهو اصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى : ((**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ**))[٢٣١].

وظاهر في هذه الاية تنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه الى حقيقة مهمته ، وحدود رسالته التي كلف بها ، وليس له ان يعدوها ، كما انه ليس للناس ان يرفعوه فوقها))[٢٣٢].

ويمضي نظمي لوقا الى القول بأن ((توكيد البشرية بحدودها للرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس بلفظ الآيات فحسب ، بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها وتاريخ الرسول كله. ان رسول الاسلام هو اول رسول بعث الى الناس وانبرى لدعوتهم الى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للابصار الخالبة للالباب. فقد اريد للناس ان يشعروا ان (رسولهم)

---

(٢٣٠) دار الهلال ، (القاهرة–١٩٦٩م).

(٢٣١) سورة الشورى ، (الآية ٤٨).

(٢٣٢) محمد الرسالة والرسول ، ص٨٥–٨٦.

مثلهم حقا وصدقا ، لا يملك من الخوارق اكثر مما يملكون ، وليس له من سلطان عليهم ، وانما الامر اليهم كي يكون اهتداؤهم نابعا من قدراتهم البشرية ، وعن اقتناعهم الذاتي بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير .. لقد كان لابد للعقل البشري في طور رشده ان تأتيه الدعوة الى الهداية باسلوب عقلي صرف يحترم فطرته وبداهته. وتلك قرينة اخرى على ان دعوة الاسلام جاءت موافقة للطور الطبيعي للبشرية تاريخا ، ونصوحا ، ورشدا))[٢٣٣].

وثمة واقعة في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تؤكد (بشريته) بصيغة اخرى رغم كونها صيغة محزنة ، مؤلمة ، لكن اية مساحة في نسيج هذه السيرة المتفردة تخلو من حزن او الم ؟ بل ان المرء ليكاد يقول بأن حياة النبي تكاد تجتمع عليها الآلام والاحزان منذ لحظة بدئها حتى المنتهى.

ها هنا بصدد نفي شبهة الالوهية .. بصدد تأكيد البشرية .. تحكي الوقائع نفسها لكي تنفي وتؤكد ((لقد تخطف الموت فلذات اكباد (الرسول صلى الله عليه وسلم) ليكون ذلك ايذانا بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بني ادم ، فتسقط دعوى الناس في التقصير عن الاهتداء به ، فلو كان يجري عليه غير الذي يجري على البشر لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول ، فأين هم منه ؛ وكيف يكلفون بما لاطاقة لهم به ؟ بل هو (مثلكم) لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة. ففيه قدوة سوية واسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء))[٢٣٤].

[٣]

ان هذا ينقلنا الى ملمح اصيل اخر من ملامح نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يكاد يكون امتدادا لسابقه وتاكيدا له بالفعل والممارسة والاسوة الحسنة.

انه رفض التميز ، والتشبث بالموقع البشري الى حد البساطة المذهلة ، والتواضع العجيب الذي يرغم المرء على ان يقول ان رجلا كهذا لا يمكن الا ان يكون قادما من عند الله ، متصلا باسباب السماء ، قديرا بالتالي على ان يلزم نفسه ، وهو في القمة العليا ، على ان يكون دائما مع اصحابه .. واحدا منهم ... رجلا عاديا يأكل كما يأكلون ، بل ادنى مما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون ، بل ادنى مما يعيشون ... ((رجل فرد هو لسان السماء. فوقه الله لا سواه. ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين. ولكن هذا الرجل يأبى ان يداخله من ذلك كبر. بل يشفق ، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته ، قبل ان يحاربه

---

(٢٣٣) نفسه ، ص٨٦-٨٩.

(٢٣٤) نفسه ، ص٨٨.

في سرائر تابعيه. ولو ان هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما انعم من الهداية على الناس، وما تم له من العزة والايادي ، وما استقام له من سلطان ، اعتد بذلك كله واعتز، لما كان عليه جناح من احد لانه انما يعتد بقيمة ماثلة ويعتز بمزية طائلة. يطريه اصحابه بالحق الذي يعلمون عنه فيقول لهم : ((لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم ، انما انا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله)). ويخرج على جماعة من اصحابه فينهضون تعظيما له ، فينهاهم عن ذلك قائلا : ((لا تقوموا كما يقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا))[٢٣٥].

وحتى اللحظات الاخيرة من حياته والرسول (صلى الله عليه وسلم) يكافح ضد الزهو والتميز والاعجاب ، متشبثا ببطولة نادرة بالموقع الذي أصر عليه .. بالتواضع الذي ليس بعده تواضع .. وبتجاوز الذات الذي ليس بعده تجاوز .. في اخر خطبة له ، وقد تحامل على نفسه وبرز الى المسجد قال : ((ايها الناس الا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن اخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه .. الا وان احبكم الي من اخذ مني حقا ان كان له ، او حللني فلقيت ربي وانا طيب النفس)) ! .. ولا يملك الطبيب النصراني الذي تبهره القيم المتفردة ، وتهزه المواقف الانسانية العليا ، الا أن يصرخ وهو يتابع هذه الواقعة ((فما من مرة تلوت تلك الكلمات او تذكرتها الا سرت في جسمي قشعريرة ، كأني انظر من وهدة في الارض الى قمة شاهقة تتخلع الرقاب دون ذراها. ابعد كل ما قدمت ياابا القاسم لقومك من الهداية والبر والرحمة والفضل ، اذ اخرجتهم من الظلمات الى النور ، تراك بحاجة الى هذه المقاصة كي تلقي ربك طيب النفس ، وقد غفر لك من قبل ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ولكن العدل عندك مبدأ . العدل عندك خلق وليس وسيلة))[٢٣٦].

وتكاد كلمات هذا النصراني الامين ، الذي تفيض عينه كلما عرف من الحق ، تكاد ان تختصر الامر كله في هذه اللمسات المؤثرة التي يختتم بها كتابه عن رسول الله وعن رسالته .. فيتساءل ويقارن .. يسخر وينبهر .. يضحك ويبكي ويخلص الى النتيجة الحاسمة والقول الفصل الذي تتهافت عنده كل دعوى باطلة ويتضاءل كل تحريف او تزييف ((ما سلطان هؤلاء الاغرار الهلافيت [من حكام العالم] في جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم ، يا لسان السماء، ويا حاكم الدنيا ، ويا من لا يعلو سلطانك على اتباعك من بني آدم سلطان ، فليس فوقك الا المهيمن الاحد ؟ هباء سلطان اولئك جميعا مهما علوا واستطالوا الى جانب سلطانك او اهون من الهباء. وما فتنك – اذ فتنهم ودار برؤوسهم – سلطان ، وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار والمطاردة الى النصر المؤزر ، والفتح المبين .. والسؤدد الذي لم ينبغ لاحد من قبل

---

(٢٣٥) نفسه ، ص١٧٩-١٨٠.

(٢٣٦) نفسه ، ص١٨٢-١٨٣.

ولا من بعد .. فما دار لك رأس ، ولا ركبتك خيلاء ، ولا اصابك تيه وزهو ! بل كنت تمشي في الارض هونا وتزداد مع نمو سلطانك تواضعا لله وخفض جناح للمؤمنين ! وكنت تقول وتعيد القول لا تمل من تكريره : ((انما انا عبد اكل ما يأكل العبد ، واجلس كما يجلس العبد)) ! ان لباب المسألة كلها انك كنت اكبر من سلطانك الكبير.. [يدهش رجل بين يديك ويرتعد] فتقول : ((هون عليك ! لست ملكا ، انما انا ابن امراة كانت تأكل القديد بمكة)) .. ان مجد هذه الكلمة وحدها ليرجح في نظري فتوح الغزاة كافة وابهة القياصرة اجمعين. انت بأجمعك في هذه الكلمة وما اضخمها ايها الصادق الامين!))[٢٣٧].

أيضاً ، فان سيرة رسول الله (عليه افضل الصلاة والسلام) تمنح دارسيها بالحساسية والذكاء المطلوبين ، حشودا اخرى من القيم والتعاليم. ونحن من اجل وحدة الموضوع لن نحاول ان نتابع نظمي لوقا وهو يسعى لكي يقطف منها جميعا ، انما نكتفي بمتابعة الخط الاصيل الذي بدأنا به هذه الصفحات ، اسقاط دعوى الالوهية ، اعلان الحرب على الكبر والزهو والخيلاء والاندفاع ببطولة نادرة صوب مواقع التجرد والتواضع.

ثم ها نحن نقترب من ملمح اخر يرتبط بهذا الخط ويعتبر امتدادا طبيعيا له : الصدق الباهر مع الذات ، والتوحد الذي قل نظيرة بين الفكر والعمل ، بين الايمان والتنفيذ ، وبين القيم والممارسات .. اذ ليس ثمة اي ظل لازدواجية مهما كانت درجتها بين هذه الثنائيات التي قدر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ان يطويها بارادة عزت على اولي العزم من الرجال ، وبتفوق لم يقدر عليه الا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. لننظر فان ((اول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ ايمانه متى امتحنته الخطوب ولقي في سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد .. وأيا كان المقياس الذي تقاس به دعوة الاسلام ، فلن نجد فيها دليلا واحدا ولا شبه دليل على ان الغرض منها خدمة شخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قريب او بعيد.

كان موفور الرزق موسعا عليه ، فبدل من ذلك ضيقا وشظفا. كان امنا في سربه فبدل من ذلك قلقا ومطاردة وارتياعا. كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه ، بالنسب الرفيع والحسب المنيع ، فبدل من ذلك اهانه وتحقيرا وازدراء. كان وحيدا اعزل لا امل له في نصرة احد على قومه ، وهم ائمة الشرك وحراس الكفر واولياء عاصمته المستفيدون منه. اما اهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم ، واوذوا بسببها في ارزاقهم وفي اعمالهم وفي اشخاصهم وتعرضوا لما تعرض له من التهلكة اكثر من مرة. وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفي عليهم شيئا من المنافع ، فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب البشر ، او حظا من نعيم الدنيا

---

(٢٣٧) نفسه ، ص١٨٧-١٨٩.

ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس فضلا عن آله. كلا فهذه نبوة وليست ملكا ، ولا وراثة في النبوة. كلا ! بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل ذلك من سيادة وامتياز وطيد الاركان. فالناس في هذا الدين سواسية كأسنان المشط. وهذا الرسول هو القائل : (انه لافضل لعربي على اعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى ، وأن عصبية الجاهلية موضوعة). دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا جميعا الا الخسران ، ولا تحمل لقومه – على افتراض نجاحها وظفرها – الا ذهاب الرئاسة وضياع الجاه. بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين ، ولم يظفر صاحبها بمغنم ، ولم يكن حظه من اقبال الدنيا الا اقل من حظ عامة جنده وفقراء رعيته ، لم يجعل لفئة من الناس فضلا على فئة ، بل صار الامر كله للمؤمنين كافة .. انها دعوة مبدأ وايمان وليست مطية هوى))[٢٣٨].

ويتساءل نظمي لوقا ((بماذا يقاس الايمان ان لم يكن مقياسه الثبات عليه في اشد الظروف حلكة وادعاها لليأس ؟ وان لم يكن مقياسه الصبر في سبيله على المكاره ؟ وانها لمكاره من كل نوع لعل المعنوي منها اقسى من المادي ، ولعل حرج النفس فيها اعتى من الضرب والايذاء البدني بالغا مابلغ من العنف. لم يساوم هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضع رسالته على كثرة فنون المساومات واشتداد المحن .. فحيثما تعرض الامر لدعوته وعقيدته ، فلا محل لمجاملة مهما قويت بواعثها .. اهذا شأن من يملك من الامر شيئا ؟ أهذا شان من لا تسيطر عليه قوة قاهرة اقوى من مراده وهوى نفسه ، هو ازاءها العبد المأمور ؟ لذلك هو الرسول الامين حقا الذي يقول له ربه ((**لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ**)) [٢٣٩].

فلا مساومة ! وكيف يساوم من لا يملك من الامر شيئا (لقد) ضرب وشج وحقر في كل مكان ، فلم يعنه من ذلك شيء سوى خوفه ان يكون بالله عليه غضب ! فالا يكن ربه غاضبا عليه فهو لا يبالي (وقريش) تمنيه بانقلاب الحال الى ملك مؤثل وثراء مذلل ، فلا يفكر في شيء من ذلك طرفة عين ويعرض عنه بغير مبالاة فألا يكن هذا هو الصدق والصادق فقد ارتكست مقاييس تجعل من صاحب هذه المقاييس مساوما مغامرا طالب مغنم))[٢٤٠].

وكيف يكون طالب مغنم هذا الذي دانت له جزيرة العرب فلم يشبع من اللحم والخبز المرقق حتى لحق بالرفيق الاعلى ؟ كيف ، وان الشهر والشهرين ليمران دون ان توقد في بيته

---

(٢٣٨) نفسه ، ص١٥٧-١٥٩.

(٢٣٩) سورة آل عمران : (الآية ١٢٨).

(٢٤٠) نفسه ، الصفحات ١٥٩-١٦٨.

نار ؟ كيف وهو واهله يعيشون الاسابيع الطوال على الاسودين : التمر والماء ؟ ومالنا الا نرجع الى نظمي لوقا وهو يدخل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكي يحدثنا عما لقيه هناك :

((كل كلام فضول غث في التعليق على زهد الرجل الذي لم يؤت احد في زمانه سلطانا على اصحابه كما أوتي ، لولا انه يرى برهان ربه رأي العيان فتصغر في عينه الدنيا وما فيها ، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، ويؤثر على اهله ولو كان بهم خصاصة. ولا يدخر لغده شيئا. اليس قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي في قوت عياله ، ومن هو ، هو السيد غير منازع ، وقد اوتي الفتح المبين ، وعنت له رؤوس المعاندين. ولكنه كان مشغولا بأن يسود نفسه لا بأن يسود الناس .. قمة شاهقة في الزهد لا يطيقها كثيرون. فلا عجب ان نرى زوجاته يتضجّرن بهذا الضيق ، وهو الذي يملك خمس الغنائم بشريعة القرآن ، فيهلك ذلك في الصدقات ولا يستبقي لاله من الطيبات شيئا .. وهن يرين زوجات ادنى المسلمين شأنا اوسع منهن رزقا واحظى بالرفاهية والزينة .. ذلك هو الرجل الذي كان الزهد عنده طبعا لا ضرورة ، وغنى نفس لا فقرا ولا عجزا. فانه كان اقدر القادرين على البذخ لولا ان الاقتدار على نفسه كان مقدما عنده على الاقتدار على المغانم والطيبات))[٢٤١].

وذلكم هو الرجل ((الذي حول الملايين من عبادة الاصنام الموبقة الى عبادة الله رب العالمين. ومن الضياع والانحلال الى السمو والايمان ، ولم يفد من جهاده لشخصه او اله شيئا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام ؟))[٢٤٢].

[٥]

نبي هذه قدرته على تجاوز اغراءات الحياة الدنيا .. على ضرب المثل المعجز في التوحد مع الذات ، وفي العطاء المتواصل الذي لا يقابله اخذ بأي منطق او مقياس مما يعرفه طلاب المغانم والمتاع .. انه هو هو .. في كل موقف او تصرف او سلوك .. وحدة مذهلة لا تتجزأ ولا تتناقض .. وحاشاه .. فمن كان يملك كل هذه الارادة والتجرد ، أفيتنازل ولو لحظة من زمان ، ولو قيد انملة في مساحات المكان فيندفع – وحاشاه – في التيار المضاد لكل مواقفه وسلوكياته ومعطياته ؟! ايمكن لساذج او ابله ان يصدق هذا ؟ الا يكون المتوهم خبيثا مسموما؟

من أجل ذلك حاول هؤلاء ، وقد اعيتهم السبل ، ايجاد ثغرة ولو ضئيلة لشن الهجوم على هذه الشخصية الفذة المتوحدة .. حاولوا ان يدخلوا من تجربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في زيجاته التسعة ! أتراهم قدروا على ذلك ؟ ابدا .. والموضوع قد نوقش بما فيه الكفاية وعلى

---

(٢٤١) نفسه ، الصفحات ١٨٣-١٨٦.

(٢٤٢) محمد في حياته الخاصة ، ص١٤.

ضوء كافة التفاصيل والجزئيات الخاصة به ، فجاءت النتائج لكي تضرب وجوه الطاعنين قتشوهها.

لكننا هنا نريد ان نقتبس بعض ما قاله هذا الكاتب النصراني في الموضوع الذي خصص له كتابا سماه (محمد في حياته الخاصة).

ينطلق نظمي لوقا من التحليل التالي لشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((فلقد كان يمتلك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه ، فهي قوة له تحسب في مزاياه وليست ضعفا يعد في نقائصه.

لم يكن (صلى الله عليه وسلم) معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به ، لانه يسخرها في كيانه في المستوى الذي يكرم به الانسان حين يطلب ما هو جميل وجليل في الصورة الجميلة الجليلة التي لا تهدر من قدره ، بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره. وبيان ذلك في أمر بنائه بزوجاته التسع (رضي الله عنهن) ..))[٢٤٣].

ينتقل بعد هذا لكي يتحدث بالتفصيل عن دوافع هذه الزيجات وظروفها. ويمكن للقارىء ان يرجع الى الكتاب الذي بين ايدينا لمتابعة التفاصيل ، لكننا هنا نكتفي بالتأشير السريع لكي ما نلبث ان نقف مع المؤلف عند واقعة لها ثقلها ومغزاها بصدد الموضوع كله ، وهي بحد ذاتها كفيلة بأن تصفع كل الاستنتاجات الخبيثة والتأويلات الماكرة التي لا سند لها من واقع او يقين .. ((تسع زوجات .. عدد ليس بالقليل ، ولكن العبرة ليست بالعدد ، العبرة بالظروف التي افضت به الى الجمع بينهن ، ومنها ظروف اجتماعية ترجع الى الاحداث التي كان هو محورها ولا يمكن ان يعفي نفسه من المسؤولية والالتزام ببعض آثارها ، ومنها ظروف نفسية مرجعها الى عواطفه ومراميه. ولا نفهم هذه الظروف حق فهمها الا اذا قدرنا المرحلة الطويلة من عمره قبل زواجه من التسع (رضي الله عنهن). مرحلة طويلة خطيرة من عمره ، مداها ربع قرن من الزمن، هي فترة الشباب العارم والرجولة الفتية ولم يكن فيها زوجا للعدد العديد من الحريم. بل كان بعل امرأة واحدة هي خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) تكبره بنيف وخمسة عشر عاما. تزوجها وهو في الخامسة والعشرين ، وهي فوق الاربعين ، وقيل وهي تناهز الخامسة والاربعين وماتت وهي فوق الخامسة والستين على الاقل ، وكان هو في الخمسين. ربع قرن لم تكن فيه هذه الزوجة الواحدة مقنعا لشاب في سن ابنها لو كان هذا الزوج أخا شهوة ، لا نقول جامحة ، بل متوقدة ذات سلطان على نفسه. ربع قرن لم تكن فيه الزوجة الواحدة فرضا مفروضا عليه ، والبيئة لا تعرف الا التعدد الذي لا حصر له ، وليس للتوحد في الزواج قيمة متفق عليها هناك في ذلك الزمن. ومع ذلك لم يتزوج محمد (صلى الله عليه وسلم) طيلة تلك الفترة الطويلة الا

---

(٢٤٣) نفسه ، ص٣٩-٤٠.

خديجة المسنة (رضي الله عنها) ، ولم ينشد سواها صاحبة بزواج او بغير زواج. لم يكن اخا لهو وشراب ومجون وميسر كسائر نظرائه من ابناء البيوت المرموقة في قريش لتلك الحقبة من الزمن. ولو كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أخا مجانه لما كان ذلك مستغربا لدى احد ، الا انهم كانوا جديرين ان يتشدقوا به اول مايتشدقون بالمطاعن على الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم نهض بالدعوة الى عبادة الله وما ينبني عليها من التعفف والاستقامة والطهر .. (انهم) ما تورعوا عن التلفيق في التهم ، فما الذي اسكتهم عن هذه لو انها كانت صحيحة مشاهدة ؟ ولكنها لم تخطر ببالهم على كثرة ما رموه من البذاء ، لسبب واحد لا يعقل سواه : انه كان في سلوكه الشخصي على نقيض ذلك ، وكان مشهورا بالتزام العفة والطهر والبعد عن الشهوات ...))[٢٤٤].

ان واحدة من اشد نقاط النبوة تألقا واقناعا تكمن في السلوك او توحد السيرة. ذلك ان الله سبحانه جعل كل واحد من انبيائه (عليهم السلام) ((أسوة حسنة)) ، فلا يمكن لهذه ((الأسوة)) الا ان تتوحد ، وتنسجم ، وتشع في كل جزئية من جزئياتها صفاء وألقا ونظافة واستقامة وطهرا وعفافا والا فلن يكون نبيا ذلك الذي يتمرد على ارادة الله باتخاذه اسوة حسنة.

ان تناقضا كهذا لايمكن ان يكون بحكم العقل والمنطق والبرهان .. لا يمكن كذلك ان يكون بحكم وقائع النبوة ذاتها.

فبمجرد مقارنة بسيطة ، عابرة ، بين سلوك (النبي) وسلوك اي فيلسوف او مفكر وضعي ، او قائد او زعيم ممن تعج بهم مسيرة التاريخ ، يمكن ان تتبين لنا ، دونما تمحل او التواء ، كيف يكون الفارق الحاسم الكبير بين هؤلاء وهؤلاء ..

ولقد كان نظمي لوقا محقا عندما اطال الوقوف عند هذه المسألة بالذات ، اذ انها – بحق – اكثر ثقلا وحضورا من اي دليل عقلي او برهان !

---

(٢٤٤) نفسه ، ص٤٢-٤٤.

ستودارد :

التحرير .. والتوحيد

يتميز المؤلف الامريكي (لوثروب ستودارد) بسعة اطلاعه على معطيات العالم الاسلامي الحديث ، وبخاصه في العقود الاولى من هذا القرن. ويعد كتابه (حاضر العالم الاسلامي)[٢٤٥] من اهم المؤلفات الحديثة التي عالجت قضايا هذا العالم ومجريات احداثه عبر النصف الاول من هذا القرن واخريات القرن الماضي ، وقد زادته قيمة التعليقات والاضافات الخصبة التي الحقها الامير شكيب ارسلان رحمه الله بطبعته العربية.

يقدم ستودارد مادة غزيرة موزعة على العديد من الموضوعات ، لكنه يركز ، بدرجة خاصة ، على عدد من المحاور التي سنقف عندها قليلا.

[١]

يتحدث عن ظهور الاسلام وانتصاره ، ثم انتشاره العجيب في العالم ، مختزلا حيثيات الزمن والمكان ، وهو يعتبر ذلك ظاهرة عجيبة في تاريخ البشرية بل يعده ((النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الانسان))[٢٤٦] ، فلقد ظهر هذا الدين ((في امة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ، وبلاد منحطة الشأن فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الارض ، ممزقا ممالك عالية الذرى مترامية الاطراف ، وهادما اديانا قديمة كرت عليها الحقب والاجيال ومغيرا ما بنفوس الامم والاقوام ، وبانيا عالما حديثا متراص الاركان هو عالم الاسلام))[٢٤٧].

ان ستودارد ، ومنذ اللحظة الاولى ، كما يبدو واضحا ، يضع يده على ابعاد التغيير الاسلامي دون ان يغفل ايا منها : الهدم واعادة البناء ، استبدال خرائط العالم على سطح الارض، وتغيير النفوس في الاعماق ذلك الذي يعد اساسا لهذه المتغيرات كلها.

يواصل الرجل تحليله للظاهرة الفريدة فيقول ((كلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليه ، زادنا ذلك العجب العجاب بهرا فارتددنا عنه باطراف حاسرة. عرفنا ان سائر الاديان العظمى انما نشات ثم انشات تسير في سبيلها سيرا بطيئا ملاقية كل صعب ، حتى كان

---

(٢٤٥) ترجمة : عجاج نويهض ، تعليقات وحواشي شكيب ارسلان ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر، (بيروت–١٩٧١م).

(٢٤٦) حاضر العالم الاسلامي ، ١/١.

(٢٤٧) نفسه ، ١/١.

ان قيض الله لكل دين منها ما اراده لها من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم اخذ في تاييده والذب عنه حتى رسخت اركانه .. انما ليس الامر كذلك في الاسلام الذي نشا في بلاد صحراوية تجوب فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الارض مجتازا افدح الخطوب واصعب العقبات دون ان يكون له من الامم الاخرى عون يذكر ولا ازر مشدود. وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مبينا عجيبا ، اذ لم يكد يمضي على ظهوره اكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من (البرانس) حتى (هملايا) ومن صحارى اواسط اسيا حتى صحارى اواسط افريقية))[٢٤٨].

[٢]

فالظروف التاريخية الخارجية ، اذن ، لم تهيء للاسلام فرصة جاهزة تعطينا مفتاح انتصاره العجيب ((دون عون يذكر ولا ازر شديد)) وعلى ((شدة المكاره)) التي كانت تقف له بالمرصاد .. اذن فانه يتحتم على الباحث ان يرجع الى الاسلام نفسه لكي يبحث عن المفتاح. وهو يكاد يضع يده على الامر كله عندما يجد كيف ان هذا الدين ((كان دينا سهل الاكتناه والمأخذ ، واضحا جليا)) وكيف ((كان جوهر تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم) الوحدانية مع السنة المعلومة. فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن **لا اله الا الله وبأن محمداً رسول** من لدنه كما انزل في القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة كالصلاة والصوم والحج ، انما هذا فحسب هو جملة الاركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم صعدوا في الارض يفتحون العالم الشرقي))[٢٤٩].

ذلك هو السر اذن ، انها العقيدة نفسها : ليس فقط الجلاء والوضوح والتحديد الرياضي المرسوم الذي غاب عن الاديان والمذاهب والفلسفات الاخرى ، بل هنالك ماهو اهم من هذا كله، بل قبل هذا كله : جوهر هذه العقيدة وقاعدتها وعصبها وروحها وهدفها : **(لا اله الا الله محمد رسول الله)** بكل ما تعنيه العبارة من معنى التوحيد المطلق لله (سبحانه وتعالى) ، والاعتقاد المطلق بتفرده بالحاكمية ، والتسليم المطلق لامره ونهيه ، والتصديق المطلق بنبوة رسوله (عليه الصلاة والسلام) ، والتحقق – بالتالي – بكافة مطالب ومقتضيات التعاليم التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الله (سبحانه وتعالى).

---

(٢٤٨) نفسه ، ١/١-٢.

(٢٤٩) نفسه ، ١/٧-٨.

تلك هي العقيدة التي زلزلت النفوس ، فككتها وأعادت صياغتها من جديد .. لقد اصبح المسلم ، وقد امتلك حتى الاعماق هذه القناعات كافة ، مستعدا تماما لان يمضي في مجابهة التحديات ، ليس فقط لكي ينصر كلمة الله ويعزز وجودها بمواجهة العدوان ، بل لكي يواصل الطريق ، فيحرر العالم كله من اجل الا يظل هنالك عدوان على الحق المطلق الذي جاءت به هذه العقيدة ، وعلى الانسان الذي اريد له ان يتحرر من اي افتئات او عدوان.

بهذا الشعار تحقق المسلمون في ذواتهم ، وبه انطلقوا لكي يغيروا مصائر العالم .. فكان السر ، والتعليل ، والمفتاح.

[٣]

وبسبب من هذا المغزى التحريري العميق للعقيدة التي جاء بها الاسلام وللفصل التاريخي الذي نفذه ابناؤها في الزمن والمكان ، يقف ستودارد لكي يقول ان ((الاسلام في عهده الاول انما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة ودينا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة)) ويقارن هذا بما ((طرأ على العالم الاسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي)) فيفصل بين الحالتين ، ويشير الى ان الرؤية الموضوعية تقضي بهذا ، وتقود صاحبها ، دونما اي اسقاطات بعدية الى ((جوهر الاسلام وحقيقة صفائه ، فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار (انما هي ديمقراطية شورية جوهرا واصلا وعدو شديد للاستبداد). وقد أجمل فامباري هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله (ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضي باسيا الغربية الى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب في ذلك انما هو استبداد امراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم .. وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين .. وناصبوا المذاهب الشورية والاصول الحرة العداء ..))[٢٥٠].

وهو يضرب مثلا على الفارق الحاسم بين العصرين ، بالخلافة الاسلامية في عقودها الاولى ، فلقد ((كانت تلك الخلافة شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة واركانه ، فالامة هي التي اختارت أبا بكر وعمر [رضي الله عنهما] وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأي الامة وحكمها وذلك على مقتضى الشريعة التي اوحى الله بها الى نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) وهي القرآن الكريم))[٢٥١]. كما انه يقارن بين الاسلام وبين احد الاديان الشرقية السائدة وهو الهندوسية ، فكأنه يضع الحرية في مقابلة مع الاستبداد، فالاسلام

---

(٢٥٠) نفسه ، ٤/٤٣-٤٤.

(٢٥١) نفسه ، ١/٥.

((دين منير يشتمل على المنازع الحرة العديدة ، اما الهندوسيون فلا شيء من هذا في دينهم ، فان تقاليدهم السياسية لم تبرح الى اليوم منغمسة في حمأة الاستبداد ..))[٢٥٢].

بل ان ستودارد يمضي ابعد من ذلك فيجد في هذه النزعة التحريرية المتأصلة في الاسلام ((خير اساس يصح ان تبنى عليه الانظمة السياسية الحديثة تامة الاجهزة ، وافيه بمقتضيات الحضارة والعصر)) ، ويمضي لكي يستشهد بأقوال اثنين من الباحثين المعروفين بهذا الخصوص .. ((ارمينيوس فامباري)) الذي يقول : ((كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر اديان العالم شورى وديمقراطية ، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء .. فان كان العالم قد شهد حقا ، منذ اول عهد العمران البشري الى اليوم ، حكومة شورية دستورية فهي لعمري حكومة الخلفاء الراشدين)).

والعلامة ((ليسبار)) الذي يقول في مقال له سنة (١٩١٠م) ((كان محمد (صلى الله عليه وسلم) صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته. وقد جرى العلماء المسلمون وهم اقطاب الدين وزادة الشرع الشريف على هذا النهج ، وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون. في شؤون مصالح المسلمين فالشريعة الاسلامية هي ديمقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد. وباعتبارها شريعة اساسية فمن شأنها اذن ان تمكن الشعوب الاسلامية كافة ، حتى ابعدها اغراقا في التدني ، من ادراك معنى الشوري والدستوري))[٢٥٣].

[٤]

ومع التحرير بأبعاده وصيغه كافة ، يلحظ ستودارد شيئا اخر من اهم معطيات الاسلام وهو قدرته على التوحيد بين كافة المنتمين اليه ، المنضوين تحت لوائه ، مهما بعدت بهم المسافات وفرقت بينهم الجغرافيا .. انه ما من دين كالاسلام ، قدر ان يشكل امة موحدة ، متماسكة كالبنيان الذي يشد بعضه بعضا ، متواسية في السراء والضراء .. وهو قادر في كل زمن ومكان على ان يفعل الشيء نفسه.

وستودارد الذي عاصر الدعوة المعروفة للجامعة الاسلامية يلحظ كيف ان هذه الجامعة ((بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى التي لاانفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي)) كما يلحظ كيف انها بهذا المعنى الشمولي ((قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة (صلى الله عليه وسلم) اي منذ شرع

---

(٢٥٢) نفسه ، ٥١/٤.

(٢٥٣) نفسه ، ٥٩/٤.

الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجاهد فالتف حوله المهاجرون والانصار معتصبين معه بعصبية الاسلام لقتال المشركين. وقد ادرك محمد (صلى الله عليه وسلم) خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الادراك ، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن .. فغرس غريستها بيديه في نفوسهم ، فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت اغصانها .. فقد كر عليها اكثر من ثلاثة عشر قرنا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانبا ولا ضعضع لها كيانا ، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت شدة وقوة ومنعة واعتزازا. حقا ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لاقوى منها بين النصراني والنصراني .. ومن احب ان يقف حق الوقوف على ما اراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سر الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين. وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لابنائه بعضهم مع بعض ، موحد لشعورهم ، دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروتها ، كدين الاسلام))[٢٥٤].

[٥]

كما ان ستودارد يلحظ كيف ان الحج الذي هو واحد من اركان الاسلام الخمسة المعروفة. يؤكد ، فيما يؤكده ، هذا التوجه الوحدوي على كافة المستويات الوجدانية والاجتماعية والسياسية ((فما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعا يجتمع فيه كل عام اكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي. وهناك .. يتعارف المسلمون على اختلاف الالسنة والاجناس ، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية .. فالمقاصد والاغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل انما هي معلومة لاتحتاج الى كبير ايضاح. بل يكفي ان نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من اقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام ، والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة ..))[٢٥٥].

ووحدة المسلمين ترفض ابتداء عوائق الجغرافيا ومقولات التجنس ومواضعات الاصول والمعاملات الرسمية ! انها تتجاوز هذه كله وتعلو عليه ((فليست الولادة في البلاد ولا التجنس على الاصول الرسمية شرطا لمن يريد ان يكون فردا من افراد الامة الاسلامية في قطر من الاقطار ، متمتعا حقّ التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية. فوطن المسلم هو العالم الاسلامي من

---

(٢٥٤) نفسه ، ١/٢٨٧-٢٨٨.

(٢٥٥) نفسه ، ١/٢٨٩.

اقصاه الى اقصاه. لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية ان ينال للحال اي وقت شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمنزلة بين ظهراني القوم. فالعبارة (مصر للمصريين) مثلا لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي نتصوره نحن في الجاري المعتاد. فاذا ما أقام مسلم جزائري او دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره (مصريا وطنيا حرا) بصحيح معنى العبارة. والسبب في ذلك ان من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية. فجميع الاقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين (بدار الاسلام) وضدها (دار الحرب) ، وهي المواطن التي يقطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم امة واحدة متحدة الذب عن سياجها والذياد عن حياضها ، وهذا هو السبب في اننا نرى انه كلما اصاب اعتداء اجنبي طرفا من العالم الاسلامي ، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد ، من غير ان يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك ، كانما المعمور الاسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتاثر وتعتل سائر الاعضاء "[٢٥٦].

ولقد قالها اذن رسول الله (عليه الصلاة والسلام) (ان المسلمين كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ..

فاذا حاولت قوى الارض وطواغيت العالم ان يمزقوا هذه الوحدة ، ويصيبوها بالكسور والشروخ فانهم لن يتجاوزوا بحال سطح الخارطة وما ترتب عليها من اقامة وترسيخ العوائق المادية المنظورة التي تفصل بين المسلم والمسلم .. ولكن الوجدان الاسلامي فيما وراء هذه الخرائط التي صنعتها ايدي الخصوم ، يظل متوحدا ، هناك في العمق ، متصاديا متناغما ، مستعدا في اية لحظة للسهر والتداعي ..

ولن يكون بمقدور احد ان يعبث بهذا الوجدان الذي صنعته اربعة عشر قرنا من الانتماء لهذا الدين !

---

(٢٥٦) نفسه ، ١٢/٤.

درمنغم :

صورة عن الرسول (ﷺ) أقرب الى الصدق

[١]

يعد كتاب (حياة محمد) الذي صدر في باريس عام (١٩٢٩م) للمستشرق الفرنسي اميل درمنغم[٢٥٧] واحدا من المؤلفات الغربية الرصينة الى حد ما عن سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في تلك الفترة الزمنية المبكرة نسبيا.

وبطبيعة الحال فان صفحات كهذه لا تتسع لتحليل منهجية الكتاب ولا حتى لاستعراض مواضيعه ومفرداته والتاشير عليها .. ومن ثم سنكتفي بالوقوف عند عدد من المحاور المتالقة التي اجاد المؤلف عرضها : الخصائص النفسية والاخلاقية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) والتاثيرات والنتائج الاساسية التي تمخضت عن شخصيته الفذة.

يبدا الرجل رسمه لملامح النبي الانسان (عليه السلام) بهذه اللمسة : ((اذا كانت كل نفس بشرية تنطوي على عبرة ، واذا كان كل موجود يشتمل على عظة ، فما اعظم ما تثيره فينا من الاثر الخاص العميق المحرك الخصيب حياة رجل يؤمن برسالته فريق كبير من بني الانسان))[٢٥٨].

وسيكون كتاب درمنغم من الغلاف الى الغلاف بمثابة بحث في حياة هذه الشخصية المتفردة ، وتاكيد ، بلغة الوقائع التاريخية ، لما تميزت به هذه الحياة من عمق وخصب وقدرة مذهلة على التأثير.

ولقد شاءت ارادة الله (سبحانه وتعالى)، وهي تعد الرجل لأداء دوره الخطير ان تغني تكوينه الذاتي : العقلي والوجداني والروحي عن طريق دفعه الى العزلة والتامل ، بل ان هذا الميل النفسي ذا التاثير البالغ في اغناء الشخصية ، استمر حتى بعد تلقي الرسول (صلى الله عليه وسلم) الدعوة وتوليه قيادة الدولة ، كانت تجابه الكثير وتنتظر الكثير ، ((فما كان لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ان يستغني عن العزلة ، شان اقوياء النفوس وذوي الجد من الرجال ،

---

(٢٥٧) ترجمة : عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، دار احياء الكتب العربية ، (القاهرة–١٩٤٩م).

(٢٥٨) حياة محمد ، ص٨.

ولم ينفك عن الانقطاع حتى بعد ان اصبح رئيس دولة وصارت امور السياسة والحرب تشغل باله ، لما في الانقطاع من مصدر القوة والاتزان والحكمة ..))[٢٥٩].

وهدف العزلة هو تحقيق مناخ ملائم للتامل الهادىء الذي يعبر بالضرورة عن نشاط نفسي خصب ((فالتامل الطويل يطهر النفس وينبه روح المعاينة ، ويؤدي الى كشف ما وراء الحجب ، ويحث على العمل عند الضرورة .. والتامل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرر من الهوى الطارىء))[٢٦٠].

وهكذا نجد محمدا بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) يحقق بممارسته التاملية تلك هدفين كبيرين : الاقتراب اكثر من الحق ، والانشقاق اكثر عن الباطل ، او رؤيته بشكل اكثر وضوحا بعبارة ادق .. اذ يتكشف ازاء عشق الحق ، على بعده الحقيقي .. انها معادلة عكسية كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يتحقق بها في السنوات الصعبة التي سبقت تكليفه بالرسالة ((كان لديه ريب في حكمة الناس ، وما كان ليرضى بغير الحقيقة الناصعة ، وما كان ليعيش الا في الحقيقة ، فما كان يراه حوله ليس حقا ، وما كانت حياة قريش حقا ، وما كان على شيء من الحق سائقو القوافل المرابون ، ولا الاعراب النهابون الفوضويون ، ولا الافاقون المتحللون ، ولا الخلعاء القاطنون في ضواحي مكة .. فهم عن بعض ما هو جوهري غافلون. ولم تكن من الحق تلك الاصنام المحيطة بالكعبة ، ولم يكن الها حقا هبل ذو اللحية الطويلة واللابس رداء ملونا ، والمبلل بالاطياب))[٢٦١].

والتأمل يمكن صاحبه من الايغال في خصائص السنن والظواهر والاشياء ، والاقتراب اكثر من الجوهر ، من الحقيقة كما هي لا كما يراد لها ان تكون. وكثيرا ما تكون المظاهر الخارجية مضللة خداعة ، قد لا تمنح المتعامل معها قيمتها الحقيقية ومغزاها الاخير .. والذين يقدرون على تجاوز الوقوف عند السطح وممارسة عملية الاجتياز بالتامل والايغال هم وحدهم الذين يصلون ، فيدركون ان الحقيقة الاكثر ثقلا وتاثيرا في مجريات الامور هي تلك التي تمكن وراء قشرة الصدفة المادية الصلبة ، وان اصل الاشياء والنواميس يتخلق هناك.

ومن اجل ذلك ((كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول بعالم الباطن (الغيب) وهو عنده اهم من الظاهر ، والخفي افضل من المرئي ، والنظام الروحي هو الاصل الموجود

---

(٢٥٩) نفسه ، ص٧١.

(٢٦٠) نفسه ، ص٧٣.

(٢٦١) نفسه ، ص٧٤.

حقا. وهو قد امسك بالحقيقة العميقة فدعا الناس (اليها) ، وهو اذ كان ذا قلب خالٍ من الكذب والغش والغرور لم يترك العروة الوثقى بعد ان استمسك بها ..))[٢٦٢].

والدين الحق الذي يقود الى صراط ، انما يتكشف اكثر لهذا النمط من الناس الذين يدفعهم التساؤل الكبير الى البحث والتامل بكل ما اوتيه الانسان من قدرات عقلية ووجدانية وروحية .. والذين يفتحون المنافذ بانتظار الشعاع القادم من السماء. فليست المحاولات المجردة ، والمماحكات الجدلية الصرفة بالتي توصل الى الهدف ، كما ان اصحابها لن يكونوا قادرين على استقبال حقيقة هي اكبر بكثير وابقى بكثير من الجدل والمماحكة .. ((ونفس محمد (صلى الله عليه وسلم) النقية الصادقة التي اتصلت بما وجدته في قراراتها من الحقائق ، بفعل العزلة في الجبل والصحراء ، شعرت بان الدين امر غير المجادلات المجردة والمناظرات الجميلة ، فذهب الى ان كل انسان يمكنه ان يعرف الله كما يستطيع ولكن المهم ان يعرفه (سبحانه وتعالى) على الوجه الصحيح وأن يسلم امره اليه))[٢٦٣].

وتلك مهمة الدين ، وبذلك يتحقق التقابل المطلوب بين الانسان باستعداده هذا ، وبين السماء التي تمنحه اليقين. ولن يكشف الحق عن نفسه بدون هذا التقابل الفعال.

وهكذا تجيء عزلة محمد (صلى الله عليه وسلم) وتأملاته التي امتدت السنين الطوال ، كفاء لما اختاره الله (سبحانه وتعالى) له من حمل أمانة رسالة ليست كالرسالات ، وقيادة البشرية عبر الطريق المتوحد الذي لا طريق سواه.

[٢]

هذه بعض ملامح التكوين النفسي والذهني للرجل الذي قدر له ان يغير العالم ، فماذا عن السلوك ؟ ماذا عن انعكاس هذا التكوين على واقع الحياة ، ومفردات الممارسة اليومية ، وطريق العمل اللاحب الطويل ؟

ان الامر كله قد يكمن في كلمة واحدة : التوحد بين الايمان والعمل .. بين الفكر والسلوك .. بين القيم والواقع .. هنالك حيث تصير شخصية الرسل (عليهم السلام) مزيجا فذا عجيبا في كل ما تفعله او يصدر عنها ، بين ما تؤمن به وما تمارسه .. وحيث يصعب على الانسان ان يجد أيما شرخ ضؤل او صغر حجمه بين القول والفعل.

والحق ان كل الخصائص الأخرى انما تمثل تعبيرا أو امتدادا ، في هذه الناحية أو تلك، لسمة التوحد التي تمثل قمة الالتزام الخلقي وسماواته العليا .. وهي درجة لم يكن احد غير

---

(٢٦٢) نفسه ، ص٨٩-٩٠.

(٢٦٣) نفسه ، ص١٣٩.

الانبياء (عليهم السلام) بقادر على التحقق بها بالصيغة الفذة التي نفذها رسل الله (عليهم الصلاة والسلام).

ان ((درمنغم)) يرحل طويلا في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) فتشده بين لحظة واخرى هذه المفردة او تلك من سلوكيات الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقف عندها قليلا لكي يقدمها للبشرية وكأنه يقول لقرائه ان رجلا كهذا لا يمكن الا ان يكون مبعوثا من الله سبحانه وتعالى ، مرتبطا بأسباب السماء.

والله (سبحانه وتعالى) أعلم حيث يجعل رسالته ، فان هذه الصياغة الاخلاقية على عينه ستكون واحدة من أهم الاسباب التي قادت الناس الى الايمان بدين هذا نبيه ! واننا اذ نقرأ في كتاب الله :

((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ))[٢٦٤] ، **((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ))**[٢٦٥] ، **((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ))**[٢٦٦].

ندرك كيف كانت اخلاقية الرسول المعلم (عليه الصلاة والسلام) بمثابة نداء إلهي يقول للناس : تلك هي القدوة المنظورة وذلك هو الطريق ..

((لقد اعجب الانصار – كما يقول درمنغم – بكل ما في النبي (صلى الله عليه وسلم). اعجبوا بنبله وبلطفه وبقوته التي لا تكاد تقاوم ، وباحتماله ما أوجب هجرته اليهم من الشدائد ، فاعتصموا به .. اكثر من اعتصامه بحمايتهم له ، واعتنقوا مقدما دينه وهو الطريد الذي غدا ضيفهم وسيدهم))[٢٦٧].

ونحن نعرف جيدا كيف كان انتماء الانصار للاسلام منعطفا لا يقل خطورة في مصائر الاسلام عن انتماء المهاجرين الرواد أيام المحنة الاولى ((فلقد كانت (بيعتا العقبة) عامل تحول في رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي لم يوفق في دعوته لبني قومه. فمحمد الذي لم يفكر بعد في الراحة ، مع أنه ضحى بهنائه وسعادته وبكل ما يملك من حطام الدنيا ، وأضحى كهلا ، اعد نفسه لجهاد جديد ، فاشتدت عزيمته بدخول هؤلاء الذين لم ينتظر اسلامهم في دينه ، فرأى أن يهاجر وأن يخوض غمار المخاطر فلعله يرى في اهل يثرب السند الذي لم

---

(٢٦٤) سورة الطور (آية ٤٨).

(٢٦٥) سورة القلم (آية ٤).

(٢٦٦) سورة ال عمران (آية ١٥٩).

(٢٦٧) حياة محمد ، ص١٩.

يجده في الطائف ولا في وطنه مكة))[٢٦٨] وذلك هو ما تحقق بالفعل ، وذلك ايضا نتيجة القدوة والاسوة الحسنة.

يواصل ((درمنغم)) رحلته عبر سلوكية الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي تشع سنى وعطاء ، فيمكث عند هذه المفردة أو تلك مما لاحصر له ولا عد .. فيما بعد ، عند فتح مكة ، حيث الانتصار الحاسم الاخير على الوثنية ، وحيث العودة المنتصرة الى البلد الذي عذبه وشرده ، وحيث تطيش الباب الفاتحين في لحظات كهذه وتتملك عقولهم و ارادتهم شهية الضرب والانتقام .. في تلك التجربة الصعبة ، مالذي عمله محمد (صلى الله عليه وسلم)؟ ((لقد أبدى من الكرم وعظمة النفس ما لا تجد مثله في التاريخ الا نادرا. وكان يوصي جنوده بأن يرحموا الضعفاء والشيوخ والنساء والاولاد ، وكان ينهى عن هدم البيوت واهلاك الحرث وقطع الشجر المثمر ، ويأمر بألا يسل مسلم حسامه الا عند اقصى الضرورة .. وأنحى باللائمة على بعض رجاله فعوض بالمال مما اقترفوه وهو الذي رأى ان النفس الواحدة خير من كل الغنائم))[٢٦٩].

ثم توج ذلك كله بالعفو العام الذي اعلنه بحق المكيين كافة مما لم يكن يصدقه المكيون انفسهم ! ((لقد كان حب العفو آخذا من نفس النبي الغالب (صلى الله عليه وسلم) كل مأخذ فقد قرت عينه بفتح مسقط رأسه فصار لا يفكر في غير تالف القلوب بالاحسان كما امره القرآن ، وكان من الفطنة ما علم به بعد سياسة الانتقام من الصواب))[٢٧٠].

ولقد اكدت الاعوام التالية صدق استناجه ، فان ردة العرب التي غطت الجزيرة من اقصاها الى اقصاها انحسرت عن عدد من المدن الرئيسية كانت مكة احداها. ليس هذا فحسب بل ان مكة امدت دولة الاسلام ، وهي تجابه المحنة ، بخيرة القادة والمقاتلين الذين لعبوا دورا حاسما في تصفية الحركة ، ثم واصلوا الدرب فيما بعد ، زمن الفتوحات مما يكاد ان يكون معروفا للجميع.

ويتحدث ((درمنغم)) عن حشد من القيم السلوكية التي كشفت عنها غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فيشير الى انه ((اشترك في نحو ثلاثين غزوة وأدار نحو عشر معارك بشخصه ، فضلا عن المفاوضات الصعبة التي قام بها وليس بمجهول ما يجب ان يتحلى به السيد العربي في الغزوات بجزيرة العرب من تحمل المشاق والصبر على المكاره وخلق

---

(٢٦٨) نفسه ، ص١٦٢-١٦٣.

(٢٦٩) نفسه ، ص١٩٧.

(٢٧٠) نفسه ، ص٣٥٥.

الثبات والأناة وحسن السياسة والنشاط والمرونة ، وهذا الى ما يحيق بسلطانه من المخاطر .. ففي هذا المضمار الصعب المضني برع محمد (صلى الله عليه وسلم) ..))[٢٧١].

كما يتحدث عن بعض اللحظات المؤثرة في حياة الرسول الخاصة نكتفي منها بهذه اللحظة ذات الدلالة البعيدة ((ولد لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ابنه ابراهيم ، فمات طفلا ، فحزن عليه كثيرا ، ولحده بيده وبكاه ، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون انها انكسفت لموته. ولكن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك فقال : ((ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت احد)) فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال))[٢٧٢] وحاشا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يؤكد هنا سنة كونية فحسب ، بل فيؤكد بذلك التناغم الذي عرفه الاسلام جيدا بين العلم والايمان ، ولكنه يقدم في الوقت نفسه ملمحا اساسيا في اخلاقيته كنبي وكانسان .. انه لا يريد ان يبني لشخصه مجدا مستمدا من مركزه كنبي ، يكون على حساب الحقيقة التي جاء يبشر بها.

ولقد بلغت حساسيته ازاء هذه المسألة حدا كبيرا لم يبلغها نبي او قائد قبله او بعده .. فلم يسمح لأحد ان يقوم له .. ولم يبح لاحد ان يعده ملكا .. ولم يحاول ابدا ان يتميز عن الناس .. على العكس ، كان يحاول دائما ان يردهم عن ايما شبهة قد تدور في اذهانهم حول هذا التميز ((انما انا بشر مثلكم آكل كما يأكل الناس وأنام كما ينام الناس)) قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقال ايضا : ((انما انا ابن امراة كانت تأكل القديد وتمشي في الاسواق)). بل ان كتاب الله حسم الامر بآياته البينات :

((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا))[٢٧٣].

ولقد مررنا عند هذه النقطة المتألقة في أخلاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في اماكن اخرى ، ولذا فاننا سنكتفي هاهنا بما يريد أن يقول ((درمنغم)) ((لقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) ينهى عن عده ملكا ولقد نال السلطان والثراء والمجد ، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله ، فكان يفضل اسلام رجل على اعظم الغنائم ..))[٢٧٤] ، وهذا يكفي فان معطيات موقف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من المال والجاه وهو في القمة ، معروف لكل قارىء

---

(٢٧١) نفسه ، ص١٩٨.

(٢٧٢) نفسه ، ص٣١٨.

(٢٧٣) سورة الكهف (آية ١١٠).

(٢٧٤) نفسه ، ص٣٦٠.

لتاريخ الرسالة ، رغم انه في كل مرة يثير الاحساس ذاته في نفس الانسان : مزيج من الاعجاب، والانبهار ، والمحبة ، والحزن ، والشجى ، والهزة الوجدانية التي تكهرب الاوصال وتقشعر لها الجلود .. ((والحق ان النبي (صلى الله عليه وسلم) – كما يقول درمنغم – لم يعرف الراحة ولا السكون بعد ان اوحى اليه في غار حراء فقضى حياة يعجب الانسان بها))[٢٧٥].

الاعجاب .. ذلك – يابجاز تام – رد الفعل البديهي الذي يملك على الانسان اقطار نفسه وهو يتعامل مع حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ويتابع مفرداتها السلوكية المتألقة ..

[٣]

بالتأكيد ...

فان شخصية كهذه ، تولى الله (سبحانه وتعالى) اعدادها ذلك الاعداد النفسي ، وصاغها تلك الصياغة الاخلاقية ، وحملها امانة النبوة ، لابد ان تحقق من الافعال مايثير الانبهار كذلك ، وأن تكون افعالها هذه بمستوى تكوينها ذاك.

ان كتاب ((درمنغم)) كله ، وكتب السيرة والدراسات التي انبثقت عنها جميعا ، كانت بمثابة الشهادة المؤكدة لمصداقية هذه المعادلة الفذة : التكوين والانجاز. اما ها هنا ، وانسجاما مع منهجنا في هذا الكتاب فسنكتفي بمجرد شهادتين او ثلاثا ، نماذج فحسب لما اراد ((درمنغم)) أن يقول في هذا المجال.

في جزيرة العرب ، المنطلق الاساس لرسالة الاسلام الى البشرية ((اقام محمد (صلى الله عليه وسلم) مجتمعا مدنيا على اسس جديدة بعيدة من عصبيات القبائل والعشائر ، مما لم يصنع مثله مؤسسو الديانات الا نادرا ، فكان محمد (صلى الله عليه وسلم) بذلك الرسول والمشرع والسياسي والقائد في ان واحد))[٢٧٦] ، فلقد ((جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة))[٢٧٧].

لكن الامر لم يقف عند حدود الجزيرة العربية ، انما اريد لما تم هناك ان يمتد لكي يلف العالم كله ، يقلب العالم كله ، يغير خرائطه ويعيد تخطيطها لصالح الانسان ((والحق ان عشرين سنة كفت لاعداد مايقلب الدنيا ، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد ، عما قليل ، بلاد العرب وتمتد اغصانها الى بلاد الهند والمحيط الاطلنطي. وليس لدينا ما نعرف

---

(٢٧٥) نفسه ، ص٣٦٠.

(٢٧٦) نفسه ، ص١٧٥.

(٢٧٧) نفسه ، ص٣٥٩.

بـه ان محمداً (صـلى الله عليـه وسلم) أبصـر ، حـين أفـاض مـن جبـل عرفـات ، مسـتقبل أمتـه وانتشار دينه ، وأنه احس ببصيرته ان العرب الذين ألف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وأفريقية واسبانيا))[٢٧٨].

لقد حدث ذلك ، لان الاسلام اريد له منذ اللحظة الاولى ان يتجاوز العرب صوب أمم الارض كلها ، وأن يتخطى جغرافيتهم باتجاه العالم كله ، وأن يتصدى لمعضلة الانسان داخل الجزيرة وخارجها على السواء ، وأن يطارد كل ما يستعبده ويعذبه ويؤرقه ، ويبعد به ، بهذه الدرجة او تلك ، عن مهمته المنوطة به كانسان ((وهكذا نهض محمد (صلى الله عليه وسلم) ليدعو قومه الى دين الواحد الأحد ، ولينبه غافل بعض آسيا وأفريقيا ، وليحرر من رق التقليد جميع الذين يدركون حقيقة رسالته ، وليجدد بلاد فارس الناعسة ، وليحث نصرانية الشرق التي افسدتها التأملات الفاترة .. وشأن الانبياء في العالم كشأن قوى الطبيعة الهائلة النافعة ، كشأن الشمس والمطر ، كشأن عواصف الشتاء التي تهز الارض وتثيرها لتتزين في بضعة ايام. ويقدر الانبياء (عليهم السلام) بما اسفرت عنه رسالاتهم من النتائج ، واحسن شهادة لهم ما يورثونه من راحة العقول وسكينة القلوب وشد العزائم والصبر على الشدائد وشفاء الاخلاق المريضة والادعية والصلوات التي تصعد في السماء. يأتي الانبياء ، وهم الذين لا حول لهم ولا معين ، وهم الذين يقاتلهم الناس غرورا ، بسر الحرية العليا فيقولون : خير للانسان ان يعصي الناس من ان يعصي الله الذي يتساوى الجميع امامه وحده والذي يجب على الجميع ان يسجدوا له دون سواه .. قام محمد (صلى الله عليه وسلم) الامي .. والنقي الفطري الكامل الطليق من فساد العقل والقلب ، يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون ، ويقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة . فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى اليه به .. يعود اليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم خاشعين لله ، عالمين كيف يسلكون احد النجدين ، مهتدين الى مبدا حي ناطق لا يجدون مثله في نصائح الفلاسفة واراء اقطاب السياسة. وكان ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) في دور من اشد ادوار التاريخ ظلاما ، في دور كانت الحضارات التي قامت في البلدان الممتدة من بلاد الميروفنجيين (في فرنسا) الى بلاد الهند ، مضطربة متداعية))[٢٧٩].

فاذا قلنا بان الاسلام كان استجابة لحاجة تاريخية او لحظة زمنية ، سقنا انفسنا الى مواقع الخطا بكل تاكيد لأننا بهذا الاستنتاج سوف نحجم الاسلام في الزمن ، وهو الخطأ الموازي لمحاولة تحجيمه في المكان.

---

(٢٧٨) نفسه ، ص٣٦٨-٣٦٩.

(٢٧٩) نفسه ، ص٢٨١-٢٧٩.

انما الاسلام استجابة مناسبة لتاريخ البشرية كله وجغرافية العالم على امتداده .. وتعامل ابدي مع ما كان ، وما هو كائن ، وما يمكن ان يكون .. وان حياة محمد صلى الله عليه وسلم لتعلمنا كيف كان هذا النبي المجاهد يقف قبالة الزمن باوناته الثلاث لكي يصنع مصير امة يقتبس عن الماضي ويعيد صياغة الحاضر ، ويمد مطامحه صوب المستقبل القريب والبعيد.

سوسة

الاسلام من منظور مقارن

[١]

باحث مهندس من العراق ، وعضو في المجمع العلمي العراقي ، وواحد من ابرز المختصين بتاريخ الري في العراق. كان يهوديا فاعتنق الاسلام متأثرا بالقرآن الكريم ، وتوفي قبل سنوات قلائل – رحمه الله – مخلفا الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الري. وقد فند في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية. ومن مؤلفاته الشهيرة (مفصل العرب واليهود في التاريخ) الذي يتضمن بعض المآخذ بسبب عدم تمحيصه الروايات الغربية عن التاريخ اليهودي. وكذلك كتاب (في طريقي الى الاسلام) الذي تحدث فيه جانب من حياته[٢٨٠].

يطرح ((سوسة)) في كتابه هذا مواقفه وتحليلاته واستنتاجاته حول القرآن الكريم ، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، عن الاسلام وانتشاره وحضارته ، وعن واقع المسلمين ومستقبلهم. الا اننا سنقف في هذه الصفحات عند مسالة محددة فحسب تلك هي معطياته عن الاسلام وبخاصة رؤيته المقارنة بين هذا الدين والاديان التي سبقته.

[٢]

يقارن سوسة بين الاسلام والاديان الاخرى مقارنة خبير عارف ، وهو الرجل اليهودي الذي يعرف عن اليهودية والنصرانية الشيء الكثير. وتكاد المساحة الاوسع في حديثه عن الاسلام تنصب على هذا الجانب. وهو يجد – ابتداء – ان واحدة من اهم ميزات الاسلام انه جاء تحريرا للانسان ، واستعاد للوفاق المفقود بين التكوين البشري وبين الدين الذي يسعى الى قيادته وتوجيهه : ((على المرء الذي وقف على حقيقة الاسلام ان يعترف بان الاسلام هو في الحق دين الحرية والفطرة بعيدا عن قيود الكنيسة واستبدادها في المسيحية ، وغريبا عن العصبية وتقاليدها الثقيلة في اليهودية))[٢٨١] ، تلك التي ساقتها ((الى الطريق الضيق المؤدي الى ساحة

---

(٢٨٠) الجزء الاول ، المطبعة السلفية ، (القاهرة–١٩٣٦م) ، الجزء الثاني ، مطبعة الغرى ، (النجف–١٩٣٨م).

(٢٨١) في طريقي إلى الاسلام ، ٥٢/١.

الانانية والعصبية العنصرية الدينية .. التي كانت ولا تزال السبب الاساسي لانحطاطها ومقتها الشعوب))[٢٨٢].

فهو اذن التحرير الشامل للانسان من قيود النصرانية واستبدادها ومن عصبية اليهود وتقاليدها ، وهو تحرير يمتد – كما هو واضح – عمقياً باتجاه الذات وافقيا باتجاه الانسانية . لقد ((ابطل الاسلام كافة الخيالات والاوهام في طريقة التقرب الى الله بطريق تعذيب النفس او الوساطة بين العبد وخالقه ، او احترام المخلوق وتقديسه أياً كان نوعه ومنزلته الاجتماعية .. ان الاسلام دين حر لا يقيد المرء بتقاليد ثقيلة او اسرار كهنوتية او طقوس دينية محشوة بالمظاهر والزخرف ، فهو والحالة هذه يجيب مطالب النفس البشرية حائدا كل الحياد عن كل ما يناوىء روح الطبيعة وبديهة الفطرة))[٢٨٣].

فهو كما نرى التحرير الذي يطلق الفطرة من القيود التي كبلتها بها الاديان التحريفية ، ويضع عنها اصرها والاغلال التي كانت عليها ، كما انه يطلق الناس من كل لغز او اسر في فهم العقيدة التي ينتمي اليها ، ومن كل حاجز او مانع في الذهاب الى الله والتقرب اليه ((ما اقرب عقيدة التوحيد الى الفطرة الانسانية اذ تتجسم فيها عظمة الخالق الذي لا تحيط وجوده الحدود ولا حد لسلطانه ، فهو قريب من عباده في اي وقت وفي اي مكان ، يسمع النداء ويجيب الدعاء ، وبهذا افضى الاسلام بالمخلوق الى ربه ومهد طريق الوصول (اليه) بلا واسطة ، مما يقوي صدق الايمان والثقة بالنفس ، والشعور العميق الذي يفيض في قلب المؤمن بجلال هذا الخالق العظيم))[٢٨٤].

ومن أجل ذلك كله كان من البديهي كما يقول احمد سوسة ((ان تلاقي الدعوة الاسلامية معارضة شديدة من زعماء الأديان الاخرى لان الاسلام يسلك مسلك الصراحة ، وينتحي طريق الفهم والحجة والبرهان والعقل في بث دعوته ، فضرب بذلك ضربة قاضية على رئاسة العقائد ونفوذها ، وسلب الحكم في الثواب والعقاب من يد الذين كانوا يعتبرون الجنة من السلع التي تباع وتوهب))[٢٨٥].

---

(٢٨٢) نفسه ، ٩٠/١.

(٢٨٣) نفسه ، ١٨٠/١-١٨١.

(٢٨٤) نفسه ، ٦/٢-٧.

(٢٨٥) نفسه ، ١٨٨/١.

[٣]

وثمة ميزات حاسمة عديدة اخرى تفرق بين الاسلام والديانات السابقة يهودية ونصرانية ، وها هو ذا احمد سوسة يؤشرعلى عدد منها ..

الاسلام لم يتعرض للتحريف خلافا لتلك الاديان ((فالواقع انه ليس من دين من اديان العالم البشري حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الاسلامي ، وهذا ما يمتاز به الاسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية))[٢٨٦].

الاسلام دين التوازن والوسطية والاعتدال والايجابية ، بينما في اليهودية او النصرانية يكون الانحراف والتطرف والسلبية واذا ((كان يصح ما يقال بان خير الامور اوسطها فان الديانة الاسلامية هي التي تستحق ان تحتل المكانة السامية بين الديانات العالمية لانها جاءت مشبعة بروح الطبيعة والفطرة ، معتدلة في طقوسها .. متوسطة في مسلكها .. فهي الشريعة الوسط التي تدعو الى العمل للدنيا والآخرة في آن واحد ..))[٢٨٧].

الاسلام هو الدين السماوي الاخير ، المرن ، الشامل ، الصالح لكل زمان ومكان ، والديانتان السابقتان مرحليتان محرفتان ، لم تعد اي منهما تصلح لاداء مهمة كهذه ((ان الاسلام هو الدين الصافي الذي اراده الله للانسانية ، صفي بمصفاة وحيه الالهي .. ليكون دينا صالحا لكل انسان ولكل زمان ومكان ..))[٢٨٨] وهو ((دين مرن لكل ثقافة ولكل عصر ومصر ، عدا الاصول الدينية الاساسية التي لا تتبدل ولا تتغير. اذ تضمن معظم شرائعه ما يكفل مرونتها وجعلها قابلة للازمنة المتتابعة وفق نظام التطور. ولا يخفى ان الاسلام يركز على مبدا حرية التفكير والعقيدة وعلى اساس استعمال العقل والمنطق. وكل هذا لا يقبل الرقود والجمود ، بل يتمشى جنبا الى جنب مع نزعة التغير والتقدم. وان الاختلاف في غير اصول الدين كما جاء في الحديث . وعليه فان الاسلام يمتاز عن اديان العالم الاخرى بكونه الدين الذي جاءت معظم شرائعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بعبارات عميقة وشاسعة النظر في معانيها بحيث تكفل ملاءمتها للنفس البشرية في جميع بيئاتها واطوارها ..))[٢٨٩].

الاسلام يقدم تصورا واضحا ومتكاملا عن المصير بعد الموت ، بينما عجزت الديانات الاخرى عن صياغة هذه المسالة الخطيرة في اطار متماسك مقنع سليم بكل ما يعنيه ذلك من مردود سلبي على سلوك الانسان المؤمن وقناعاته ((.. انه ليس من ديانة في العالم اوضحت

---

(٢٨٦) نفسه ، ١/٧٤-٧٥.

(٢٨٧) نفسه ، ١/٧٧.

(٢٨٨) نفسه ، ١/٨٠.

(٢٨٩) نفسه ، ١/١٨٤-١٨٥.

اسرار المصير بعد الوفاة البشرية كالاسلام. ولا يخفى ان هذه الناحية المهمة في العالم الروحاني كانت غامضة قبل ظهور الاسلام وان اليهودية لم تتطرق لهذا البحث ، وعليه ان ما اوضحه الاسلام من هذه الناحية جاء سدا للنقص البارز في بقية الاديان الاساسية. وما ذلك الا دليل واضح على صدق الديانة الاسلامية والكمال الذي تنطوي عليه .. وما من شك في ان الاعتقاد بالمعاد في تفسيره الصحيح يرفع بالمستوى الادبي الروحي الى مقام سام ليس له نظير في العالم الانساني منذ ان نشا المجتمع البشري))[٢٩٠].

في الاسلام يتساوى الجميع امام الله ، بينما في النصرانية يفرض التمييز نفسه حتى في ساحة العبادة ((ففي امريكا – مثلا – كنائس خاصة بالجنس الابيض واخرى خاصة بالجنس الاسود .. وفي (الصلاة الاسلامية) لا يبعد ان يكون الى جانب افقر شخص في الجماعة اسمى رجل مقاما وثروة. اذ لا يشعر احد في هذا المجتمع بان هناك فقيرا وغنيا او ثمة ابيض واسود ..))[٢٩١].

الاسلام دين التسامح والمحبة والانفتاح على الانسان ، بينما في الاديان الاخرى يطل التعصب برأسه ، وتمد الكراهية عنقها ليس بين دين واخر فحسب ، بل بين طائفة وأخرى في دائرة الدين نفسه ، وتقفل الابواب ، وتقام المتاريس بين الانسان والانسان ((فأي دين – غير الاسلام – يجعل العالم موطنه والانسانية ديدنه ؟ واي دين في العالم يسمح لاتباعه ان يتزوجوا من غير بنات دينهم ؟ لقد اسبغ الاسلام نعمة المساواة الحقة ومنحة الاخاء على الانسانية بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المجتمع العالمي))[٢٩٢].

والرجل يحكي عن تجربته ذات البعد الانساني لحظة دخوله الاسلام ((كنت اشعر باني ادخل في حياة جديدة وهي حياة الجامعة الاسلامية التي تحمل علم الاخاء الانساني فيعيش كل مسلم فيها مسلما اخا رائعا في حضرة التحابب البشري السامي الذي لا يعرف حدا من حدود البسيطة ولا يلتفت لجنس من الاجناس او نوع من انواعها وقيود تفرقتها .. شعور انساني سام يغمر كلية المرء ارتياحا وانشراحا واطمئنانا))[٢٩٣].

الاسلام دين الحجة والاقناع والبرهان ، بينما تحاول الاديان الاخرى ان تقسر الاخرين على الانتماء او تقبلهم دون ان تمنحهم المبررات العقلية والوجدانية الكافية للانتماء ((ان النصرانية تشجع باية وسيلة كانت تنصير الاخرين بدون ما التفات الى اليقين الحقيقي والايمان

---

(٢٩٠) نفسه ، ١/١٧١-١٧٢.

(٢٩١) نفسه ، ١/١٧٨-١٧٩.

(٢٩٢) نفسه ، ١/١٧٥-١٧٦.

(٢٩٣) نفسه ، ١/٥٦.

الصادق ، بينما الاسلام يجعل الاساس لاعتناقه الايمان واليقين الصادقين)) وهو يطلق لتابعيه عنان التفكير في الكون بجميع نواحيه ، ويترك لهم حرية السماع لكل الدعاة مهما اختلفت مقاصدهم ، لان المفروض على المؤمنين ان يستمتعوا القول فيتبعوا احسنه))[٢٩٤]. ان الاسلام كما مر بنا قبل قليل ((يرتكز على مبدا حرية التفكير والعقيدة وعلى اساس استعمال العقل والمنطق)).

واحمد سوسة يقف طويلا عند هذه المسالة لاننا نعيش عصر العلم الذي يتطلب في كل خطوة حجة وبرهانا ((ان الوقوف على حقيقة الاسلام ومقارنة تعاليمه مع مبادىء الاديان الاخرى بصورة علمية ، يظهر سموه وقدسيته لا سيما وان الاسلام نفسه يشجع التفكير الحر والتحرر من قيود التقاليد ولا يحبذ ان يقبله المرء ما لم يؤمن به الايمان الصحيح .. وهذا ما يلائم مقتضى العلم الحديث. وعندي ان العلم الحديث هو بجانب الاسلام وتعاليمه . واذا كان للاسلام ان يستعيد مجده وهيمنته فسيكون ذلك بواسطة العلم نفسه الذي يعده الكثير عدو الديانات))[٢٩٥].

وهو يرى ((ان العلم الصحيح يسعى وراء الحقيقة وياخذ بصاحبه الى تعظيم الطبيعة والفطرة وتقديس الخالق الاعظم والاعتصام بالعدل والالفة الانسانية ، وكل هذا موجود في الاسلام))[٢٩٦].

بل ان انتماء الرجل للاسلام انما كان ثمرة لهذا الوفاق الاصيل بين فطرة الانسان الدينية وبين الفكر الحر ، بين الاسلام وبين المعطيات العلمية .. ونستمع اليه وهو يقول : ((ما اعظم سروري الان حين جاء الاستدلال العلمي مؤيدا للميل الفطري ، فانتميت الى الدين الاسلامي بدافع طبيعي غريزي وبتاييد علمي تمحيصي فاصبحت بذلك مسلما ، شعورا وموطنا ودينا))[٢٩٧].

[٤]

الاسلام دين الفعل والتحقق ، بينما يظل الكثير من معطيات الاديان الاخرى معلقة في سماء الأحلام والأماني ، في حين يتشكل الواقع باتجاه مغاير تماما ((ان مبادىء الحب والاخوة التي تنادي بها المسيحية في بعض تعاليمها والتي لم تتعد حدود النظريات ، ينفذها الاسلام

---

(٢٩٤) نفسه ، ١٨٩/١ ، ١٩٣.

(٢٩٥) نفسه ، ٦٠/١-٦١.

(٢٩٦) نفسه ، ٦١/١.

(٢٩٧) نفسه ، ٥٥/١.

بالفعل وبكل دقة ..))[٢٩٨] فالاسلام ((دين عملي ، عدا كونه معنويا ، لانه يفرض بتعاليمه القيام بواجبات عملية في الحياة الدنيا غير الواجبات الروحية المعنوية . وليس اوضح في ذلك مما جاء في التعاليم الاسلامية بان المسلم لا يكون مسلما حقا ما لم يقم بالواجبات العملية التي يفرضها الدين الاسلامي ، ومن جملة ذلك الصلاة والزكاة. وعندي ان هذين المبدأين يشملان النطاق العملي في الحياة الانسانية الروحية ويمليان على البشرية ادق نظام عمل يكفل تأدية الواجبات الانسانية والالهية معا ..))[٢٩٩].

الاسلام لا يتهاون ولا يتساهل ازاء كل ما من شانه ان يلحق الدمار بالانسان ، او يفتح ثغرة في ترسانة الايمان وخطوطها الدفاعية الصلبة ، بينما في الاديان الاخرى يكون التساهل والتهادن ازاء الكثير من ممارسات كهذه .. ولناخذ الموقف من الخمر مثلا من بين عديد من الامثلة في هذا السياق. ان احمد سوسة يقف عند هذه المسالة التي سبق وان جذبت دهشة مؤرخ وفيلسوف شهير ((كارنولد توينبي)) فاعتبرها والغاء التفرقة اللونية اثنتين من اكثر ميزات الاسلام خطورة ودلالة على فاعليته ((وما تحريم الخمر في الاسلام – يقول سوسة – الا ظاهرة اخرى توضح ما للدين الاسلامي من فضل على الانسانية جمعاء ، وتنبه المرء الى حقيقة هذا الدين الذي سبق العالم الغربي المتمدين في وضع سنة التحريم من قبل ثلاثة عشر قرنا لانقاذ البشرية من سموم هذا الشراب الفتاك .. وقد قال قس شهير من الانجليز اسمه ((اسحق طيلر)) : (انه يختار اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر !) ..))[٣٠٠].

بل ان سوسة ليلحظ الاختلاف بين الاسلام والاديان الاخرى حتى في مصدر التسمية . ففي الاسلام تجيء التسمية من الله (سبحانه وتعالى) لتدل على طبيعة هذا الدين ، بينما في الاديان الاخرى تكون التسمية وضعا واختلافاً ((الاسلام كلمة الله تتجلى فيها آية الاستسلام لاوامره وارادته ويتجسم في معناها المرمى الداعي للسلم والسلام .. وهي كلمة الله المنزلة لتسمية الديانة الاسلامية وليست اختلاق جماعة كما هي الحال في تسمية الديانة المسيحية والموسوية وغيرهما من الاديان .. والاسلام مظهر من مظاهر السلم في العالم البشري وانه يضع دعائم التفاهم للمجتمع الانساني ، فهو الدين الذي اختاره الله (عز وجل) ليكون مثالا للصفاء والوئام بين عباده ..))[٣٠١].

---

(٢٩٨) نفسه ، ٢/١٦٥-١٦٦.

(٢٩٩) نفسه ، ١/١٧٢-١٧٣.

(٣٠٠) نفسه ، ٢/٣٢-٣٣.

(٣٠١) نفسه ، ١/١٦٧.

[٥]

لكن هذا التمايز الواضح بين الاسلام والاديان السماوية السابقة ، بخطوطه الفاصلة الحاسمة هذه لا يعني ، من جهة اخرى ، انقطاعا او تضادا كاملا بين الطرفين ، تلغى معه اية صلة عقيدية أو تاريخية بين الاسلام والاديان التي سبقته ، فان هذه الاديان كافة ، في جوهرها الاصيل انما هي دفق متوحد عن مصدر واحد ، ولهدف واحد ، ولكن التحريف واستضافة الاجسام الغريبة هو الذي قادها الى الانفصال ، فضلا عن كون الاديان السابقة اريد لها – في الاساس – ان تؤدي مهمة مرحلية ، ثم تسلم زمامها للدين الشامل ، المصدق ، الاخير : الاسلام.

وأحمد سوسة في مقارناته آنفة الذكر ، في بحثه عن نقاط التغاير والاختلاف بين الاسلام والاديان السابقة لا يغفل هذه الحقيقة ((فلقد جاء الاسلام – يقول الرجل – بعد الديانتين التوحيديتين منقحا موضحا للحقيقة ، معترفا بجوهر الديانتين السابقتين ، مشيرا الى التحوير والاخطاء التي طرأت عليهما .. مضيفا كثيرا من الارشادات والتعاليم الروحية التي ارادها الله لعباده المؤمنين .. (واضعا) شريعة تحتوي على كل ما يتعلق بالمجتمع من امور اجتماعية دينية واقتصادية وسياسية ، ومن ذلك يتضح ان الاسلام لم يظهر لهداية القبائل الوثنية فحسب ، وانما جاء ايضا لتوحيد الاديان ودفع الشكوك والارتباكات التي انطوت عليها الديانتان اليهودية والمسيحية وارشاد اتباعهما الى الدين الجديد. ولكن تأصّل جذور الديانتين ، ونفوذ الاحبار والساسة ، والعصبية اليهودية بصورة خاصة ، كل هذه كانت من العوامل التي حالت دون تحقيق التوحيد المنشود. ولو ان هؤلاء كانوا من المهتدين الى (الاسلام) دين الحقيقة لكان انقشع ضباب الضلال والكراهية والارتباك وانبثق نور السعادة على البشرية جمعاء في جو مشبع بالصفاء والولاء))[٣٠٢].

(٣٠٢) نفسه ، ١/٧١-٧٢.

دينيه :

اكتمال المعمار

[١]

يعرف (اتيين دينيه) (١٨٦١-١٩٢٩م) المفكر والفنان الفرنسي المسلم ، الكثير عن الاسلام ، بحكم معايشته البيئية الاسلامية وانتمائه لهذا الدين. وقد تمخضت هذه المعرفة عن عدد من المؤلفات القيمة من مثل (محمد رسول الله) بالاشتراك مع سليمان بن ابراهيم الجزائري ، و(أشعة بنور الاسلام) و(الحج الى بيت الله الحرام) و(الشرق في نظر الغرب) .. وغيرها .

يعرف الاسلام بأنه ((عقيدة التوحيد الالهية العليا)) وأنه يملك ((تلك المبادىء السامية التي تقوم عليها تلك العقيدة)). ويعلن منذ البدء تحديه للخصوم من عشاق الشبهات ((ان يدلونا (على هذه المبادىء) في الانجيل او في كتاب مقدس اخر ان كانوا صادقين))[٣٠٣]؟

والرجل مطمئن الى تحديه ، مقتنع أشد الاقتناع بأن هذا الدين متميز بعقيدته ، متميز بالتالي بمبادئه فليس ثمة شبه أو استمداد من اديان اخرى ، على العكس انه يجابه ، منذ اللحظة الاولى ، انحرافاتها ، ويدينها.

[٢]

يمضي ((دينيه)) في اكثر من كتاب من مؤلفاته لكي يتحدث عن خصائص العقيدة الاسلامية ويؤشر على الملامح الاساسية للمبادىء التي انبثقت عنها.

يقف عند واحد من الخطوط الاصيلة التي تميزها عن الاديان الاخرى : تحرير الانسان من الوساطة وفتح الطريق على مصراعيه بينه وبين الله : ((الوسيلة هي احدى كبريات المسائل التي فاق بها الاسلام جميع الاديان ، اذ ليس بين الله وعبده وسيط ، .. ان هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الاديان ، وانهم كذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان اخلاصهم وحسن نياتهم . وقد ادرك المسيح (عليه السلام) نفسه ذلك. ألم يطرد (بائعي الهيكل ؟). غير ان اتباعه

---

(٣٠٣) أشعة خاصة بنور الاسلام ، ص١٥ ، ترجمة : راشد رستم ، سلسلة الثقافة الاسلامية ، رقم ١٧ ، المكتب الفني للنشر ، (بيروت-١٩٦٠م).

لم يفعلوا مثل ما فعل ، واليوم اذا عاد عيسى (عليه السلام) فكم يطرد من امثال بائعي الهيكل ؟))[٣٠٤].

انه شيء مهم هذا الذي وجدته العقول العملية في الاسلام : ذلك هو انتفاء الوساطة بين العبد وربه ((لخلوه من الاسرار وعبادة القديسين ، ولا حاجة به الى الهياكل والمعابد لان الارض كلها مسجد لله))[٣٠٥].

الهياكل والمعابد بمفهوم الحصر التعبدي الذي تمارسه الاديان الاخرى ، وليس بالمفهوم الاسلامي الحر الذي يتيح للانسان الاتصال بخالقه هنا وهناك .. داخل جدران المعابد، وفي الارض المكشوفة.

وبالغاء الاسلام للوساطة وجه ضربة قاصمة لنظام القداسة البشرية وفكرة الولاية ، فحرر بخطوته هذه الوجدان البشري ((من تلك الخرافات الضارة والمعتقدات الفاسدة وأزال اثارها ونتائجها)). فليس للمسلم ان يدعو احدا من الناس ويتضرع اليه ((انما له أن يدعو الله وحده لا شريك له. كذلك يحرم القرآن الشفاعة وينكر الشفعاء ، ويوم القيامة لا تسأل نفس الا عن نفسها))[٣٠٦]، وبذلك تتأكد المسؤولية الشخصية كما لم تتأكد في أي دين آخر.

وامتدادا لهذه الرؤية العقيدية التوحيدية النقية الواضحة ، يعلن ((دينيه)) أن ((الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلا بشريا أو ما الى ذلك من الاشكال))[٣٠٧] ، فهو التنزيه المطلق الذي يليق بالذات الالهية المستعلية ، المتفردة ، كما يليق بجدية هذا الدين وايجابيته وحسمه.

[٣]

وهناك مع التحرير ، المساواة ((فلقد حقق الاسلام نظرية المساواة بين القبائل والشعوب وهي النظرية التي لم تأت اخيرا الا على يد الثورة الفرنسية))[٣٠٨]. ولكنها ليست المساواة الصماء ، غير الممكنة ، والتي تتنافى – اساسا – مع فكرة العدل ، رغم أن اليوتوبيات الاوروبية الخيالية الحالمة ، وحتى الماركسية نفسها ، دعت اليها قبل ان يؤكد الواقع استحالتها ... واذا كان الامر كذلك ((وكان لابد للناس من مراتب ودرجات ، لم تجعل الشريعة لاحد منهم فضلا

---

(٣٠٤) نفسه ، ص ٢٢.

(٣٠٥) محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ص ٣٤٤ ، بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري ، ترجمة : د. عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم ، ط٣ ، الشركة العربية ، (القاهرة–١٩٥٩م).

(٣٠٦) أشعة خاصة بنور الاسلام ، ص ٢٤.

(٣٠٧) نفسه ، ص ٢٥.

(٣٠٨) نفسه ، ص ٢٧.

علـى احـد الا بعلـو الهمـة فـي مكـارم الاخـلاق وبالنبـل والـذكاء ، وفـي هـذا فليتنـافس المتنافسون))[٣٠٩]. فبالفعل والعطاء والانجاز ، وبالقدرات والامكانات الذاتية ، لابد أن يتمايز الناس ، وبهذا فقط تكون المساواة عدلا ، والا فانها الظلم بعينه اذ لا يمكن أن يكون المقياس خارجا عن ارادة الناس واختيارهم ومقدار عطائهم ، فأنت اذا ساويت بين من يعمل ومن لا يعمل جنحت الى الظلم ، تماما كما لو انك فرقت بين الابيض والاسود حيث لايملك الانسان أن يختار لون جلده !

[٤]

وهناك أيضاً ، مع التحرير والمساواة ، خصيصة (الايجابية) التي تنبثق عن المنظور الاسلامي للقضاء والقدر ، على العكس تماما مما توهمه ، أو حاول أن يوهم به الشكاكون وخصوم هذا الدين والذين في قلوبهم مرض ! اذ ((كيف نقول ان عقيدة القضاء والقدر تشل كل عمل عند المسلمين ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) كان انشط الناس واكثرهم مثابرة وجهادا، والاسلام هو الدين الوحيد الذي جاء عقب نشأته بالفتوح الواسعة العجيبة والحضارة السامية العظيمة ؟ ان كلمة (اسلام) تعني الرضاء بأوامر الله ، اي بما لا يمكن لاي قوة انسانية ان تحول دونه ، ولكن ليس من معانيها الخضوع للأمور التي يبدو انها يمكن ان يغير مجراها العمل والاقدام .. فهذه العقيدة اذن بعيدة كل البعد عن أن تكون مصدر ضعف .. انها على العكس من ذلك مصدر قوة نفسية لاتضارع بالنسبة الى المسلم ، تعينه على احتمال المحن والشدائد))[٣١٠].

[٥]

فسواء تفحصنا الامر على مستوى التحليل العقلي والنفسي ، ام على مستوى التحقق التاريخي والحضاري ، فانه سيتأكد لدينا صدق هذا الاستنتاج الذي يلمح في رؤية المسلم للقضاء والقدر دافعا للفعل والتجاوز والبذل والعطاء.

---

(٣٠٩) نفسه ، ص ٢٦.

(٣١٠) محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ص ٣٣١.

[٦]

وهو دين يقف بلا هوادة مع العلم والاقتناع والمنطق والبرهان ضد البدع والخرافات والاضاليل. لقد كان الاسلام ((منذ البداية في أيامه الاولى قد اخذ في محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم الى يومنا هذا))[٣١١].

وهو الى جانب هذا كله دين مرن ، شامل ، صالح لكل زمان ومكان ، قدير على التأثير والتعامل مع شتى الطبائع والاهتمامات ومختلف المستويات العقلية والحضارية ((فكما أن الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والاجناس ، فهو صالح كذلك لكل انواع العقليات وجميع درجات المدنيات .. وبينما تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) اذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني ، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات .. اذ يهواه ذلك الغربي الذي افناه الفن وتملكه الشعر))[٣١٢].

تلك هي واحدة من اهم ميزات الاسلام الاصيلة ((ملاءمته لجميع الاجناس البشرية ، فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الاسلام .. لقد أكد [هذا الدين] من الساعة الاولى لظهوره انه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، واذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في انسان عن آخر ، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة))[٣١٣].

ومن أجل ذلك نجد رجلا انكليزيا كـ (ازوالد ويرث) يكتب قائلا ((انني تبينت انني أدين بدين الاسلام دون شعور مني بذلك .. أما غوته – الاديب الالماني الشهير – فانه بعد أن درس اصول الاسلام اعلن : اذا كان الاسلام هو هذا أفلا نكون جميعا مسلمين ؟))[٣١٤].

[٧]

لقد اكتمل معمار هذا الدين الذي أريد له أن يكون دين البشرية الاخير الذي يحمل الزامه وديمومته حتى اليوم الاخير لحياة الانسان على الارض ((وعندما رفع الله اليه مؤسس الاسلام (صلى الله عليه وسلم) كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيا ، وبكل دقة ، حتى في اقل تفاصيله شأنا))[٣١٥].

---

(٣١١) أشعة خاصة بنور الاسلام ، ص ١٨.

(٣١٢) نفسه ، ص ٣٨.

(٣١٣) محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ص ٣٤٥.

(٣١٤) نفسه ، ص ٣٤٢.

(٣١٥) نفسه ، ص ٣١٥.

ان دينا كهذا لن يكون فقط صالحا لكل زمان ومكان ، ملائما للانسان في ظروفه واحواله الذاتية والموضوعية ، ولكنه سيملك في الوقت نفسه قدرة مذهلة على التأثير ، والكسب ، والامتداد. وهذه القدرة تستمد مقوماتها ولا ريب من خصائص الاسلام التي اشر (دينيه) على بعضها في عدد من مؤلفاته ، وها هو الان يتحدث عن قوة التأثير فيجد كيف ((طبع الاسلام بطابعه المحسوس)) الامم التي انتمت اليه ((على اختلاف جنسياتها وبلدانها)) وكيف ان ((آثاره لا تزال باقية في أهل اسبانيا وان كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون))[٣١٦]. وهو يفسر هذا الارتداد – الذي يحدث في حالات استثنائية قياسا على القاعدة الاشمل والاوسع – بأنه انما يتأتى عن اثنتين : الفتنة والتعذيب الذي يفوق القدرة على الاحتمال كذلك الذي مارسته محاكم التحقيق الاسبانية ، أو الانسياق وراء ((أغراض مادية سافلة دنيئة))[٣١٧].

وفيما عدا هذه الحالات المحدودة ، فان تأثير الاسلام على النفس يسمها بطابع لا يمحى[٣١٨]، هذا التأثير الذي امتد الى كافة مناحي الحياة الفردية والجماعية ، وقدر على أن يغير ويبدل ، ويلغي ويزيل الكثير من الممارسات الخاطئة المتأصلة التي عجزت ازاءها سائر النظم والمذاهب والاديان ، سماوية كانت ام وضعية ((ان الكثيرين من المسلمين [على سبيل المثال] قد تركوا الخمر ثم تابوا وأنابوا ، وهم لم يفعلوا ذلك الا بتأثير الدين نفسه وبما جاء فيه من النهي عن الخمر والامر بالتحريم ، في حين اننا لم نسمع ان احدا من المسيحيين الذين يدمنون الخمر قد تركها أو عاد عنها))[٣١٩].

ونحن نعرف جيدا ، على المستوى الوضعي ، كيف اخفقت محاولة الولايات المتحدة الامريكية لتحريم الخمر في ثلاثينات هذا القرن ، فشلا ذريعا ، أرغمت معه ان ترجع عن قرارها، رغم ما بذلته من جهود هائلة على كافة المستويات : الاعلامية ، والمالية ، والبوليسية ، والقانونية.

باختصار شديد فاننا ((لو أردنا أن نعرف الاثر الحقيقي والطابع الكبير للاسلام على الافئدة والنفوس لوجب علينا دراسة القرآن دراسة تحليلة تامة حتى يظهر قدر العظمة والتأصل في روح العقيدة الاسلامية فيما يتعلق بالمولى سبحانه وتعالى))[٣٢٠].

---

(٣١٦) نفسه ، ص ١٥.

(٣١٧) نفسه ، ص ٣٨–٣٩.

(٣١٨) نفسه ، ص ٣٨–٣٩.

(٣١٩) نفسه ، ص ٢٢.

(٣٢٠) نفسه ، ص ٣٩.

فهذا الاستسلام الفعال لامر الله ، هذا اليقين المطلق بصدق تشريعه وعدله وموضوعيته، وموافقته لمطالب الانسان ومكانته في الارض ، هو الذي مكن لايات معدودة في كتاب الله ان تكف امة بكاملها ، بل أمم شتى عن شرب الخمر ، ومكن لآيات اخرى أن تزيل وتلغي عشرات، بل مئات من الممارسات الخاطئة المتأصلة في الحياة البشرية ، وان تبني محلها قيما اخرى وممارسات جديدة تليق بكرامة الانسان.

انها ، اولا وأخيرا ، العقيدة التي استكملت اسبابها وخصائصها فامتلكت بالتالي هذه القدرة الفذة على التأثير والتغيير.

[٨]

وكما أن (دينيه) يقف في اكثر من مكان من مؤلفاته لكي يؤشر على الخصائص والسمات الاساسية لعقيدة الاسلام ، فانه ، وهو القادم من ضلال الغرب وتخبط أديانه ومذاهبه، يقف مندهشا ومبهورا ازاء (العبادة) الاسلامية ، فيؤشر على مزاياها ويحكي عن تأثيرها العجيب.

انه يتحدث عن (الصلاة) ، فيجد كيف أن الاسلام يتميز منذ اللحظة الاولى ، لحظة الدعوة اليها ، وتذكير المؤمنين بأن ميعادها قد حان ، فها هنا يتولى (الانسان) نفسه دعوة اخوانه الى تأدية هذه الفريضة ((وصوت الانسان صوت طبيعي ، وهو ادعى الى حمل العاطفة الانسانية الصادرة من قلب المؤمن الى اخوانه المؤمنين للقيام بأهم اركان الاسلام ، من اي الة صناعية ، ومن القلب الى القلب رسول))[٣٢١].

حتى اذا ما بدأت الصلاة ، لحظ (دينيه) كيف أن ((الحركة والاشارات)) التي تتضمنها ((هي ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها. كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشخوص الى السماء واستنزال الدموع .. حقا ان الصلاة الاسلامية خالية من تلك الامور الشائنة التي خصها المسحيون بالصور المسيحية مما جعلها في غير جمال ولا جلال ولا وقار. حقا ان الاقوال والحركات التي في الصلاة الاسلامية هي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان ، وهي خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك ، مما هو غريب في العبادات لان الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو الغني العزيز))[٣٢٢].

---

(٣٢١) نفسه ، ص ٣٧.

(٣٢٢) نفسه ، ص ٣٦.

ليس هذا فحسب بل ان حركات الصلاة الاسلامية ((فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية. فهي مفروضة الاداء خمس مرات في اليوم الواحد .. اضف الى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة ، والنظافة من الايمان))[٣٢٣].

انها معادلة التوازن الاسلامي المعروفة بين الروح والجسد ، حتى في أشد الممارسات التعبدية التصاقا بالروح .. ويواصل (دينيه) ((.. ان بعض أعمال الصلاة هي وحدها التي يجهر بها الامام : كالتكبير [والتلاوة] والتسليم الختامي. أما الحاضرون فانهم لايقرؤون الصلاة الا في قرارة انفسهم. ونفوسهم لا تردد سوى التكبير في غمغمة لا تكاد تلج اذانهم. ان نصف السكوت هذا ليزيد في عظمة هذه الحركات الجامعة بين البساطة وسمو الدلالة ، والتي تتحد فيها الاهلية الكاملة بالتواضع ، وبخلوها من الرياء تماما ، تعطي مشهدا رائعا لعبادة ، تأثيره أعظم من أن يتصوره خيال))[٣٢٤].

[٩]

ويمضي الرجل منقبا عن المزيد من القيم والمنافع النفسية والروحية والجسدية التي تحققها الصلاة الاسلامية للمصلين ، فلقد ((كتب الله الصلاة على عبيده واقتضت حكمته أن تكون انفع واصح ما منحهم من خير – نعم – خمس صلوات في اليوم تمكن بني البشر من الراحة التامة خمس مرات يوميا ، فتحول بينهم وبين الانفعالات والعواطف المثيرة التي تؤدي تارة الى المغالاة في الفرح ، وذلك طريق يؤدي الى الرذائل ، وتارة الى المغالاة في الحزن ، وذلك طريق قد يؤدي الى جنون اليأس. خمس صلوات يوميا ، بما لهن من مقدمات الطهارة، يلزمن الانسان بالتفكير في نظافة بدنه وصفاء روحه))[٣٢٥].

ولا يقف (دينيه) عند حدود متابعة تأثيرات الصلاة على المستوى الفردي العمقي ، وانما يلحظ كيف أن هناك ، بموازاة هذا كله ، تأثيرا جماعيا بالاتجاه الافقي ، حيث تمارس الصلاة دورها في شد المؤمنين بعضهم الى بعض وازالة الحواجز والمتاريس ، هنالك حيث لا يتبقى سوى تجمع بشري تنصهر فيه كافة الفروق ، وتشده نحو المركز ، نحو الهدف ، نحو الله .. بؤرة واحدة ((فمنذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، من الشواطىء الافريقية للمحيط الاطلسي الى الشواطيء الصينية للمحيط الهادي ، يستدير [ملايين] المسلمين خمس مرات في كل يوم الى

---

(٣٢٣) نفسه ، ص ٣٧.

(٣٢٤) محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ص ٥٤.

(٣٢٥) نفسه ، ص ١٤١–١٤٣.

ناحية الكعبة المقدسة في مكة حيث تتجمع الملايين من صلواتهم متناسقة لتصعد الى الملا الاعلى كي تشهد الله على ما للروح الاسلامية نحوه من ولاء لايمكن ان يتحول))[٣٢٦].

أما فريضة (الصيام) فقد كانت نتيجتها ، كما يلحظ دينيه ((الخير الكثير ذلك أن الانسان مجبول على الانانية وليس هناك من علاج لها سوى الشعور القوي ببؤس الاخرين من جوع وظمأ. والمؤمنون وقد تخففوا من ثقل الطعام يجتمعون اثناء النهار فيتزودون بالغذاء الروحي .. وبرياضة [الصيام] الروحية تتقوى أواصر الاخوة بينهم ، وينتصر المؤمنون متعاونين على هذا العدو الشرس ، أعني الجوع والظمأ ، فيصبحون اكثر استعدادا وأوثق تعاونا لمجابهة أشد أعدائهم مراسا من بني البشر))[٣٢٧].

ذلك اذن هو الخير الكثير الذي يتمخض عن الصيام ، ينساح لكي يشمل الروحي والاجتماعي والنفسي في وقت واحد. وهنالك ايضا المردود الجسدي فكما أن ((هذا الاختبار الديني التعبدي يحيي الارواح)) فانه ((يقوي الاجسام)) كذلك ، ((ولاجل أن يعبر المؤمنون الصحراوات الرهيبة التي تحيط بهم لفتح العالم ، كي تكون كلمة الله هي العليا ، كان لابد لهم من هذا التدريب الذي يعتبر هينا بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد في فتوحاتهم))[٣٢٨].

[١٠]

وأما (الحج) فانه يفجر معان وقيما ايمانية اخرى ((ان احتشاد الناس في عرفات موقف من مواقف الحشر حقا. ان جميع اجناس الانس على تباينها تحتشد في ذلك المكان الذي اعتاد الاقفار .. ولن ترى في العالم [في غير هذا المكان] جمعا اجتمع فعرض في ان واحد كل تلك الوجوه الادمية المختلفة الشبه ، وكل تلك اللهجات واللغات المتباينة .. لقد تاخى هؤلاء جميعا في تلك الساعة العظيمة ، تاخوا لغة وقلبا ، ونسوا فروق الاجناس والدرجات والطبقات ، نسوا أحقادهم : مذهبية كانت أم سياسية. في عرفات يرجع الاسلام الى اتحاده الشامل وحماسته القوية كما كان في أيامه الاولى))[٣٢٩].

ومن أجل إزالة أي لبس قد يتوهمه البعض مكراً أو جهلاً بصدد تقبيل الحجر الاسود ، يقول دينيه : ((لم يكن تقبيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهذا الحجر بعلامة للميل في العبادة نحو الخرافات ، فذلك يتنافى ومبادىء القرآن تنافيا صريحا. بل ان تقبيل ذاك الحجر لم يكن الا اكراما واجلالا لتراث سلفه المجيد))[٣٣٠].

---

(٣٢٦) نفسه ، ص ٥٥.

(٣٢٧) نفسه ، ص ١٦٩.

(٣٢٨) نفسه ، ص ١٧٠.

(٣٢٩) نفسه ، ص ٢٩٦-٢٩٨.

(٣٣٠) نفسه ، ص ٢٥٠.

ولا اعتقد أن عاقلا يعترض على مراسيم وضع أكاليل الزهور على قبور الجنود المجهولين من قبل زعماء العالم وقادته ، بحجة أنه خرافة أو وثنية ، بينما هم لا يبتغون سوى التعبير عن تقديرهم لارواح اولئك الذين ماتوا أو استشهدوا دفاعا عن العقيدة والارض !

تريتون :

شواهد عن ((غير المسلمين)) مرة اخرى

[١]

يقدم الباحث الانجليزي ((ارثر ستانلي تريتون)) في كتابه المعروف (أهل الذمة في الاسلام)[٣٣١] شواهد واستنتاجات مهمة بصدد معاملة غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ، عبر العصور .. وبالرغم مما يتضمنه الكتاب – في الوقت نفسه – من أخطاء موضوعية وأحكام جائرة ، فان اقرار المؤلف بالوقائع والاستنتاجات التي سنمر بها في هذه الصفحات ، يحمل قيمته العقيدية والتاريخية المتألقة بصدد واحد من المسائل الاساسية في فكر الاسلام.

ولد ((تريتون)) عام (١٨٨١م) وتعلم في عدد من الكليات البريطانية ، وعين مساعد استاذ للعربية في ادنبره (١٩١١م) واستاذا في عليكره في الهند (١٩٢١م) ومدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن (١٩٣١–١٩٤٧م). وقد وجه جل اهتمامه الى الفقة وطوف في عدد من البلدان العربية ، وانجز العديد من المؤلفات ، اشهرها ، فضلا عن (أهل الذمة ..) (علم الكلام في الاسلام) و(الاسلام ايمان وشعائر) و(مواد في التربية الاسلامية).

[٢]

لنبدأ من الجذور ..

ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلفاءه الراشدين (رضي الله عنهم) اذ وضعوا الاسس الاولى ، الملزمة ، للعلاقة بغير المسلمين ، قدموا للعالم ، على مستويي التنظير الفقهي والتنفيذ العملي ، صورة للعلاقة بين الطرفين ، لم يستطع اي دين او مذهب ان يقدمها عبر التاريخ ، ولن يستطيع.

والشهادات كثيرة ، وتوثيق هذه المقولة ليس امرا صعبا بسبب زحمة المادة الفقهية والتاريخية في هذا المجال .. ونحن هنا لا نستطيع ان نخالف عن المنهج الذي اعتمدناه وهو المرور من قناة واحدة كما يقولون .. ما يقدمه هذا الباحث او ذاك تجاه هذه المسالة او تلك .. فما الذي يقوله ((تريتون)) بهذا الصدد ؟ لنستمع اليه.

---

(٣٣١) ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ، الطبعة الثانية ، سلسلة المكتبة التاريخية ، دار المعارف (القاهرة– ١٩٦٧م).

((يصر الاسلام على وجوب اصطناع الرفق مع الشعوب المغلوبة ويوصي بحسن معاملتها والتزام العدل معها ، ومما روي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله (من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه))[٣٣٢].

وقال ابو بكر (رضي الله عنه) ((لا تقتلن احدا من اهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته ، فيكبك الله على وجهك في النار)). والروايات الواردة بحق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في رأفته بالذميين كثيرة ، حتى ليقال انه مر على قوم قد اقيموا في الشمس في بعض ارض الشام ، فقال : ما شان هؤلاء ؟ فقيل له : انهم اقيموا في الجزية ، فكرة ذلك وقال : ((هم وما يعتذرون به)) ، قالوا : يقولون لا نجد. قال : (فدعوهم ولا تكلفوهم مالا يطيقون) ثم امر بهم فخلى سبيلهم. وحدث وان مر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بباب قوم وعليه سائل يسال ، وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : ((من اي اهل الكتاب انت؟) فقال : يهودي. قال : (فما الجاك الى ما أرى ؟) قال : اسأل الجزية والحاجة والسن. فاخذ عمر بيده وذهب به الى منزله واعطاه مما وجده ثم ارسل به الى خازن بيت المال وقال له: (انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما انصفناه ان اكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من اهل الكتاب) ثم وضع عنه الجزية))[٣٣٣].

تلك هي تأشيرات فحسب عن المنطلقات والوقائع المبكرة التي شكلت اساس العلاقة بين المسلم وغير المسلم في المجتمع الجديد الذي بناه الاسلام.

يواصل ((تريتون)) متابعته فيقول : ((ولما تدانى اجل (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) اوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله (اوصي الخليفة من بعدي باهل الذمة خيرا، وان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم والا يكلفهم فوق طاقتهم))[٣٣٤]. وفي الاخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول ، وهي شهادة (عيشويابه) الذي تولى كرسي البطريركية من سنة (٦٤٧م) والى سنة (٦٥٧م) اذ كتب يقول (ان العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون ، انهم ليسوا باعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسّيسينا وقديسينا ، ويمدون يد المعونة الى كنائسنا واديرتنا). والظاهر ان الاتفاق الذي تم بين (عيشويابه) وبين العرب كان من صالح النصارى ، فقد نص على وجوب حمايتهم من اعدائهم ، والا يحملوا قسرا على الحرب من اجل العرب ، والا يؤذوا من اجل الاحتفاظ بعاداتهم

---

(٣٣٢) ابو يوسف : الخراج ، ص ٧١.

(٣٣٣) اهل الذمة في الاسلام ، ص ١٥٧-١٥٨.

(٣٣٤) يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، ص ٥٤.

وممارسة شعائرهم ، والا تزيد الجزية المجباة من الفقير على اربعة دراهم ، وان يؤخذ من التاجر الغني اثنا عشر درهما ، واذا كانت امة نصرانية في خدمة مسلم فانه لا يحق لسيدها ان يجبرها على ترك دينها او اهمال صلاتها والتخلي عن صيامها))[٣٣٥].

[٣]

بل ان الامر بلغ حد ((ان كلا من النبي (صلى الله عليه وسلم) وعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أباح دم المسلمين الذين يقتلون النصارى غيلة. والمأثور عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه اشار الى ان من قتل ذميا فلن يشم رائحة الجنة))[٣٣٦].

وعلى هدى هذه المبادىء والمرتكزات الانسانية التي رسمها واكدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واصحابه الكرام (رضي الله عنهم) نظمت المواثيق والعهود بين المسلمين المنتصرين ، والجماعات التي وجدت نفسها بالضرورة في نطاق الدولة التي اقامها الفتح ((لقد كان العرب في ايامهم الاولى يلتزمون جادة الصبر والاناة ، اذ كثيرا ما نقرا عن مدن استسلمت بشروط ثم ثارت وتمردت على العرب ، ثم استسلمت مرة اخرى فاعادوا لها عهودها الاولى))[٣٣٧].

انه الاحترام المطلق للكلمة والالتزام التام بالميثاق .. لان اي تجاوز او اعتداء عليهما انما هو مخالفة عن امر الله .. ليس هذا فحسب بل ان هذه المواثيق تضمنت – ابتداء – حرصا عجيبا على قيمتي العدل والمساواة ، من خلال منظور انساني لم ترق اليه عقيدة او مذهب في العالم .. وها كم هاتين الشهادتين :

((كانت معاملة الذميين تنطوي في بعض الاحيان على ما يشير الى مساواتهم التامة بالمسلمين في كافة الحقوق. ونستدل على صحة هذا الراي من انه لما صالح عبدالله بن سعد بن ابي سرح (٢٥–٣٥هـ) ملك النوبة (قليدوروث) تقرر في الصلح (انه امان وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من اهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين واهل الذمة) ، واخذ النوبيون على انفسهم العهد بحماية (من نزل ببلدهم او طرقه من مسلم او معاهد[٣٣٨] ..))[٣٣٩].

---

(٣٣٥) اهل الذمة في الاسلام ، ص ١٥٨–١٥٩.

(٣٣٦) نفسه ، ص ٢٠٧–٢٠٨.

(٣٣٧) نفسه ، ص ١٦٠.

(٣٣٨) المقريزي : الخطط ، ٢٠٠/١.

(٣٣٩) أهل الذمة في الاسلام ، ص ١٦٢–١٦٣.

((ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الاسلامية في معاماتها الذميين ما جاء في الامر الذي وجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في (المتحف البريطاني) ، وعلى الرغم من افساد قسم منه فقد جاء في الباقي (خوفا من الله ، وحفاظا للعدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم .. ولكن تجب معاملة الجميع بالعدل ، وأخذ الشيء من كل منهم بقدر طاقته) ..))[٣٤٠].

فلا نعجب – والحال كذلك – اذا ((كان النصارى في بعض الاحيان يؤثرون العيش في ظل الحكم الاسلامي على العيش في ظل اخوانهم المسيحيين))[٣٤١].

[٤]

فيما بعد ، وعلى مدى التاريخ الاسلامي ، ومع التحفظ على بعض الاستثناءات التي تؤكد القاعدة ولا تنفيها ، عبرت هذه المبادىء والقيم الانسانية في التعامل مع الاخرين عن نفسها وبصيغ شتى .. وتريتون يحاول ان يضع يده على هذه الصيغ التي يمكن ان ندرجها ، من أجل التوضيح والتركيز ، في تيارين أو خطين رئيسيين : الحرية الدينية وتكافؤ الفرص.

لقد كانت ((الكنائس تبنى بحرية ، وكانت تشيد بموافقة السلطة وأصحاب الامر والنهي بل واحيانا بمساعدتهم .. وليس هناك حتى سنة (١٥٠هـ أو ١٧٠هـ) أي اشارة الى صدور أمر بمنع استحداث الكنائس))[٣٤٢]. وأثر عن عمر بن عبد العزيز ((أنه اجاز للذمي أن يوصي بالوقف على الكنائس من ماله لأهل ملته من النصارى او اليهود))[٣٤٣]. ويقول الشافعي – رحمه الله – مؤكدا الموقف الفقهي – التنظيري لمسألة الحرية الدينية هذه ، بأن ((الحكومة يجب الا تتدخل في اي عمل من اعمال الذمي رغم ما قد يكون فيه من مناقضة للشرع طالما انه لا يتعارض مع الوضع العام. فان كان الذميون في قرية ينفردون بامتلاكها لم تستطع الحكومة منعهم من احداث كنيسة ولا رفع بناء ، وألا تتعرض لهم في خنازيرهم وخمرتهم وأعيادهم وجماعتهم) ، وقد يعير الذمي ذميا آخر دينا بالربا ، أو يعقد نكاحا لايجيزه الشرع الاسلامي ، فلا يحل لاحد ما التدخل فيما فعلوه ...))[٣٤٤].

وعلى مستوى تكافؤ الفرص ، نجد كيف اتيح لغير المسلمين أن يعبروا عن قدراتهم ، وأن يصعدوا قدما في سلم الحياة الاجتماعية والسياسية ، وأن يسهموا مع المسلمين ، جنبا الى

---

(٣٤٠) نفسه ، ص ١٦٣–١٦٤.

(٣٤١) نفسه ، ص ١٧٦.

(٣٤٢) نفسه ، ص ٥١–٥٢.

(٣٤٣) نفسه ، ص ١١٠.

(٣٤٤) نفسه ، ص ١٠٩–١١٠.

جنب ، في اقامة صرح الحضارة الاسلامية واغنائها بالمعطيات ... وأن يتلقوا من التقدير ماهو كفاء لما قدموه أو أبدعوه. ولقد كان الكتاب المسلمون ، كما يقول تريتون ((كريمين في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم حتى ليسمون حنين بن اسحق برأس أطباء عصره ، وهبة الله بن تلميذ (بأبي قراط عصره وجالينوس دهره) ، ويعجب ابن خلكان من ان رجلا في ذكائه وعبقريته لم يعتنق الاسلام ، وكان معاصره أبو البركات هبة الله اليهودي يسمى (بشمس العصر) ..))[٣٤٥].

ولقد ظلت ((علاقات العرب برعاياهم في ميدان الاداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الاول والثاني للهجرة ، بل ان كثيرا من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة ، ولقد أشرنا انفا الى أن الحكومة اصطنعت مهندسين وعمالا من غير المسلمين))[٣٤٦].

كما اننا نجد كيف ان كثيرا من الذميين درس ((على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين ، من ذلك ان حنين بن اسحق درس على يد الخليل بن أحمد ، وسيبويه حتى اصبح حجة في العربية ، وتتلمذ يحيى بن عدي بن حميد – افقه رجال عصره في المنطق – على يد الفارابي، ودرس ثابت بن قرة على محمد بن موسى الذي قدمه الى الخليفة المعتضد ، وتلقى ابن جزلة علومه على ابن الوليد من رجال المعتزلة .. وتدل مؤلفاته على عمق تفكيره وقوة معرفته ، وما لبث أن اسلم .. ولا يفوتنا أن نشير هنا الى ان روح التسامح هذه كانت توجد أحيانا بين المسيبحيين ، فقد تلقى متى بن يونس المنطقي النسطوري علومه على يد اساتذة من السريان))[٣٤٧].

بل ((ان ذمية المرء لم تكن تحول قط بينه وبين تولي المناصب الدينية الرفيعة بين المسلمين)) حال اسلامه[٣٤٨] بحجة أنه كان في ماضيه خصما للاسلام :

ومن منا لا يعرف المدى الواسع الذي منح للذميين في مجالات النشاط الاداري ، وحشود المناصب والوظائف التي تقلدوها ؟ ومن منا لا يعرف – كذلك – الحياة الاجتماعية الهنيئة الطيبة التي عاشوها في كنف الاسلام ((وتقلبهم في بلهنية العيش واتساع الاحوال وكثرة النفقات)) الى حد ((الترف والاسراف)) احيانا ؟[٣٤٩].

---

(٣٤٥) نفسه ، ص ١٨٢.

(٣٤٦) نفسه ، ص ١٨٩.

(٣٤٧) نفسه ، ص ١٩٢–١٩٣.

(٣٤٨) نفسه ، ص ١٧٥–١٧٦.

(٣٤٩) نفسه ، ص ١٦٩.

ان الوقائع كثيرة في كل اتجاه من اتجاهات التعامل بين المسلم والذمي ، وكثيرة ايضا الشهادات التي يقدمها ((تريتون)) وعشرات غيره من الباحثين الغربيين في هذا المجال ، ويكفي أن نحيل القارىء هنا ، ايثارا للايجاز ، على مظان بعض الشهادات في كتاب تريتون الذي بين أيدينا[٣٥٠] ونقارن هذا بما تم للمسلمين في البلاد التي لم يكونوا يملكون فيها السلطة وكانوا فيها اتباعا لمن لا يدين بدينهم من النصارى أو اليهود ، بل يكفي أن نتذكر ما جرى في اسبانيا بعد سقوط دولة الاسلام فيها ، وما جرى في فلسطين بعد بغي البغاة عليها ، لكي نعرف ما الذي أراد الاسلام أن يعمله لصالح الانسان في العالم !

(٣٥٠) لوضع اليد على المزيد من الشواهد بصدد معاملة غير المسلمين ، والسماح لهم ببناء مؤسساتهم التعبدية، وممارسة عاداتهم وطقوسهم واحتفالاتهم الدينية ، وانشطتهم الاقتصادية وتسنم الوظائف المهمة في الدولة وقتالهم احيانا إلى جانب المسلمين ، انظر المرجع نفسه ، الصفحات ١٤-٢٦ ، ٣٣-٣٤ ، ٤١-٤٣ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١١٥-١١٦ ، ١١٨-١١٩ ، ١٢١-١٢٤ ، ١٦١-١٦٢ ، ١٦٨-١٦٩ ، ١٩٣-١٩٥ ، ٢١٠-٢١٦ ، ٢٢٤-٢٢٥ ، ٢٦٠-٢٦١ ، ٢٦٥-٢٦٦.

بلا شير :

الوجه الاخر للاعجاز

[١]

اذا كان (موريس بوكاي) ، العالم ، الطبيب الفرنسي ، قد تحدث في كتابه المعروف (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) عن معجزة القرآن العلمية ، فان (ريجيس بلاشير) ، الباحث الناقد الفرنسي ، يحدثنا في كتابيه (القرآن) و(تاريخ الادب العربي) عن الوجه الادبي لهذه المعجزة التي ادهشت العقول وحيرت الالباب.

و((بلاشير)) هو الاخر يتعامل مع القرآن من خارج دائرة الاسلام ، وبالتالي فانه ، بمنهجه الاستقرائي و((بالجهد التجريدي)) الذي بذله ، كما يقول هو نفسه ، لغرض الوصول الى افراد الظاهرة الادبية في الايات المنزلة على محمد (صلى الله عليه وسلم)[٣٥١]، يتوصل الى نتائج ذات قيمة بالغة في مجال الدراسات الأدبية للقرآن الكريم.

بعد اشارة سريعة الى توثيق النص القرآني يقول فيها ان الفضل في انجاز هذه المهمة يعود الى ((الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لاسهامه قبل سنة (٦٥٥م) في ابعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن ، واليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المنزل على مدى الاجيال القادمة))[٣٥٢].

بعدها ينطلق ((بلاشير)) باتجاهين لمتابعة الظاهرة القرآنية في جانبها الادبي : الاسلوب والتأثير.

ولكن من هو (بلاشير) هذا ؟

ولد الرجل بالقرب من باريس ، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء بالمغرب ، وتخرج بالعربية من كلية الاداب بالجزائر (١٩٢٢م) وعين استاذا لها في معهد مولاي يوسف بالرباط (١٩٢٤– ١٩٣٥م) واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس استاذا لكرسي الادب العربي (١٩٣٥–١٩٥١م) كما عمل استاذا محاضرا في السوربون ونال الدكتوراه عام (١٩٣٦م).

---

(٣٥١) تاريخ الادب العربي ٥٠/٢ ، ترجمة : د. ابراهيم الكيلاني ، وزارة الثقافة ، (دمشق–١٩٧٣–١٩٧٤م).
(٣٥٢) نفسه ، ٢٢/٢.

كتب العديد من الدراسات عن تاريخ الادب العربي في اشهر المجلات الاستشراقية ، وترجم القرآن الكريم في ثلاثة أجزاء. أما اشهر كتبه فهو (تاريخ الادب العربي) و(القرآن) اللذين اعتمدناهما ها هنا.

[٢]

يقف (بلاشير) طويلا عند الاسلوب القرآني ، ومنذ الضربة الاولى يسقط ترهات الخصوم وأضاليلهم ، تلك التي سعت لان تجد اي تشابه أو امتداد بين أداء القرآن وتنبؤات الكهان. كما أن هذا الاداء الذي هو نسيج وحده يخلف وراءه بعيدا سائر معطيات الادب البشري، بل ان أشد الترجمات دقة والماما يمكن ان تؤدي غرضها المطلوب بنجاح تام مع كل أثر الا مع كتاب الله ((لا جرم في أنه اذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فانما هو الايقاع الكلامي في الآيات المنزلة في ذلك العهد .. ان خصوم محمد قد أخطاوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا الا اغاني سحرية وتعويذية وبالرغم من اننا على علم ، استقرائيا فقط ، بتنبؤات الكهان ، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته ، فان للايات التي أعاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكرها في هذه السور ، اندفاعا وألقا وجلالة تخلف وراءها بعيدا اقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعية التي وصلتنا))[٣٥٣].

الاندفاع .. الالق .. الجلالة .. تلك هي باختصار بعض مفاتيح الاداء القرآني الذي لا يملك من يتعامل معه بحس أدبي مرهف دقيق محيط ، سوى الانبهار أزاء هذا التدفق كالشلال، كموج عنيف متلاحق ، يشع سنى وألقا ، ويفرض على المتلقي حضوره المترع بالجلالة والمهابة كصوت قادم من أبعاد الكون القصية ، لم يألفه انسان يعيش على هذه الارض المنزوية ولن يألفه !

ليست موسيقى الكلمات وحدها ، انما هناك قيم فنية أخرى ، ففي أية مقارنة مدققة بين الايات ((نجد أنه من الخطأ أن ننسب القيمة الادبية لمثل هذه الايات الى موسيقى الكلمات وحدها. ان مزية هذه القطع مردها ايضا الى الفن المكون من البساطة التي اشربتها ، والكلمات الموضوعة في امكنتها ، والى الحركة التي تركز الشخصيات. ان هذه الظاهرة واضحة في سورة يوسف. واذا ماقورن القصص القرآني ببعض الفصول المشابهة في سفر التكوين Cenese المثقلة باللغو والاستطرادات ، ظهر أن القصص القرآني أعلى مرتبة بما لا يقاس ، فهو يتدرج برشاقة دون اشارات زائدة ، تسيطر عليه فكرة مواسيه الا هي أن العادل ينتصر بايمانه ووفائه.

---

(٣٥٣) نفسه ، ٣١/٢.

وليس فن الحكاية في سور أخرى ، هو الذي يحملنا على التقدير ، بل المميزات الخطابية والاسلوبية. ففي سورة الاعراف يعجب المرء عندما يقرأ من (الآية ٥٧ الى الآية ٩١) عن الانبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب من توازن القصص الخمس والتأثير المزدوج من تكرار اللازمة))[٣٥٤].

فبالاضافة الى الموسيقى اذن هناك :

(١) البساطة المؤثرة.

(٢) وضع الكلمات في أماكنها.

(٣) رسم الشخصيات بدقة بالغة.

(٤) التركيز والاقتصاد.

(٥) المميزات الخطابية والاسلوبية.

وإذن فان القرآن الكريم لا يخلف وراءه بعيدا – فحسب – سائر المعطيات الادبية الوضعية ، ولكن – ايضا – نصوص الكتب الدينية المحرفة ، بما لا يقاس.

[٣]

يمضي (بلاشير) في تحليله فيلاحظ (في سورة يونس : ١٠-٣١-٣٧) ((بالاضافة الى تنوع التركيب ، حيث يتناوب الاستفهام والتأكيد الحاسم ، اندفاع الفكر الذي يدافع الخصم ويرهقه دون أن يتيح له وقتا للاجابة واستعادة الروع ، فان ثمة بلاغة عفوية نستشفها حتى من خلال الآيات المترجمة))[٣٥٥].

واذا كان لابد من التعداد الذي قد يعرقل التعامل الجمالي مع النص فاننا سنضيف هنا تأشيرات أخرى للرجل على أسلوب القرآن فهناك – سادسا – تنوع التركيب ، وهناك – سابعا – هذا الاندفاع في الخطاب الجدلي الذي يحصر المدافع في الزاوية الضيقة دون أن يتيح له أي حيز للحركة لكي ما يلبث أن يفحمه. وهناك – ثامنا – تلك البلاغة العفوية التي تفرض نفسها حتى عندما يترجم القرآن الى لغات أخرى !

وثمة ما يلحظه (بلاشير) ، كذلك ، مما يعد بحد ذاته تأكيدا مدهشا لمعجزة القرآن الادبية ((ان علم البيان لارسطو طاليس الذي تأصل في العراق في ذلك الوقت (القرون الهجرية الاولى) يصدق في مجال تطبيقه على الادب العربي كل ما يتيح القرآن وضعه على صعيد التجريد. والمسألة سهلة في الواقع : اذ ما دام القرآن كلام الله ، وما دام يكون كمالا للغة

---

(٣٥٤) نفسه ، ٤٢/٢.

(٣٥٥) نفسه ، ٤٣/٢.

الانسانية لا مثيل له ، فلا شيء أسهل من أن نكتشف فيه المبادىء نفسها التي كان أرسطو قد نجح في وضعها بالاعتماد على قوة العقل وحده. نجد الشواهد على هذا ، الجهود البارة والثاقبة في الموضوعات الادبية الغنية التي نمت في العراق ابتداء من القرن العاشر (الميلادي ، الرابع الهجري) ...))[٣٥٦].

فحتى لو قام البلاغيون المسلمون بجهود مستميتة لتحقيق التطابق التام بين المعطيات القرآنية ومبادىء علم البيان الارسطو طاليسي ، على فرض التسليم بمحاولة كهذه ، فانه لمن المستحيل – يقينا – على النبي الامي (صلى الله عليه وسلم) أن يقدم نصا بهذا الامتداد والغنى ، لا يتضمن أيما ارتطام مع المبادىء التي اكتشفها أرسطو قبل قرون متطاولة ، معتمدا على قوة العقل وحده.

و(بلاشير) نفسه اذ يسلم بمعجزة القرآن الادبية يشير الى أن الرسول نفسه (صلى الله عليه وسلم) ((لم يرتفع في أحاديثه الدنيوية الى مستوى الجلال القرآني ..))[٣٥٧].

فما الذي يعنيه هذا ؟!

يجيب (بلاشير) في مكان اخر ((... ان القرآن ليس معجزة في محتواه وتعليمه فقط ، انه ايضا ويمكنه أن يكون قبل أي شيء اخر تحفه أدبية رائعة تسمو على جميع ماأقرته الانسانية وبجلته من التحف .. ان الخليفة المقبل عمر بن الخطاب ، المعارض الفذ في البداية للدين الجديد ، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن ، وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رتله المؤمنون))[٣٥٨].

وهذا الانفعال الجمالي الذي ((نشأ عن النثر القرآني)) لم يقتصر على المؤمنين وحدهم بل تجاوزهم الى الاعداء[٣٥٩] ، فما تحكيه الروايات عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، تحكي مثله عن حشود من الخصوم بهرتهم الكلمة القرآنية فدفعتهم الى تعزيز مقاومتهم اللا مجدية ، أو الى الانتماء لدين هذا كتابه ! ((ان القيمة الادبية للرسالة التي تبلغها العرب عن محمد (صلى الله عليه وسلم) قد تجلت حالا من غير أن يخالطها أي شيء دنيوي ، كأجمل أثر أدبي كان يمكن تصوره. ولا يجب أبدا أن يغرب عن بالنا هذا الحدث الذي يتصل بما توحيه

---

(٣٥٦) القرآن ، ص ١٠٣ ، ترجمة : رضا سعادة ، تحقيق ومراجعة الشيخ محمد علي الزعبي ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت–١٩٧٤م).

(٣٥٧) نفسه ، ص ١٠٤.

(٣٥٨) نفسه ، ص ١٠٢–١٠٣.

(٣٥٩) نفسه ، ص ١٠١.

الشريعة الجديدة من الاجلال ، عندما نحكم ميزة القرآن الجمالية ، ثم ان لهذه الميزة تأثيرا حتى على السامع الذي لا ينطق بالضاد ...))[٣٦٠].

وهذا ينقلنا بالضرورة الى تأثير (الادبيات) القرآنية والنتائج التي نجمت عنها.

[٤]

فها نحن نلاحظ مع (بلاشير) أن هذا التأثير لم يقتصر على طائفة المؤمنين أنفسهم ، بل تجاوزه الى الخصوم ، كما أنه لم يقتصر على قراء العربية وحدهم وانما تعداهم الى اولئك الذين لا ينطقون بالضاد.

لقد سحرهم الأداء القرآني ، بهر عقولهم وقلوبهم كما لم يبهرها شيء ، وقاد أكثر المستمعين في نهاية الامر الى الانتماء لدين هذا كتابه وتلك معجزته. وقد يتضمن هذا التأثير صيغة مركبة. فهنالك الدهشة والاعجاب لأداء متميز فريد ، وهنالك – ايضا – اليقين العقلي والوجداني الذي يتمخض عن هذه الدهشة وذلك الاعجاب ، والذي يؤكد للمستمع أو القارى بأن كتابا كهذا ليس كالكتب ، وان مصدره لا يمكن أن يرجع لانسان مهما كان المستوى الذي يتربع عليه الانسان.

لعل هذا التأثير الاهم والاكثر اتساعا لمعجزة القرآن الادبية : أن تبهر الناس وتقودهم الى الاسلام ، وهو بالتأكيد النقطة ، أو البؤرة المركزية التي استهدفتها جماليات القرآن. و(بلاشير) اذ يتحدث عن انتصار الاسلام يؤكد وجود أسباب عديدة متداخلة ((وفي طليعتها القرآن الذي كان سببا اساسيا. وكلما تتابعت الحوادث صار هذا السبب حاسما. ففي الوسط الذي تمت فيه التجربة انتقل العامل الديني ، بفضل اجتهاد بعض معتنقي الاسلام وحماستهم ، الى مكان الصدارة ، فالمرء ينتصر على خصومه لأنه اقوى منهم ، وهو اقوى منهم لانه يطيع الله ورسوله ، ويؤمن بكلامه المنزل ، وهكذا فان مفهوم اعجاز القرآن ينبثق من بين هذا المجموع))[٣٦١].

[٥]

وهو يتحدث في مكان اخر عن التأثير نفسه ، عن كون المعجزة الاسلوبية التي تحدّت الخصوم أربع مرات وخرجت منتصرة ، كانت واحدة من العوامل الاساسية في الانتماء للاسلام

---

(٣٦٠) نفسه ، ص ١٠١.

(٣٦١) تاريخ الادب العربي ، ٢/٥٠ – ٥١.

وفي انتصاراته التي حققها في كافة الجبهات ((ان الوحي الذي بلغه محمد يردد أربع مرات[٣٦٢] تحديه للكافرين في قدرتهم على أن يأتوا بشيء من مثله (يجعل الانسان) يحس بالرسالة القرآنية. اذ انها تكون بالتحديد ، من وجهة ما ، معجزة تجددت طوال دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم ..))[٣٦٣].

بل ان الطبيعة المركبة لتأثير الاداء القرآني تمتد الى اتجاه ثالث والذي يمكن أن يعبر عنه استنتاج (بلاشير) من ((أن اول ما يسترعي الانتباه في العالم الاسلامي هو ما للقران من التأثير العميق على الفرد سواء أكان ذلك رجلا أو امراة ...))[٣٦٤].

فليس يكفي أن يحدث القرآن التأثير في نفوس الخصوم دهشة واعجابا ، ثم ايمانا وانتماء، وانما أن يتواصل هذا التأثير بالنسبة للمنتمين أنفسهم عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل .. أن تظل ناره مشتعلة في الوجدان وأن تبقى كهرباؤه تهز الاعصاب ، توقظ الافئدة ، تزيح الصدأ ، تكسر الاقفال ، وتضع الانسان المؤمن وجها لوجه أمام هذا الاعجاز الباهر المتجدد الذي يحمي توتره الايماني ويجعله في حالة اهتزاز دائم وخفقان متواصل لايهدأ أو يفتر حتى تمسه شرارة الجمال القرآني فتلهبه وتضيئه من جديد.

ومع ذلك فان هذا الهدف المركزي لأدبيات القرآن والكسب الكبير الذي تمخض عنه ليس وحده في الساحة .. انما هناك تأثيرات اخرى ذات طابع علمي قد يمتد نشاطه ويتشعب حتى يأخذ صيغة تحفيز واستجابة ذات بعد حضاري ((ان الواقعة القرآنية – يقول بلاشير – مع كونها باعثا قويا على ازدهار الدراسات النحوية والمعجمية ، قد اتضح أثرها في مجال اخر كأثر أكثر فعالية أيضا. ولا نبالغ اذا قلنا بأن علم البيان العربي كان منطلقه من القرآن ، ومن الابحاث التي أثارها الاعجاز ، هذا الاعجاز الذي يجب على كل مؤمن أن يكتشفه بنفسه))[٣٦٥].

وكان من الطبيعي ، كما يستنتج (بلاشير) ((ان يقتنع مؤسسو علم البيان العربي منذ القرن التاسع (الميلادي ، الرابع الهجري) بأن القرآن يحتوي على جميع المواد الضرورية لاخراج علم يكون له مركز مرموق في الثقافة الاسلامية على مدى جميع العصور وحتى عصرنا هذا))[٣٦٦].

---

(٣٦٢) سورة البقرة (آية ٢٣)، يونس (آية ٣٨) ، هود (آية ١٣) ، الاسراء (آية ٨٨).

(٣٦٣) القرآن ، ص ١٠٠–١٠١.

(٣٦٤) نفسه ، ص ١٥٩.

(٣٦٥) نفسه ، ص ١٠٠–١٠١.

(٣٦٦) نفسه ، ص ١٠٣.

هذا التدفق المعرفي الذي بعثه القرآن في مجال الدراسات اللغوية والادبية ، فأنشأ فروعا جديدة ، وصقل وهذب أخرى ، وأغنى في الحالتين بمعطياته التي كانت تزداد كثافة بمرور الوقت ، واحدا من أهم أقسام الدراسات الانسانية التي كان لها – بدورها – تأثير بالغ خارج الدائرة الاسلامية وباتجاه بلاد وثقافات أخرى .. هكذا و((في جميع المجالات التي اطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان ، أثارت الواقعة القرآنية وغذت نشاطات علمية هي أقرب الى حالة حضارية منها الى المتطلبات التي فرضها اخراج الشريعة الاسلامية ..))[٣٦٧].

ليس هذا فحسب ، فان (بلاشير) يذكر بان ((هناك مجالات اخرى تدخل فيها (الواقعة القرآنية) كعامل اساسي)) كما انه يذكر بان فاعلية التاثير لا تقتصر على كون القرآن ينبه فقط ، انما هي بتعبير (بلاشير) ذي المغزى العميق ((فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية))[٣٦٨] ، تلك النوعية التي حبكها نول الله المعجز ، وصاغت اياتها العذبة وسورها الباهرة قدرته المبدعة الخلافة التي لا يوقفها شيء ، ولا تحدها ضفاف.

((وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ))[٣٦٩] ..

وصدق الله العظيم.

---

(٣٦٧) نفسه ، ص ١٠٤–١٠٥.

(٣٦٨) نفسه ، ص ١٠٥.

(٣٦٩) سورة لقمان ، (آية ٢٧).

كارلايل :

البطولة في مستوياتها العليا

[١]

كلنا نعرف الكاتب الانكليزي الشهير توماس كارلايل (١٧٩٥-١٨٨١م) من خلال كتابه المعروف (الابطال) ، لكن الكثيرين منا لا يكادون يعرفون شيئا عما قاله عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الفصل القيم الذي خصصه له.

وليس هذا المقال بطبيعة الحال مجالا لمتابعة وتحليل مفهوم كارلايل للبطولة ولموقع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منها ، انما نريد ان نؤشر على بعض تقويمات الرجل للنبي الذي يمثل البطولة الانسانية في مستوياتها العليا.

[٢]

المحور الاول الذي تدور حوله معطيات كارلايل هو صدق محمد (عليه الصلاة والسلام)، اذ لا يمكن بحال من الاحوال ان يتمكن من زعزعة عالم بكامله من الاضاليل والاوهام ، وان يقيم بدلا منه عالما اخر تماما ، ينتمي اليه ملايين المؤمنين في مشارق الارض ومغاربها دون ان تكون دعوته قائمة على الصدق ، مبنية بمفرادته. انه يتساءل : ((.. هل رايتم قط كاذبا يستطيع ان يوجد دينا عجبا ؟)) ثم يجيب : كلا !! ((فانه لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب ! فهو اذ لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذي يبنيه ببيت وانما هو تل من الانقاض وكثيب من اخلاط المواد ، وليس جديرا ان يبقى على دعائمه اثني عشر قرنا يسكنه [مئات الملايين] من الانفس ، ولكنه جدير ان تنهار اركانه فينهدم فكانه لم يكن. واني لاعلم ان على المرء ان يسير في جميع اموره طبق قوانين الطبيعة والا ابت ان تجيب طلبته)). وما يلبث ((كارلايل)) ان يخلص الى النتيجة التالية التي تاتي امرا منطقيا ازاء المقدمات التي طرحها ((كذب ما يذيعه اولئك الكفار وان زخرفوه حتى تخيلوه حقا .. ومحنة ان ينخدع الناس شعوبا واما بهذه الاضاليل))[٣٧٠].

ثم هو يستمد من استقراء تفاصيل حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة دليلا اخر على صدق دعوته ، فان ((مما يبطل دعوى القائلين ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم

---

(٣٧٠) الابطال ، ص ٤٣ ، ترجمة : محمد السباعي ، الدار القومية ، (القاهرة-بدون تاريخ).

يكن صادقا في رسالته .. انه قضى عنفوان شبابه ومرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة [مع خديجة رضي الله عنها] لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوي مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة. ولم يك الا بعد ان ذهب الشباب واقبل المشيب ان فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعا وثار يريد امرا وشانا عظيما))[٣٧١].

كما انه يستمد من خصائصه الاخلاقية والنفسية والذهنية ، ومن صدق العقيدة التي حمل امانتها ، وطرائق تلقيها ، وتساوقها مع اسرار الوجود ، وهما امران يشكلان المحورين الاخرين اللذين سنتحدث عنهما بعد قليل ، يستمد من هذا وذاك دلائل وبراهين اخرى على صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ((لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ، ابن القفار والفلوات ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى ونهى ، افكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامته كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم الا ان يكونوا مخلصين جادين ؟ فبينما نرى اخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ، اذ نرى محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يرض ان يلتفع بالاكاذيب والاباطيل.

لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الامور والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه باهواله ومخاوفه ومباهره ، ولم يك هنالك من الاباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكانه لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه : ها أنذا. فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى الهي مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل الا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم فكل الاذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل جدل جفاء))[٣٧٢].

وعلى ضوء هذا كله يتساءل مرة اخرى ((ايزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمدا (صلى الله عليه وسلم) واثاره ؟)) ويجيب بمفردات تحمل بنفسها احتقاره البالغ لهذا الادعاء ((لنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل ان محمدا كاذب [وحاشاه] ونعد موافقتهم عارا وسبة وسخافة وحمقا ، فلنرباً بنفوسنا عنه ولنترفع !))[٣٧٣].

وما يلبث ان يخلص الى القول الفصل الذي لا تكتنفه شبهة ولا تشوبه شائبة ((ما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) بعابث قط ، ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو ، بل كان الامر عنده امر خسران وفلاح ومسالة فناء وبقاء. ولم يك منه ازاءها الا الاخلاص الشديد والجد

---

(٣٧١) نفسه ، ص ٥١.

(٣٧٢) نفسه ، ص ٥١-٥٢.

(٣٧٣) نفسه ، ص ٥٢-٥٣.

المر. فاما التلاعب بالاقوال ، والقضايا المنطقية ، والعبث بالحقائق ، فما كان من شانه قط))[٣٧٤].

ان الامر اكبر بكثير واخطر بكثير من ان يتجاوز دائرة الصدق المطلق .. انه موقف يتعلق بمصير البشرية كلها ، امر خسرانها وفلاحها ، ومسالة فنائها وبقائها ، وهو من ثم يحمل جديته البالغة التي تتهافت ازاءها وتتضاءل عند سفوحها الدنيا ادعاءات الادعياء الهازلين.

((وكارلايل)) يعرف جيدا أمية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وانه لم يتلق درسا على احد او ياخذ تعليما من استاذ .. ان فطرته النقية كالبلور .. صدقة الباطني ورغبته المتاصلة في البحث عن الحق ، وتجاوز مواقع الباطل ومظان الاوهام والاضاليل .. ذهنه المتوقد كالنار والذي لم يكف خفقانه لحظة وهو يبحث عن اصل الوجود وسبب الاسباب ومنشيء السنن والنواميس .. ان هذا كله ، متدفقا من سريرة لا تعرف ميلا ولا التواء ، هو الذي جعل محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) يقلب ابصاره في الكون والعالم والظواهر والاشياء اناء اليل واطراف النهار من اجل ان يرسو على شاطيء يرتاح له وتطمئن اليه نفسه ويسعد وجدانه.

انها بلا ريب ارادة الله ان ينفخ في هذا الرجل العظيم بذرة القلق تهيئة وتمهيدا ليوم الفصل ، يوم اللقاء الكبير الحاسم بين وحي الله ورسوله الامين.

ان كارلايل يقف عند هذه المسالة ، يقلبها على وجوهها ، ويرسم من تفاصيلها ومنحنياتها العجيبة الفذة ملمحا اخر من ملامح بطولة الرجل – النبي الذي قدر له ان ينجح في امتحان البحث عن الحق وان يبعث الى العالم كي يقوده الى الصراط.

وهو بهذا يعمق خطوط الملمح الاول ويضيف عليه ((أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يتلق دروسا على استاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء واحوالها ، وكل ما وفق الى معرفته هو ما امكنه ان يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية .. انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ما تيسر له ان يبصره بنفسه او يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب .. ولم يضره .. انه لم يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لانه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك . ولم يقتبس محمد (صلى الله عليه وسلم) من نور اي انسان اخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع اشباهه من الانبياء والعظماء – اولئك الذين اشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور – من كان بين

---

(٣٧٤) نفسه ، ص ٦٤.

محمد (صلى الله عليه وسلم) وبينه ادنى صلة. وانما نشا وعاش وحده في احشاء الصحراء .. بين الطبيعة وبين افكاره))[٣٧٥].

انها القدرة الذاتية التي منحه الله اياها ، الاستغناء المطلق عن أي مخلوق والتلقي المطلق عن الله وحده .. فأية أمانة هذه التي ناءت بها السماوات والارض واختير لها الرجل ؟ وأية بطولة ان تسامت هذه البطولة أو تبلغ خطواتها الاولى ؟ ((لقد كان صلى الله عليه وسلم منفردا بنفسه العظيمة ، وبحقائق الامور والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه بأهواله ومخاوفه ومباهره))[٣٧٦].

[٣]

ويواصل كارلايل رحلته مع الرجل – النبي الذي كان يجابه وحيدا أغاميض الكون والوجود ببطولة نادرة فيقذف هذه الاغاميض بألف سؤال عله يحظى بالجواب الموعود ((وما زال محمد (صلى الله عليه وسلم) منذ أيام رحلاته وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الافكار: ماذا أنا ؟ وما هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا اعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ وهذا ما ينبغي لكل انسان أن يسأل عنه نفسه. فقد احس ذلك الرجل القفري أن هذه كبرى المسائل وأهم الامور وكل شيء عديم الاهمية في جانبها. انه في واد [والناس] في واد يعمهون في ضلالهم ، وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فاما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين ..))[٣٧٧].

ومن وراء كل المظاهر الكاذبة ، من وراء كل الاضاليل والمذاهب والفلسفات المخادعة ، من وراء ضباب الزيف وعتمة الاوهام التي غطت على العالم من أقصاه الى أقصاه ، قدر محمد (صلى الله عليه وسلم) أن ينفذ برؤيته الى الحق .. لقد كان ينظر ، كما يقول ((كارلايل)) ((من وراء أصنام العرب الكاذبة ، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم .. بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الامر وصميمه ، وقال في نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الاصنام لا تضر ولا تنفع ، وهي منكر وكفر ، انما الحق **أن لا اله الا الله وحده لا شريك له**))[٣٧٨].

---

(٣٧٥) نفسه ، ص ٥٠.

(٣٧٦) نفسه ، ص ٥١–٥٢.

(٣٧٧) نفسه ، ص ٥٢–٥٣.

(٣٧٨) نفسه ، ص ٥٩.

تلك كانت نهاية مرحلة وبدء مرحلة اخرى .. لقد أريد للرجل الذي ظل يبحث عن الحق عشرين سنة أن يبعث الى العالم كله لكي يقوده الى الصراط ... وكان الامر في كلتا المرحلتين يتطلب بطولة من نوع فريد .. ولقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) جديرا بهذه البطولة ، كفؤا لها ..

[٤]

حتى اذا ما بلغنا خصائص الرسول الخلقية (عليه الصلاة والسلام) ، لكي نرى ماذا يقول ((كارلايل)) وهو يعاينها ويتملاها ، فاننا سنلتقي بخط اخر من خطوط هذه الشخصية المتفردة .. خط يتضمن هو الاخر قيم البطولة في مستوياتها العليا التي لم يكن أحد أقدر من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على التحقق بها.

فمنذ البداية ((لوحظ على محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه كان شابا مفكرا ، وقد سماه رفقاؤه الامين – رجل الصدق والوفاء – الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا انه ما من كلمة تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة ، واني لاعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضاً فيتركه الا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته .. وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رؤوفا تقيا فاضلا حرا ، رجلا شديد الجد مخلصا ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة ، حلو الايناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضيىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق .. وكان ذكي اللب ، شهم الفؤاد عظيما بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، وهو غني عن ذلك .. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء))[٣٧٩].

ان بعضا من هذه الخصائص قد تجتمع في شخص فيكون عظيما ، فكيف بها جميعا ؟ هذا الى ان هذه المجموعة الكبيرة المتنوعة من القيم الخلقية والتي قد يذهب بعضها يمينا بينما يذهب بعضها الاخر شمالا ، يصعب أن تجتمع وتتلاءم في شخصية واحدة ، بل اننا لنجد الكثير من الابطال ، عبر التاريخ ، يتألقون في جانب وينطفئون في جانب اخر ، بل قد يذهب بهم التناقض الى ما هو أركس من الانطفاء .. انه الطغيان والتجبر والشذوذ والاعجاب بالذات، والانحراف – أحيانا – صوب انفصام الشخصية وربما الجنون ... ونحن نسمع كثيرا بهذا التعبير المحزن الذي جر على الشعوب والجماعات الماسي والويلات : جنون العظمة ..

---

(٣٧٩) نفسه ، ص ٥٠-٥١.

أما هنا ، ازاء شخصية رسول الاسلام (عليه الصلاة والسلام) ، فاننا نجد شيئا عجبا .. تناغما بين حشود القيم والخصائص لم تتهيأ لإنسان من قبل ومن بعد ، ولم يكن ذلك الامر العجيب فلتة عابرة أو صدفة تغرم بالاستثناءات ولكنها ارادة الله سبحانه وتعالى شاءت أن يتحقق هذا الوفاق العظيم للرجل الذي سيحمل الرسالة الاخيرة ، ويغير العالم ، وتدين لطاعته ومحبته واجلاله مئات الملايين من المؤمنين في مشارق الارض ومغاربها.

من أجل ذلك يعلن ((كارلايل)) الذي تبهره هذه الشخصية ((اني لاحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن القفاز هذا رجلا مستقل الرأي لا يعول الا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه. ولم يكن متكبرا ، ولكنه لم يكن ذليلا فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها. وكان رجلا ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم الى غد ..))[٣٨٠].

[٥]

ويمضي ((كارلايل)) يستعرض جملة أخرى من خصائص رسول الله الاخلاقية ومن القيم التي تشربت بها نفسه فاستحالت أمرا واقعا ، وحياة منظورة ، وتجربة معيشة ، وليس مجرد مثل معلقة في السماء تدعى ولا تجد طريقها للتنفيذ ، فيكون الازدواج وتكون الثنائية التي عرفها التاريخ عن كثير من زعمائه وأبطاله. أما ها هنا فانه التوحد الذي لا يعرف كسرا ، والالتئام الذي لا يتحمل شرخا ، ولنستمع الى ((كارلايل)) وهو يقول : ((ما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد مانجور ونخطى اذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ ، كلا ! فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت. لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر اموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره النار .. وكان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك من مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد في الله ، قائم النهار ساهر الليل ، دائب في نشر دين الله ، غير طامح الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع الى ذكر أو شهرة كيفما كانت. رجل عظيم .. والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما واكبارا واعظاما ، وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ، ثلاث وعشرين حجة ، وهم ملتفون به ، يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله. لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة ، وكانوا وعري المقاد صعاب الشكيمة ، فمن قدر

---

(٣٨٠) نفسه ، ص ٦٤.

على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم بطل كبير ، ولولا ماابصروا فيه من ايات النبل والفضل لما خضعوا له ولا اذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ؟ وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد (صلى الله عليه وسلم) قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد (صلى الله عليه وسلم) في ثوبه المرقع بيده. فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الابطال !))[٣٨١].

[٦]

وما أروع أن نختتم مقالنا هذا بهذه الصورة (الانسانية) المؤثرة التي تهز وجدان ((كارلايل)) فيعلن اخوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، للبشرية جمعاء !

((لما استشهد مولاه زيد بن حارثة في غزوة مؤتة (٨هـ) قال محمد (صلى الله عليه وسلم) لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، ولقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه. ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي ! وجدت الرجل الكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعا ! فقالت : (ماذا أرى ؟) قال : (صديق يبكي صديقه) !

((مثل هذه الاقوال وهذه الافعال ترينا في محمد (صلى الله عليه وسلم) أخا الانسانية الرحيم، أخانا جميعا الرؤوف الشفيق ، وابن امنا الاولى وأبينا الاول))[٣٨٢].

---

(٣٨١) نفسه ، ص ٦٣-٦٤.

(٣٨٢) نفسه ، ص ٦٤١.